

المملكة العربية السعودية
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
قسم العقيدة

مباحث المفاضلة في العقيدة

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه

إعداد
محمد بن عبد الرحمن أبو سيف الشظيفي

إشراف
الدكتور أحمد بن عطية بن علي الغامدي

١٤١١هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ،نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ،من يهدى الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، أما بعد :

فإذا طلبت العلم فاعلم أنه ∴ حمل فأبصر أى شىء تحمل

وإذا علمت بأنه متفاضل ∴ فاشغل فؤادك بالذى هو أفضل (1)

ولاريب أن أفضل العلوم وأكملها ،العلم الذى خلق الله الخلق من أجله ،وأرسل رسله وأنزل كتبه لتقريره ،ويبعث الخلق لمحاسبتهم فيه ،وخلق الجنة والنار للمجازاة عليه ، العلم الذى أمر الله به نبيه فى قوله :" فاعلم أنه لا إله إلا الله " ـ محمد ١٩ ـ ، وأمره أن يخبر قومه عنه بقوله :" قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين" ـ الأنعام ١٦١ـ، فهذا العلم هو الصراط المستقيم ، علم العقيدة ، الذى ينعقد فى القلب وتصدقه الجوارح،والعناية به فقها وعملا هو مراد الله من خلقه،ومورد هذه العقيدة هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ،فمن تمسك بهما فتفقه فيهما ورد إليهما كل شأنه فهو من أهل هذه الآية : " ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم " ـ آل عمران ١٠١ـ ومن هجرهما وتبدل غيرهما بهما فهو من أهل هذه الآية :" ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل " ـ البقرة ١٠٨ ـ ،قال تعالى :" وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم، وإن الذين لايؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون" ـ المؤمنون ٧٣ ـ ٧٤ ـ.

ولقد شاء الله سبحانه أن نكب عن هذا الصراط المستقيم خلق ،" من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم" ـ الأنعام ٣٩ ـ .

وقد كان تنكب الناكبين عن الصراط إلى سبل متفرقة على شكول متعددة بحسب تعدد أسباب جنوحهم التى يجمعها أنها حيود عن الحق فى مباحث العقيدة ومسائلها.

---

(1) العقد الفريد ٢/٧١.

أما الباب الثاني : فهو في تفاضل الخلق ،وفيه خمسة فصول :

الفصل الأول : في تفاضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ،وفيه أربعة مباحث تحتها مسائل :،

المبحث الأول : مسائل تمهيدية في التعريف بالنبي والرسول والفرق بينهما وصفة الاعتقاد الواجب على العبد في الأنبياء .

المبحث الثاني : في أدلة التفاضل بين الأنبياء ووجوهه جملة .

المبحث الثالث : في المفاضلة بينهم على التفصيل .

المبحث الرابع : في توجيه النهي الوارد عن تفضيل بعض الأنبياء على بعض .

الفصل الثاني: في المفاضلة بين الأنبياء وبقية البشر ،وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : في منزلة الأنبياء في البشر قبل نبواتهم .

المبحث الثاني : في حقيقة النبوة .

المبحث الثالث : في كون الأنبياء أفضل البشر .

المبحث الرابع : عرض المقالات الباطلة في هذا الباب .

الفصل الثالث : في فضل الصحابة والمفاضلة بينهم ،وفيه أربعة مباحث تحتها مطالب :

المبحث الأول : في تعريف الصحبة ،وبيان فضلها وتفاضلها .

المبحث الثاني : في بيان فضل الصحابة وتفضيلهم على الأمة .

المبحث الثالث : في التفاضل بين الصحابة .

المبحث الرابع : في الآراء الشاذة والمقالات الباطلة في هذا الباب .

الفصل الرابع : في التفاضل بين المؤمنين ومباحث متفرقة في المفاضلة ، ومهدت له بتمهيد في بيان مقياس التفاضل في الشرع ،ثم جعلته قسمين :

القسم الأول : في التفاضل بين المؤمنين ،وفيه سبعة مباحث :

المبحث الأول : في بيان أن الأصل في تفاضل المؤمنين تفاضل الإيمان.

المبحث الثاني: في الأدلة على تفاضل المؤمنين .

المبحث الثالث : في بيان مايقع فيه تفاضل المؤمنين.

المبحث الرابع : فى جماع أوجه تفاضل المؤمنين.

المبحث الخامس : فى تفاضل قرون أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

المبحث السادس : فى تفضيل أمة محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأمم.

المبحث السابع : فى مواقع من الباطل فى هذا الباب.

أما القسم الثانى : فهو فى مباحث متفرقة فى المفاضلة، وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول : فى جواز إمامة المفضول.

المبحث الثانى : فى تفاضل الملائكة.

المبحث الثالث : فى المفاضلة بين الملائكة والبشر.

المبحث الرابع : فى تفاضل العبادات.

المبحث الخامس : فى تفاضل الأمكنة والأزمنة.

الفصل الخامس : فى تفاضل المؤمنين فى الآخرة، وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول : فى التفاضل فى البرزخ.

المبحث الثانى : فى التفاضل فى المحشر.

المبحث الثالث : فى التفاضل فى الحساب.

المبحث الرابع : فى التفاضل فى المرور على الصراط وورود الحوض.

المبحث الخامس : فى التفاضل فى درجات الجنة.

وأما **الخاتمة** فقد عرضت فيها ثمرة البحث ومحصلته. ووضعت فهرسا لموضوع الرسالة فى آخرها.

وقد بذلت وسعى فى الوصول بالبحث إلى أقرب منزلة من الكمال وقد اجتهدت لتركيز المادة العلمية فى البحث على الوجه الذى يحتمله موضوعه من غير إخلال أو حشو، فأردته مختصرا شاملا، واجتهدت أن يكون أسلوبه علميا جادا منظما سهل المأخذ سريع الفهم قوى الدلالة صحيح العلم. فإن وفقت فمن الله وحده، وإن أخفقت فمنى ومن الشيطان بتقدير الله وقضائه.

وقد اعتمدت فى توثيق مضمون الرسالة منهجا يقوم على الآتى :-

١- تخريج الآيات الواردة فيه بذكر اسم السورة ورقم الآية إلى جوارها فى نفس المتن.

٢- تخريج الأحاديث الواردة فى المتن بذكر الكتب التى خرجتها، فإن كان الحديث فى صحيحى البخارى ومسلم أو فى أحدهما اكتفيت بعزوه إليهما أو إلى أحدهما دون غيرهما وإن خرجه، وإن كان فى غير الصحيحين عزوته إلى الكتب التى خرجته مما وقفت عليه منها مع ذكر أقوال بعض أهل العلم فى درجته باختصار، وجعلت العزو فى الهامش.

٣- ما نقلته فى المتن بنصه عن أحد كتب العلم فإنى أحيله فى الهامش إلى مصدره بذكر رقم الصفحة ورقم الجزء إن كان أجزاء، ولقد اختصرت بعض أسماء الكتب بذكر اسمها المشهور المتداول ونبهت إلى ذلك فى فهرس المراجع، ومثال ذلك: كتاب: " جامع البيان فى تفسير القرآن " للطبرى، اكتفيت بتسميته " تفسير الطبرى ".

٤- ما ورد فى المتن بمعناه دون لفظه عن أحد كتب العلم فإنى أحيله فى الهامش إلى مصدره مصدرا الإحالة بكلمة " انظر ".

٥- ترجمت بعض الأعلام، وتركت ترجمة المشاهير المتداول ذكرهم بين طلاب العلم.

٦- وضعت فهرسا لبيان طبعات المراجع التى أحلت إليها فى الهوامش ورتبته على حروف المعجم، وفى هذه المراجع مصادر أصلية للرسالة هى مواردها ومصادر ليست إلا للتوثيق فقط وهى كتب الرافضة وأهل وحدة الوجود وبقية المبتدعة وثقت بالإحالة إليها ما ذكرته من مذاهب هؤلاء وأقوالهم.

وبعد: فإنى أضع بين يدى القارئ والناقد جهد المقل، ولا أدعى أننى بلغت فى هذا البحث كل ما أريد ولكننى بذلت فيه وخرجت منه بما كتبه الله وقضاه، ولقد قضى سبحانه ألا عصمة لكتاب غير كتابه، فالكلام الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنما هو كلام الله فحسب، والجميل من المرء أن يغفر قليل خطأ أخيه فى كثير صوابه، وإنى لأجد فائدتى فى نقدى، وأحسن الله لمن أهدى إلي عيوبى.

وأسأل الله عز وجل أن يشكر للشيخ الدكتور **صالح العبود** ما أفدته منه وقد أشرف على هذه الرسالة فى أوائلها، وأن يشكر للشيخ الدكتور **أحمد العمرى**

المشرف على الرسالة ما أهدانيه من توجيهاته ، وأن يشكر سبحانه لكل أخ أفدت منه فى البحث بشىء وإن قلّ ، وأن يشكر لمناقش هذه الرسالة ما أهدانيه - ابتغاء مرضاة الله - من ملاحظات على ما فى الرسة مما ينال من العلم إخلالا أو تعييبا .

وأشكر الله وأحمده أولا وآخرا على توفيقه وفضله ، وأستغفره من من خطأى وتقصيرى ، وله سبحانه الفضل والمنة من قبل ومن بعد لاشريك له ، وله الحمد كثيرا دائما .

وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه .

التمهيد

"تمهيـــــــد"

المسألـة الأولى : معنى المفـاضلة واشتقاقها فى اللغة :

المفاضلة على وزن مفاعلة ، ومعلوم أن هذا البناء فيه التشريك بين جهتين، وفيه معنى المغالبة، فيدل على غلبة أحدهما، فالمفاضلة هى المقارنة بين شيئين أو جهتين وتغليب أحدهما على الآخر فى الفضل، إذا فالمفاضلة إثبات الفضل لشىء على آخر، وتقديمه بذلك عليه، ولذا يقال : فاضلته ففضلته، إذا غلبته فى الفضل، كما فى الصحاح[1]، وفى اللسان: " الفضال والتفاضل : التمازى فى الفضل ، وفضله : مزاه ، والتفاضل بين القوم : أن يكون بعضهم أفضل من بعض، ورجل فاضل : ذو فضل، ورجل مفضول : قد فضله غيره، ويقال : فضل فلان على غيره إذا غلب فى الفضل عليهم[2]"، والمفاضلة مصدر قياسى من " فاضل " .

والأصل الذى اشتق منه اسم المفاضلة هو الفعل : فضل، يقال : فضل الشىء يفضل كدخل يدخل أو فضل يفضل كحذر يحذر وفيه لغه ثالثة مركبة منها : فضل كحذر يفضل

---

(١) الصحاح ١٧٩١/٥.

(٢) لسان العرب ٥٢٤/١١.

كيدخل وهى نادرة شاذة لانظير لها.(١)

لكن جاء فى تاج العروس :" والذى فى كتاب الفرق لابن سيد(أ) أن هذه اللغات الثلاث إنما هى فى الفضل الذى يراد به الزيادة فأما الفضل الذى هو بمعنى الشرف فليس إلا لغة واحدة وهى فضل يفضل كقعد يقعد".(٢)

وفى التاج أيضا :" قال الصيمرى(ب) فى كتاب التبصرة له : فضل يفضل كنصر ينصر، من الفضل الذى هو السؤدد، وفضل يفضل بكسرها فى الماضى وضمها فى المضارع من الفضلة وهى بقية الشىء".(٣)

---

(١) انظر الصحاح ١٧٩١/٥ ،ومعجم مقاييس اللغه ٥٠٨/٤ ،ولسان العرب ٥٢٥/١١،والقاموس المحيط ٣١/٤ ،وبصائر ذوى التمييز١٩٦/٤، وتاج العروس ٦١/٨.

(٢) تاج العروس ٦١/٨.

(٣) الصحاح ١٧٩١/٥.

(أ) لعله ابن السيد البطليوسى أبومحمدعبدالله بن محمد ،نحوى عالم باللغة له التصانيف فيها منها " المثلث " وهوأوسع وأضبط وأفضل من مثلث قطرب ،وشرح سقط الزند للمعدى أحسن من شرح المصنف ،ولد سنة ٤٤٤ هـ ،وتوفى سنة ٥٢١ هـ.
انظر وفيات الأعيان ٩٦/٣، البداية والنهاية ١٩٨/١٢.

(ب) لم أعرفه .

وقد ذكر الجوهري (أ) قول سيبويه (ب) في لغة كسر الماضي وضم المضارع فقال : "قال سيبويه : هذا عند أصحابنا إنما يجيء على لغتين " يعني أنه ليس لغة مستقلة وردت ،قال سيبويه : " وكذلك نعم ينعم ،ومت تموت ،وكدت تكود" وكذا يرى الفراء (ج) أنها مركبة من لغتين (١) . وعليه تكون لغة كسر الماضي وضم المضارع نادرة شاذة لانظير لها كما قطع به ابن فارس والجوهري فلا تكون أصلا مستقلا .

---

(١) انظر الأضداد ص (١٢) .

(أ) هو اسماعيل بن حماد كان من أعاجيب الزمان ذكاء وعلما وهو إمام في اللغة والأدب ،قال الذهبي فيه :" أحد من يضرب به المثل في ضبط اللغة " مات قريبا من الأربعمائة . انظر سير أعلام النبلاء ٨٠/١٧ ،ولسان الميزان ٤٠٠/١ ،ومعجم الأدباء ١٥١/٦ .

(ب) سيبويه هو عمرو بن عثمان بن قنبر ، إمام النحاة ،كان في ابتداء أمره يصحب أهل الحديث والفقهاء وكان يستملي على حماد بن سلمة فلحن يوما فرد عليه قوله فأنف من ذلك فلزم الخليل بن أحمد حتى برع في النحو ،توفي سنة ١٨٠هـ وقيل غير ذلك . انظر تاريخ بغداد ١٩٥/١٢ ،والبداية والنهاية ١٧٦/١٠ .

(ج) هو يحيى بن زياد الديلمي ، امام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب ،كان يقال له : أمير المؤمنين في النحو ،توفي سنة ٢٠٧هـ انظر تاريخ بغداد ١٤٩/١٤ . وتهذيب التهذيب ٢١٢/١١ .

والفاء والضاد واللام أصل واحد يدل على الزيادة حيث تصرف[1]، ومنه الفضل والفضلة وهي البقية الزائدة من الشيء وكذا منه الفضل والفضيلة وهي الزيادة في الرفعة والشرف، ولذا قال الجوهري[2]: "الفضل والفضلة: خلاف النقص والنقيصة" قال أبو هلال العسكري[أ][3]: "الفضل: الزيادة".

قال الراغب[ب]: "الفضل: الزيادة على الاقتصار" قال: " وذلك ضربان: محمود كفضل العلم والحلم، ومذموم كفضل الغضب على مايجب أن يكون عليه "،

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة ٥٠٨/٤

(٢) الصحاح ١٧٩١/٥.

(٣) الفروق في اللغة ١٨٩.

- - - - - - - - - - - - - - -

(أ) هوالحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، وصف بالعلم والفقه معا والغالب عليه الأدب والشعر توفي بعد سنة ٣٩٥هـ انظرمعجم الأدباء ٢٥٨/٨، والأعلام ١٩٦/٢، ومعجم المؤلفين ٢٤٠/٣

(ب) هو الحسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصفهاني، أديب من الحكماء العلماء واشتهر حتى كان يقرن بالغزالي وقدكان في عصره إذ توفى سنة ٥٠٢هـ.

أنظر الأعلام ٢٥٥/٢، ومعجم المؤلفين ٥٩/٤.

قال : " والفضل فى المحمود أكثر استعمالا والفضول فى المذموم "[1].

والفضيلة هى الدرجة الرفيعة فى الفضل[2] قال أبو هلال العسكرى:

" الفاضل هو الزائد على غيره فى خصلة من خصال الخير " قال :" يقال : فضل الشئ فى نفسه ، إذا زاد ، وفضله غيره إذا زاد عليه ، وفضله بالتشديد إذا أخبر بزيادته على غيره "[3] قال الجوهرى :" فضله على غيره تفضيلا أى حكم له بذلك أو صيره كذلك "[4]. وفى تاج العروس :" فضله على غيره تفضيلا : مزاه ، أى أثبت له مزية أى خطة تميزه على غيره "[5].

والأفضل هو الأعلى درجة فى الفضل والأوفر حظا منه ، يقول ابن حزم :" لو جاز أن يكون الأفضل أنقص درجة لبطل الفضل ولم

---

(١) المفردات ٣٨١ ، وانظر بصائر ذوى التمييز ١٩٦/٤.

(٢) القاموس ٣١/٤ ، وبصائر ذوى التمييز ١٩٦/٤.

(٣) الفروق فى اللغة ١٨٩.

(٤) الصحاح ١٧٩١/٥.

(٥) تاج العروس ٦١/٨

يكن له معنى ولارغب فيه راغب ". يقول العز[أ] بن عبد السلام : " لامعنى للتفضيل إلا التخصيص بالمناقب والمراتب ".[2][1]

وعلى ماتقدم يعلم أن المفاضلة تدور على أركان أربعة هي :-
الفاضل ، والمفضول ، وسبب الفضل ووجهه ، والمفضل الحاكم بالفضل.

ثم أنت ترى مُدْرِكا أن جماع الأمر فى التفاضل والمفاضلة إنما هو فى مورد الفضل وسببه ووجهه فهو قطب رحى الأمر ، وهو عند أهل اللغة كما رأيت خصال الخير جملة أو شرف النسب أو سيادة القوم وتكون بأحدهما .

---

(1) المحلى 1/44

(2) بداية السول ص 35.

(أ) هو عبدالعزيز بن عبدالسلام السلمى ، الملقب بسلطان العلماء ، تولى التدريس والخطابة فى دمشق ، ثم القضاء والخطابة فى مصر ، توفى سنة 660هـ.

انظر : طبقات الشافعية 5/80

ومفتاح السعادة 1/209 و 702.

المسألة الثانية : ألفاظ المفاضلة :

الأصل في الألفاظ الدالة على المفاضلة ويحكم بها في التفضيل لفظ (أفضل) ثم مايدل دلالته مما كان بمعناه دون وزنه أوكان بمعناه ووزنه ، أما ماكان بمعناه دون وزنه فنحو لفظ (خير) إذا قصد به التفضيل نحو قوله سبحانه : " ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم" - البقرة ٢٢١ - وقوله تعالى :" قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى " - البقرة ٢٦٣ - وأما ماكان بوزنه ومعناه فكل لفظ قصد به التفضيل وهو على وزن أفعل ،نحو لفظ (أهدى) في قوله سبحانه :" قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم " - الزخرف ٢٤ -.

والفارق بين لفظ (أفضل) وغيره مما كان بوزنه ومعناه - فيما يبدو - أن كلمة (أفضل) تدل على الحكم بالفضل إجمالا من غير تحديد وجهه وسببه ،أما غيرها فيدل على الفضل في صفة الفعل المصاغ منه خاصة ، نحو : أجمل يدل على الفضل في الجمال خاصة ،فيكون فيه تحديد وجه الفضل .

واللفظ الدال على المفاضلة قد يلفظ مفردا كأحسن في قوله تعالى :" وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أوردوها " - النساء ٨٦ - ،وقد يلفظ مجموعا كحسان في قوله تعالى " فيهن خيران حسان " - الرحمن ٧٠ - وكأحاسن في قوله - صلى الله عليه وسلم - " إن من أحبكم إلي وأقربكم مني منزلا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا "(١) ورواه أحمد بلفظ "محاسنكم "(٢) وقد يلفظ مؤنثا كالحسنى في قوله سبحانه " ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها " . - الأعراف ١٨٠- وورد تثنية هذا اللفظ في قوله سبحانه :" قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين " - التوبة ٥٢ -. كل ذلك في أحكام وقواعد لغوية مبسوطة في كتب النحو.(٣)

وقد عقد النحاة في بيان قواعد اللغة بابا سموه (أفعل التفضيل) ،وجعلوا هذا الاسم مصطلحا لكل اسم دل على زيادة سواء كانت زيادة في فضل كأفضل وأجمل ،أم زيادة في نقص كأقبح وأسوأ ،وأثبتوا أن استعمال العرب دال على أن أفعل التفضيل لايصاغ من فعله إلا بشروط ،ذكروا منها:

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٢٥/٤.
والطبراني في المعجم الصغير ٣٠٦

(٢) المسند ١٩٣/٤.

(٣) انظر أوضح المسالك ٢٩٤/٢ - ٣٠٢ ، وشرح ابن عقيل ١٧٨/٣-١٨٢وغيرهما.

أن يكون الفعل متصرفا، وأن يكون معناه قابلا للتفاضل ،فلا يصاغ من الجامد ولامن الذى لايتفاوت البتة.[1]

هذا ،ويرد أفعل التفضيل دالا على الفضل دون التفضيل، حيث لايقصد به التفضيل، كقولك الله أكبر وأعلى وأجل، فإنه ليس للتفضيل، إذْ لم يكابر اللهَ أحدٌ حتى يكون الله أكبر منه ،ولما قال أبوسفيان يوم أحد " أعل هبل " قال - صلى الله عليه وسلم " قولوا : الله أعلى وأجل "[2] وهبل لم يكن قط عاليا ولاجليلا . ومنه قول لوط عليه السلام فيما حكاه الله عنه " هؤلاء بناتى هن أطهر لكم " هود ٧٨. فإنه عليه السلام لم يقصد التفضيل لأنه ليس فى إتيان الرجال طهارة حتى يكون نكاح النساء أطهر منه.[3]

والتفضيل بين شيئين إنما يكون فيما يشتركان فيه فيفضل أوفرهما حظا منه على الآخر.

---

(١) انظر أوضح المسالك ٢٩٣/٢ ثم ص ٢٨١ ،وكذا شرح ابن عقيل ٣/ص ١٧٤ ثم ص ١٥٤.

(٢) انظر صحيح البخارى مع الفتح ١٦٣/٦.

(٣) انظر تفسير القرطبى ٧٦/٩.

المسألة الثالثة : وجوه التفضيل وأسبابه :

التفضيل بين شيئين يبنى على معرفة الفضيلة ماهى ؟ ومن أولى بها منهما ؟، وذلك هو وجه التفضيل وسببه ، فما هى وجوه التفضيل ؟

يقول ابن حزم :". الفضل ينقسم إلى قسمين لاثالث لهما : فضل اختصاص من الله عز وجل بلا عمل ، وفضل مجازاة من الله تعالى بعمل ، فأما فضل الاختصاص دون عمل فإنه يشترك فيه جميع المخلوقين من الحيوان الناطق والحيوان غير الناطق والجمادات والأعراض" ثم مثل لذلك بأمثلة منها : فضل الملائكة فى ابتداء خلقهم على سائر الخلق وفضل ناقة صالح على سائر النوق وفضل الحجر الأسود على سائر الحجارة وفضل المساجد على سائر البقاع وفضل شهر رمضان على سائر الشهور، ثم قال :" فأما فضل المجازاة بالعمل فلا يكون البتة إلا للحى الناطق من الملائكة والإنس والجن فقط " قال :" وهذا هو القسم الذى تنازع الناس فيه فى هذا الباب الذى نتكلم فيه الآن من أحق به"(1)

(1) يعنى : باب :" الكلام فى وجوه الفضل والمفاضلة بين الصحابة ".

قال : " فوجب أن ننظر أيضا في أقسام هذا القسم التي بها يستحق الفضل فيه والتقدم فنحصرها ونذكرها بحول الله وقوته ثم ننظر حينئذ من هو أحق به وأسعد بالنسوق فيه فيكون بلاشك أفضل ممن هو أقل حظا فيها بلاشك وبالله تعالى التوفيق ،فنقول وبالله تعالى المستعان : إن العامل يفضل العامل في عمله بسبعة أوجه لاثامن لها وهي: الماثية وهي عين العمل وذاته ،والكمية وهي العرض في العمل ،والكيفية والكم ،والزمان ،والمكان ،والإضافة "(1)

ثم شرع في بيان هذه السبعة فذكر أن الماثية أن يؤدى أحدهما الفروض كلها والآخر يضيع بعضها أو أن يؤدياها كلها إلا أن نوافل أحدهما أفضل من نوافل الآخر ،وأما الكمية وهي العرض: فأن يقصد أحدهما بعمله الله ويمزج الآخر من قصده شيئا آخر فيفضله الأول بعرضه في عمله ،وأما الكيفية فأن يوفي أحدهما عمله كله بسننه وفرائضه لاينقص منها والآخر ربما نقص من السنن وإن لم يعطل الفرائض ،فيفضله الأول بكيفية العمل ،أما الكم فأن يستويا في أداء الغرض ويزيد أحدهما

---

(1) الفصل ١١٢/٤ – ١١٥.

بالنوافل فيفضله بكثرة عدد نوافله ،وأما الزمان فالـكالعمل في صدر الإسلام يفضل العامل بعد قوة الاسلام كما قال تعالى " لايستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى " - الحديد ١٠ -، وأما المكان فكفضل الصلاة في المسجد الحرام على الصلاة في غيره ،وأما الإضافة فكركعة من نبي أو ركعة مع نبي أفضل من ركعة من غيره أو مع غيره ، ويقول الراغب في المفردات :" والفضل إذا استعمل لزيادة أحد الشيئين على الآخر فعلى ثلاثة أضرب : فضل من حيث الجنس كفضل جنس الحيوان على جنس النبات، وفضل من حيث النوع كفضل الإنسان على غيره من الحيوان وعلى هذا النحو قوله :(ولقد كرمنا بني آدم) إلى قوله (تفضيلا) - الإسراء ٧٠ - ،وفضل من حيث الذات كفضل رجل على آخر ،فالأولان جوهريان لاسبيل للناقص فيهما أن يزيل نقصه وأن يستفيد الفضل ،كالفرس والحمار لايمكنهما أن يكتسبا الفضيلة التي خص بها الإنسان ،والفضل الثالث قد يكون عرضيا فيوجد السبيل على اكتسابه ومن هذا النوع التفضيل المذكور في قوله :(والله فضل بعضكم على بعض في الرزق)[1] - النحل ٧١ -

---

(١) المفردات ٣٨١.

وسرد القرافي[أ] في الفروق وجوه التفضيل

حتى بلغ عشرين قاعدة مثل لكل منها ثم قال بعد ذلك :

" وأسباب الفضل كثيرة لا أقدر على إحصائها خشية الإسهاب ".[1]

وحاصل القول في هذه المسألة - والله أعلم - أن وجوه التفاضل وأسبابه كثيرة لاحصر لها ،ذلك لأن وجوه الفضل التي بها يكون التفاضل كثيرة لاحصر لها ،ولذلك يخطيء من يحصر أسباب التفضيل في أمور محدودة لاتخرج عنها كما هو مذهب الفلاسفة ومن تابعهم من المتكلمين حين حصروا أسباب التفاضل في أربعة مواطن : الحكمة ،والشجاعة ،والعفة والعدالة .[2]

ولعلنا إن سلكنا طريق التقسيم والتأسيس أن نأتي على جماع هذه الأسباب وأصولها التي تجمعها فلا يخرج شيء منها عن أن يرجع إلى أحدها ،والتفاضل يقع في أشياء فتتفاضل فيما بينها ،ويقع بأشياء فيتفاضل بها ،

---

(١) الفروق ٢/٢١١ - ٢٣٢ .

(٢) انظر قانون التأويل ٤٨٢ ومقدمة محققه ص ٢٧٤ - ٢٨٣ .

- - - - - - - - - - - - - - -

(أ) هو أحمد ابن ادريس بن عبدالرحمن ، أبو العباس ،شهاب الدين الصنهاجي، والقرافي نسبة الى مقبرة بمصر ،من علماء المالكية ،مصري المولد والنشأة والوفاة ،له تصانيف في الفقه والأصول والنحو وغيرهما ت ٦٨٤هـ - انظر ترجمته في :كشف الظنون ١١٥٣/١١ ،هدية العارفين ٩٩/١ .

فهاتان مسألتان : مايقع فيه التفاضل ،ومايقع به التفاضل .

أما مايقع فيه التفاضل : فإنه يقع فيما فيه حياة وفي مالا حياة فيه ،فالأول كالتفاضل بين البشر و بين الملائكة، والثاني كالتفاضل بين الأمكنة والأزمنة .

ثم هو يقع في الذوات وفي الأعراض[1] ، في الذوات كفضل ذات آدم على غيره فيما فيه حياة - ،وفضل العرش على غيره - فيما لاحياة فيه - ،وأما الأعراض فيقع التفاضل في الصفات كفضل الحلم على الغضب - فيالانسان - وفيما يقع في الأمكنة والأزمنة منالأعمال كالمسجد أفضل من غيره .

وأما مايقع به التفاضل فإنه يقع بمالاسبيل إلى اكتسابه ،وبما يكتسب ، أما الأول فكفضل ذات آدم عليه السلام فإنه فضل بمالايكتسب،فذاته قد خلقها الله بيده ونفخفيها من روحه كمافي حديث احتجاج آدم وموسى المتفق عليه عن أبي هريرة رضي اللهعنه ،وفيه قال رسول الله صلى اللهعليه وسلم :" قال موسى :أنت آدم خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه "[2] وكذا في حديث الشفاعة الطويل المتفق

---

(١)العرض : هو مايحتاج في وجوده الى محل يقوم فيهكاللون المحتاج في وجوده الى جسم يحله ،انظرالتعريفات للجرجاني ص١٤٨.

(٢)صحيح البخاري مع الفتح ١١/٥٠٥، ١٣/٤٧٧ ،وصحيح مسلم ٤/٢٠٤٣

عليه عن أنس رضى الله عنه - وفيه أن الناس يأتون آدم فيقولون " أنت آدم أبو الخلق ،خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه "(1) وكذلك خلقه الله على صورته كما فى الحديث المتفق عليه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " خلق الله عز وجل آدم على صورته "(2) وفى حديث ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: " فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن "(3) وهذه الفضائل ليست مما يكتسب ،وكفضل العرش على غيره فإن الله استوى عليه كما ورد ذلك فى سبع مواضع من القرآن(4) وهو تحمله الملائكة وتحف به كما قال سبحانه :" الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ". - غافر ٧ -.

وأما التفاضل بما يكتسب فهذا خاص بمن يكسب من الأحياء دون ما لا حياة فيه ،أو فيه حياة ولا كسب له كالملائكة ومثال ما يكتسب الغنى فإنه فضل يكتسبه العبد كما قال سبحانه فى الآية المتقدم ذكرها قريبا " والله فضل بعضكم على بعض

---

(1) صحيح البخارى مع الفتح ٣٧١/٦ ،وصحيح مسلم ١٨٠/١.

(2) صحيح البخارى مع الفتح ٤/١١ ،وصحيح مسلم ٢١٨٣/٤ وانظر ص ٢٠١٧.

(3) أخرجه عبد الله بن الامام أحمد فى السنة ٢٦٨/١ ،والدارقطنى فى الصفات ٣٦ ،والبيهقى فى الأسماء والصفات ٣٧١.

(4) فى الأعراف ٥٤ ،ويونس ٣ ،والرعد ٢ ،وطه ٥ ،والفرقان ٥٩ ،والسجدة ٤ ،والحديد ٤.

فـــى الـرزق ".

والجميع عطـاء اللــه وبيـده ولذلـك أسـنـد التفضيـل فى الـرزق إليـه سبحانه مع أن العبد إنما يبلغـه بالسعى والتكسب ،وقـال سبحانه :" قـل إن الفضـل بيـد اللـه يؤتيـه من يشاء "آل عمران – ٧٣ – ،وقـال : " وإن اللـه لذو فضـل على الناس ولكن أكثـر الناس لايشكرون" – غافر ٦١ –.

الباب الأول

فضل الخالق جل وعلا وتفاضل أسمائه وصفاته

الفصل الأول

فضل الخالق جل وعلا

البـــاب الأول :

الفصـــل الأول : فضـــل الخالـــق سبحانـــــه :

فضـــل الخالق سبحانـــه أمـــر لايـدرك ولايحاط بـه ،قـال سبحانــــــه :

" يعلـم مـابينأيديهـم وماخلفهـم ولايحيطـون بـهعلمـــا " ـ طه ١١٠ ـ

وهو سبحانه كماأخبـــر عن نفســه وكماأخبرعنـــه رســـولهـصلـــى

اللـهعليـهوسلـم ـ ،لانحصى ثنـاء عليـه هو كمـا أثنـى على نفســـه ،

الخالق المالـــك (يدبـر أمـر الممالك ويـامـــر وينهى ويخلـــــــق

ويرزق ويميـت ويحيـــى ويقضـــى وينفـــذ ويعـــز ويـــذل ويقلـــب

الليـل والنهـار ويداول الأيـام بين النـــاس ويقلـب الدول ،فيذهـب

ويأتـى بـأخــرى ،والرســل من الملائكـــة عليهــمالصـلاة والسـلام بيـن

صاعـد إليـــه بالأمـــر ونـازل من عنــــده بـه ،وأوامـــره ومراسيمــه

متعاقبـــة على تعاقـب الأوقـــات ،نافـــذة بحسـب إرادتــــــــــــه

ومشيئتـه فماشـاء كان كمـا شـاء فى الوقـت الذى يشـاء من غيــــر

زيـادة ولانقصـان ولاتقـــدم ولاتأخـــر وأمـره وسلطانـــه نـافـــذ فـــى

السموات وأقطارهـــا وفى الأرض وماعليهـا وماتحتهـا وفى البحـــــار

والجو وفى سائـر أجزاء العالـم وذراتـــه يقلبهـــا ويصرفهـا ويحـــدث

فيهـا مايشـاء ،وقـد أحـاط بكل شـىء علمـا وأحصـى كل شــــىء

عددا ووســع كل شــىء رحمـــة وحكمـــة ،ووســع سمعـــه الأصـــوات

فلا تختلـف عليه ولاتشتبـــهعليـــه ،بـل يسمـع ضجيجهــا باختـــلاف

لغاتها على تفنن حاجاتها فلا يشغله سمع عن سمع ،
ولاتغلطه كثرة المسائل ،ولايتبرم بالحاح الملحين ذوى
الحاجات ،وأحاط بصره بجميع المرئيات فيرى دبيب النملة
السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ،فالغيب عنده
شهادة ،والسرعنده علانية ،يعلم السر وأخفى من السر
،فالسر ما انطوى عليه ضمير العبد وخطر بقلبه ولم
تتحرك به شفتاه ،وأخفى منه مالم يخطر بقلبه بعد ،
فيعلم أنه سيخطر بقلبه كذا وكذا فى وقت كذا وكذا
له الخلق والأمر ،وله الملك وله الحمد ،وله الدنيا
والآخرة ،ولة النعمة ،وله الفضل ،وله الثناء الحسن،

،وله الملك كله ،وله الحمد كله ،وبيده الخير
كله ،وإليه يرجع الأمر كله ،شملت قدرته كل شىء ووسعت
رحمته كل شىء ،ووسعت نعمته إلى كل حى (يسأله من
فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن) ـ الرحمن ٢٩ ـ
يغفر ذنبا ويفرج هما ويكشف كربا ويجبر كسيرا ويغنى
فقيرا ويعلم جاهلا ويهدى ضالا ويرشد حيرانا ،ويغيث
لهفانا ،ويفك عانيا ويشبع جائعا ،ويكسو عاريا ،
ويشفى مريضا ،ويعافى مبتلى ،ويقبل تائبا ،ويجزى محسنا

وينصر مظلوما ،ويقصم جبارا ،ويقيل عشرة

،ويستر عورة ،ويؤمن روعة ،ويرفع أقواما ،ويضع

آخرين ،لاينام ولاينبغى له أن ينام ،يخفض القسط ويرفعه

،يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ،وعمل النهارقبل

الليل ،حجابه النور لوكشفه لأحرقت سبحات وجهه

ماانتهى إليه بصره من خلقه ،يمينه ملأى ،لاتغيفها

نفقة سحاء الليل والنهار ،أرأيتم ماأنفق منذخلق

الخلق فإنه لم يغض مافى يمينه ، قلوب العباد ونواصيهم

بيده ،وأزمة الأمور معقودة بقضائه وقدره ،الأرض جميعا

قبضته يوم القيامة ،والسموات مطويات بيمينه ، يقبض

سمواته كلها بيده الكريمة والأرض باليد الأخرى ثم

يهزهن ثم يقول : أنا الملك ،أنا الملك ،أنا الذى بدأت

الدنيا ولم تكن شيئا ،وأنا الذى أعيدها كما بدأتها ،

لايتعاظمه ذنب أن يغفره ولاحاجة يسألها أن يعطيها ،لو أن

أهل سمواته وأهل أرضه وأول خلقه وآخرهم وإنسهم وجنهم

كانوا على أتقى قلب رجل منهم مازاد ذلك فى ملكه شيئا

،ولوأن أول خلقه وآخرهم إنسهم وجنهم كانوا على أفجر

قلب رجل منهم مانقص ذلك من ملكه شيئا ،ولوأن أهل سمواته

وأهل أرضه وإنسهم وجنهم وحيهم وميتهم ورطبهم

ويابسهم قاموا فى صعيد واحد فسألوه فأعطى كلا منهم

ماسأله مانقص ذلك مما عنده مثقال ذرة ،ولو أن أشجار

الأرض كلها - من حين وجدت إلى أن تنقضى الدنيا - أقلام

والبحر وراءه سبعة أبحر تمده من بعده مداد ، فكتب

بتلك الأقلام وذلك المداد لفنيت الأقلام ونفد المداد ولم

تنفد كلمات الخالق تبارك وتعالى ،وكيف تفنى كلماته جل جلاله

وهى لابداية لها ولانهاية ،والمخلوق له بداية ونهاية فهو

أحق بالفناء والنفاذ ؟ وكيف يُفنى المخلوق غيرالمخلوق؟

هو الأول الذى ليس قبله شىء ،والآخر الذى ليس بعده شىء

والظاهر الذى ليس فوقه شىء ،والباطن الذى ليس دونه شىء

تبارك وتعالى ،أحق من ذكر ،وأحق من عبد ،وأحق من حمد

وأولى من شكر وأنصر من ابتغى وأرأف من ملك وأجود من سئل

،وأعفى من قدر ،وأكرم من قصد وأعدل من انتقم ،حكمه

بعد علمه ،وعفوه بعد قدرته ،ومغفرته عن عزته ،ومنعه

عن حكمته وموالاته عن إحسانه ورحمته .

ماللعباد عليه حق واجب ⁖ كلا ولاسعى لديه ضائع

إن عذبوا فبعدله ،أونعموا ⁖ فبفضله وهوالكريم الواسع

هو الملك الذى لاشريك له ،والفرد فلا ند له ،والغني فلا ظهير له ،والصمد فلا ولد له ،ولاصاحبة له ،والعلي فلا شبيه له ،ولاسمي له ،كل شيء هالك إلا وجهه ،وكل ملك زائل إلا ملكه ،وكل ظل قالص إلا ظله ،وكل فضل منقطع إلا فضله ،لن يطاع إلا بإذنه ورحمته ،ولن يعصى إلابعلمه وحكمته يطاع فيشكر ويعص فيتجاوز ويغفر ،كل نقمة منه عدل ،وكل نعمة منه فضل ،أقرب شهيد وأدنى حفيظ ،حال دون النفوس وأخذ بالنواصى وسجل الآثار وكتب الآجال ،فالقلوب له مفضية والسر عنده علانية ،والغيب عنده شهادة ،عطاؤه كلام وعذابه كلام "إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون " يس ٨٢ -)(١) ووراء هذا مالايخطر ببال ولاتناله عبارة ففضله سجانه لابداية له ولانهاية لاتحصى ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه ،أهل الثناء والمجد ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحرما أتت على بيان فضله سبحانه ولن تأتى ،وكيف يكون لها أن تأتى عليه ومامن فضيلة فى الوجود لشىء من المخلوقات إلاوهو سبحانه واهبها .

---

(١) مابين القوسين بنصه من الوابل الصيب لابن القيم ص ١٣٤ - ١٣٨ .

فهذا وجه من أوجه لاحصر لها دالة على فضله سبحانه على خلقه وهو أن كل فضيلة لشيء من المخلوقات الله واهبها وهو المتفضل بها على خلقه فهو مالك الفضل وواهبه ،قال سبحانة " قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء " - آل عمران ٧٣ - وقال سبحانه : " ويؤت كل ذى فضل فضله " - هود ٣ -.

ومن أوجه فضله سبحانه على خلقه أن فضل الله عز وجل كامل تام لانقص فيه ولاعيب فله صفات الكمال أما فضائل خلقه فهى غير منفكة عن أضدادها ،فعلمهم بعد جهل ومشوب بالجهل ،وقدرتهم بعد ضعف ومشوبة بالضعف وملكهم بعد فقر وصائر الى زوال ،وحياتهم بعد عدم والى موت،(١) يقول ابن القيم :" ومن تأمل خلق الأضداد فى هذا العالم ومقاومة بعضها لبعض ودفع بعضها ببعض وتسليط بعضها على بعض ،تبين له كمال قدرة الرب تعالى وحكمته وإتقانه ماصنعه وتفرده بالربوبية والوحدانية والقهر وأن كل ماسواه فله مايضاده ويمانعه كما أنه الغني بذاته وكل ماسواه محتاج بذاته "(٢).

---

(١) انظر عجائب القرآن ص ١١٢ - ١١٣.

(٢) زاد المعاد ٤/١٥.

والله عز وجل لايشاركه فى فضله شئ(ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) - الشورى ١١ - فليس ثمة شئ يفاضل الله فيكون الله أفضل منه ،بل له سبحانه الفضل المطلق وهو كما وصف نفسه ذو الفضل العظيم ،وفضله سبحانه فضل ذات وفضل أسماء وفضل صفات ،فذاته أفضل الذوات وأجلها وأكملها وأعلاها ،وأسماؤه أفضل الأسماء وأجلها وأكملها وأعلاها ولذلك كانت أسماؤه حسنى كما قال سبحانه :"ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها " - الأعراف ١٨٠ - وقال :" الله لاإله إلاهو له الأسماء الحسنى " - طه ٨ - ،ومعنى الحسنى، المفضلة على الحسنة الدالة على أحسن الأسماء وأكملها وأتمها المستوفية لصفات الكمال لايلحقها عيب ولانقص [1] ،قال ابن القيم :" أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات الكمال" قال : " فهى أسماء وهى أوصاف ،وبذلك كانت حسنى ،إذ لو كانت ألفاظا لامعانى فيها لم تكن حسنى ولاكانت دالة على مدح ولاكمال ". [2]

ويقول رحمه الله :" وصفاته (سبحانه وتعالى) كلها صفات كمال محض فهو موصوف من الصفات بأكملها وله من الكمال أكمله .

---

(١) الفتاوى ١٤١/٦ وانظر أحكام القرآن لابن العربي ٨٠١/٢ - ٨٠٢

(٢) مدارج السالكين ٢٨/١.

وهكذا أسماؤه الدالة على صفاته هى أحسن الأسماء وأكملها فليس فى الأسماء أحسن منها ولايقوم غيرها مقامها ولايؤدى معناها ،وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيرا بمرادف محض بل هو على سبيل التقريب والتفهيم ،إذا عرفت هذا فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنى وأبعده وأنزهه عن شائبة عيب أونقص . فله من صفة الادراكات العليم الخبير دون العاقل الفقيه والسميع البصير دون السامع والباصر والناظر ،ومن صفات الإحسان البرالرحيم الودود دون الرفيق والشفوق ونحوهما ،وكذلك العلى العظيم دون الرفيع الشريف ،وكذلك الكريم دون السخى ،والخالق البارىء المصور دون الفاعل الصانع المشكل ،والغفور العفو دون الصفوح الساتر ،وكذلك سائر أسمائه تعالى يجرى على نفسه منها أكملها وأحسنها ومالا يقوم غيره مقامه ،فتأمل ذلك فأسماؤه أحسن الأسماء كما أن صفاته أكمل الصفات فلا تعدل عما سمى به نفسه إلى غيره كما لاتتجاوز ماوصف به نفسه ووصف به رسوله الى ماوصفه به المبطلون والمعطلون ".(1)

وصفاته سبحانه أعلى الصفات وأتمها وأجلها وأكملها (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) ،" لاتدركه الأبصار وهو

---

(1) بدائع الفوائد ١٦٨/١.

يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير " ـ الأنعام ١٠٣ ـ"يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايحيطون به علما " ـ طه ١١٠ ـ،"قل هو الله أحد ، الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد " ،وفضله سبحانه على خلقه لايدرك ولايحاط به ،ولايعلمه حق علمه إلا هو سبحانه ليس أعلم بالله من الله "أأنتم أعلم أم الله " ـ البقرة ١٤٠ ـ٠

ولما كانت صفاته سبحانه أفضل الصفات لايشابهه فيها شيء ولايشابه بها شيئا،كانت مجهولة الكيف لايعلم كيفياتها وحقائقها إلا هو سبحانه، لايعلمها نبي مرسل ولاملك مقرب ،كيف تعلم كيفيات صفاته وهو سبحانه غيب لايرى في الدنيا ،ثم حتى إذا رآه المؤمنون في الآخرة لايدركونه ولاتحيط أبصارهم بكيفيات صفاته " لاتدركه الأبصار" فله الصفات العلى على الصفة اللائقة بجلا له وعظمته وألوهيته التي لايدركها خلقه ،ومما لم يقع فيه جدل ولم يختلف فيه شخصان ولم يجانبه مذهب ولاملة أن الخالق له أتم الصفات وأكملها وأعلاها ،قال ابن تيمية رحمه الله في كلامه :" بل ولازعم أحد من الناس أن العالم له صانعان متكافئان في الصفات

والأفعال ،بل ولاأثبت أحد من بنى آدم إلها مساويا لله في جميع الصفات ،بل عامة المشركين بالله مقرون بأنه ليس شريكه مثله ،بل عامتهم يقرون أن الشريك مملوك له سواء كان ملكا أونبيا أوكوكبا أوصنما " إلى أن قال :" وقدذكر أرباب المقالات ماجمعوا من مقالات الأولين والآخرين في الملل والنحل والآراء والديانات ،فلم ينقلوا عن أحد إثبات شريك مشارك له في خلق جميع المخلوقات ،ولامماثل له في جميع الصفات بل من أعظم مانقلوا في ذلك قول الثنوية الذين يقولون بالأصلين "النور" و "الظلمة" ،وأن النور خلق الخير والظلمة خلقت الشر ،ثم ذكروا لهم في الظلمة قولين :أحدهما: أنها محدثة فتكون من جملة المخلوقات له .

والثانى :أنها قديمة لكنها لم تفعل إلا الشر ،فكانت ناقصة في ذاتها وصفاتها ومفعولاتها عن النور "(1) ولما كان ذلك متقررا في معلوم الخلق مركوزا في فطرهم احتجت به الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - على إممهم في تسفيه جنوحهم إلى أن يساووا مع الله في العبادة من لايساويه في الصفات وعلى الزامهم بأنه مادام ليس لله ند في صفاته فيجب

---

(1) الرسالة التدمرية ١١٥ - ١١٦.

ألا يتخذوا له ندا فى العبادة) ومن ذلك ماحكاه

الله فى كتابه من قول إبراهيم لأبيه :" إذ قال لأبيه

يا أبت لم تعبد مالايسمع ولايبصر ولايغنى عنك شيئا "ـ مريم

٤٢ ـ فبيّن أن العادم لصفات الكمال ناقص لايمكن أن يكون

معبودا وبيّن أن العلم بذلك فطري (١) . والله سبحانه لايساويه

شىء حاشاه ، ولايشابهه شىء ولايشبه هو شيئا تعالى وتبارك

، فلو أن شيئا أشبه سبحانه لكان مثله إلها ولتعددت

الآلهة وقد قال عز وجل :" لو كان فيهما آلهة إلا الله

لفسدتا " ـ الأنبياء ٢٢ ـ ، ولو أنه سبحانه أشبه شيئا لكان

مثله محدثا مخلوقا ولاحتاج إلى خالق ـ سبحانه وتعالى ـ

وللزم التسلسل ، ولقد بين سبحانه أحديته ونفى المثل عنه

بأبلغ مايكون البيان وأوفاه وأتمه وذلك فى سورة الإخلاص

التى هى نسب الرحمن وقد ورد فى سبب نزولها أن المشركين قالوا

للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ انسب لنا ربك ، فأنزل الله " قل

هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن

---

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل ١٠/١٥٥ .

له كفوا أحد "[1] ،ومامن شيئين متشابهين في الوجود إلا وكان سبب تشابههما راجع الى أحد ثلاثة أمور لايخرج السبب في تشابههما أن يكون واحدا منها لاغير :،

الأول : أن يكون أحدهما أصلا للآخر ولذا أشبه الأب ابنه .

الثاني : أن يكون أحدهما فرعا عن الآخر ولذا أشبه الابن أباه .

الثالث : أن يكونا متناظرين ولذا تشابه سائر الخلق .

ومن لم يجمعه مع غيره سبب من هذه الأسباب كان أحداً لايشبهه شيء ولايشبه شيئا وذلك هو الله عز وجل فقوله سبحانه " لم يلد " نفي للسبب الأول فليس هو سبحانه أصلا لشيء حتى يشبهه ،وقوله " ولم يولد " نفي للسبب الثاني فليس هو سبحانه فرعا عن شيء حتى يشبهه ،وقوله " ولم يكن له كفوا أحد " نفي للسبب الثالث فليس هو سبحانه نظيرا لشيء حتى يشبهه . ولذا كان الأحد سبحانه "قل هو الله أحد ".[2]

---

(١) الحديث في المسند ٥/١٣٤ ،وسنن الترمذي ـ مع التحفة ـ ٩/٢٩٩ ، ومستدرك الحاكم ٢/٥٤٠ وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ،وأقره الذهبي ،والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٥٠ وانظر تفسير ابن كثير ٤/٣٦٦ ،ومجمع الزوائد ٧/١٤٦ ،والدر المنثور ٦/٤٠٩ـ ٤١٠.

(٢) انظر الفتاوى ٢/٤٣٩.

ومن لاكفو له لايفاضله شيء فضلا عن أن يفضله، ولذا

كان كل ماورد في بيان فضل الله بأفعل التفضيل دالا على

الفضل المطلق لاالمفاضلة، ولذا لما قال أبوسفيان يوم أحد: " اعل

هبل " قال - صلى الله عليه وسلم - قولوا : الله أعلى وأجل " (1)

ولم يكن هبل قط عاليا أوجليلا ونقول (الله أكبر) ولم يكابر

الله أحد حتى يكون الله أكبر منه ،ومن ذلك قوله سبحانه :

"أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة " السجدة

15 - وقوله :" قل أي شيء أكبر شهادة قل الله - الأنعام

19 - ومن ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم - " الله أشد فرحا

بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض

فلاة " (2) وقوله - صلى الله عليه وسلم - " الله أرحم

بعباده من هذه بولدها " (3) في المرأة التي سأل أصحابه عنها

" أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟ ")

---

(1) الحديث في صحيح البخاري مع الفتح ١٦٣/٦ وقد تقدم.

(2) الحديث في صحيح البخاري - مع الفتح - ١٠٢/١١ ،وصحيح مسلم ٢١٠٥/٤.

(3) الحديث في صحيح البخاري - مع الفتح - ٤٢٦/١٠ ،وصحيح مسلم ٢١٠٩/٤

قالوا : لا، والله. ،وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:" ما أحد

أصبر على أذى سمعه من الله ،يدعون له الولد ثم يعافيهم

ويرزقهم "(1) وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :" لا أحد أغير

من الله ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ،ولا شيء

أحب إليه المدح من الله ولذلك مدح نفسه "(2) وقوله ـ صلى

الله عليه وسلم ـ :" ليس أحد أحب إليه العذر من الله "(3)

ونحو ذلك كثير ،ويوضح ذلك غاية الايضاح قوله سبحانه :"

فتبارك الله أحسن الخالقين " ـ المؤمنون ١٤ ـ مع قوله :" هل

من خالق غير الله " ـ فاطر ٣ ـ ،كل هذا في بيان فضله سبحانه

لا من باب المفاضلة ،إذ لم يفاضل الله أحد حتى يفضله

سبحانه ،وإنما يتوصل لبيان فضله سبحانه بما يكون أوعى

للسامع وأمكن ،وأسهل وأبين ،ولذا لما كانت حاجة الخلق

إلى معرفة ربهم وعظيم فضله أعظم الحاجات وضرورة الخلق

---

(1) الحديث في صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ ١٠/٥١١ ،و ١٣/٣٦٠ ،وصحيح مسلم ٤/٢١٦٠

(2) الحديث في صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ ٨/٢٩٦ ،وصحيح مسلم ٤/٢١١٤.

(3) الحديث في صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ ١٣/٣٩٩ ،وصحيح مسلم ٤/٢١١٤.

الى ذلك فوق كل ضرورة كانت العناية ببيانها أيسر الطرق وأهداها وأبينها ولذلك كان اشتمال القرآن بل والكتب الإلهية كلها على ذكر أسماء الله وصفاتها وبيان فضله سبحانه أكثر من اشتمالها على ما عداه، لشرف متعلقها وعظمته وشدة الحاجة إليها، فكانت الطرق إلى تحصيل معرفة ذلك أكثر وأسهل وأبين، وهذا من كمال حكمة الرب سبحانه وتمام نعمته وإحسانه أنه كلما كانت حاجة العباد إلى الشيء أقوى وأتم كان بذله لهم أكثر وطرق وصولهم إليه أكثر وأسهل، وأنت ترى أنه لما كانت حاجة الخلق في الحياة الى الهواء أكثر من حاجتهم إلى الماء والقوت كان بذله لهم أكثر وأيسر من الماء والقوت.(1)

ومن أجل ذلك عبر سبحانه وتعالى عن أسمائه وصفاته بالأسماء المعلومة معانيها في الشاهد لأن الإخبار عن الغائب لا يفهم إن لم يعبر عنه بالأسماء المعلومة معانيها في الشاهد، ويعلم بها ما في الغائب بواسطة العلم بما في الشاهد مع العلم بالفارق المميز، وأن ما أخبر الله به من الغيب أعظم مما يعلم في الشاهد".(2)

---

(1) انظر الصواعق المرسلة ٣٦٥/١ - ٣٦٦، أو مختصر الصواعق المرسلة ٦١/١.

(2) الرسالة التدمرية ص ٦١.

ولما كان اتفاق الشيئين فى اسم عام لايقتضى تماثلهما فى مسمى ذلك الاسم عند إضافته وتخصيصه وتقييده ولافى غيره -فلا يعنى مثلا اتفاق لبن الجنة ولبن الدنيا فى اسم اللبن تماثلهما فى المسمى عند إضافة هذا الإسم إليهما وتخصيصه بكل واحد منهما ، إذ مامن شيئين إلا وبينهما قدر مشترك وقدر رمميز ولايلزم من اتفاقهما فى القدر المشترك تماثلهما فى القدر المميز إذ اتفاقهما إنما هو فى القدر المشترك فقط والقدر المشترك إنما يكون عند الاطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص، فإذا وقعت الإضافة والتخصيص ظهر التميز - لما كان ذلك كذلك سمى الله نفسه بأسماء وسمى صفاته بأسماء توافق أسماء بعض المخلوقين فى الإطلاق فسمى نفسه حيا فقال :(الله لاإله إلا هو الحي القيوم) - البقرة ٢٥٥ - وسمى بعض عباده حيا ،فقال (يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي) - الروم ١٩ - وليس الحي كالحي ،وسمى نفسه سبحانه عليما فقال :(إن الله واسع عليم) - البقرة ١١٥ - وسمى بعض عباده عليما فقال :(وبشروه بغلام عليم) - الذاريات ٢٧ - ، وليس العليم كالعليم ،وسمى نفسه حليما فقال :(والله عليم حليم) - النساء ١٢ - . وسمى بعض عباده حليما فقال :(إن إبراهيم لأواه حليم) - التوبة ١١٤ - . وليس الحليم كالحليم ،وسمى نفسه حفيظا فقال :(والذين اتخذوا من دونه أولياء ،الله حفيظ عليهم) -

الشورى ٦ -٠ وسمى بعض عباده حفيظا فقال :(هذا ماتوعدون لكل أواب حفيظ) - ق - ٣٢ - ٠ ،وحكى قول يوسف عليه السلام: (إني حفيظ عليم) - يوسف ٥٥ وليس الحفيظ كالحفيظ ،وسمى نفسه سميعا بصيرا فقال :(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) - الشورى ١١ - وسمى الإنسان سميعا بصيرا فقال : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا) - الانسان ٢ - وليس السميع كالسميع ولا البصير كالبصير)وسمى نفسه بالرؤوف الرحيم فقال :(إن الله بالناس لرؤوف رحيم - البقرة ١٤٣ وسمى بعض عباده رؤوفا رحيما فقال :(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) - التوبة ١٢٨ - وليس الرؤوف كالرؤوف ولاالرحيم كالرحيم ،وسمى نفسه بالملك فقال :(الملك القدوس) - الحشر ٢٣ - وسمى بعض عباده بالملك فقال :(وقال الملك ائتوني به) - يوسف ٥٠ ،٥٤ - ، وليس الملك كالملك ،وسمى نفسه العزيز فقال :(العزيز الجبار المتكبر) - الحشر ٢٣ - وسمى بعض عباده بالعزيز فقال :(وقالت امرأة العزيز) - يوسف ٥١ - وليس العزيز كالعزيز وليس الجبار كالجبار ولاالمتكبر كالمتكبر ،وسمى نفسه بالعظيم فقال : " ولايؤوده حفظهما وهو العلي العظيم " - البقرة ٢٥٥ -وسمى بعض مخلوقاته بالعظيم فقال " وهو رب العرش العظيم " - التوبة ١٢٩ - ٠ وسمى نفسه شكورا

فقال :" إن الله غفور شكور " - الشورى ٢٣ - وسمى بعض خلقه شكورا فقال فى نوح :" إنه كان عبدا شكورا "- الاسراء ٢ - وليس الشكور كالشكور ونحو ذلك كثير ،وكذا فى الصفات سمى الله صفاته بأسماء وسمى صفات عباده بنظير تلك الأسماء ،فوصف نفسه بالمشيئة ووصف عبده بالمشيئة فقال: " لمن شاء منكم أن يستقيم وماتشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين " - التكوير ٢٨ ، ٢٩ - وليست المشيئة كالمشيئة ووصف نفسه بالإراده ووصف عبده بها فقال :" تريدون عرض الدنيا والله يريد الأخرة والله عزيز حكيم " - الأنفال ٦٧ - وليست الإرادة كالإرادة ،ووصف نفسه بالمحبة ووصف عبده بالمحبة فقال : " فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه "- المائدة ٥٤ - وليست المحبة كالمحبة ،ووصف نفسه بالرضا ووصف عبده بالرضا فقال :" رضى الله عنهم ورضوا عنه " - المائدة ١١٩ - وليس الرضا كالرضا ونحو ذلك كثير.(١)

فإذا وقع بين أسماء الله وأسماء العباد وأسماء صفات الله وأسماء صفات العباد تشابه فإن ذلك لايقتضى أن يكون لأجله الخالق مثل المخلوق ،بل إنه لما كان الله أفضل من خلقه كان كل كمال اتصف به المخلوق وأمكن أن يتصف به

---

(١) انظر لمزيد من الأمثلة - الرسالة التدمرية ص ١٤ - ٢٠ .

الخالـــق فالخالـــق أولى بالاتصاف به فالخـــالق أولى أن يكـــــون

سميعـا بصيرا من المخلـوق وهكذا .

مبحث في بعض ماوقع من الضلال في هذا الباب :

لقد ذهب أقوام من المنتسبين إلى الاسلام في هذا الباب - باب فضل الله على خلقه - إلى مذاهب صريحة أو لازمها نفي فضل الله على خلقه ،فمنهم من قصد ذلك ورمى إليه وصرح به وهم غلاة الصوفية الاتحادية أهل وحدة الوجود ،ومنهم من وقع فيه بنية تفضيل الله على خلقه - كما يزعم - فانعكس عليه الأمر حتى جعل الخلق أفضل من الخالق كالجهمية والمعتزلة ومن نحى نحوهم ،ممن قدم في الحجة العقل على النقل والقوانين الفلسفية والقواعد المنطقية على الآيات والأحاديث .

ضلال الاتحادية أهل وحدة الوجود :

وبيان هذا أن نقول : فضل الله على خلقه فضل ذات وفضل أسماء وفضل صفات ،وقد ضل أهل وحدة الوجود في فضل ذاته سبحانه فنفوا أن يكون لله فضل على خلقه ،لأنهم نفوا الفرق بين الله وخلقه، فالخالق عندهم لايتميز عن المخلوق لأنه ليس ثمة خالق ولامخلوق ولافاعل ولامفعول، إذ الكون كله وحدة واحدة، فلايوجد إلا الله، والمخلوقات هي عين الخالق ليست شيئا غيره، فالعبد رب والرب عبد، إذ ليس في الوجود رب وعبد ولامالك ومملوك ولاراحم ومرحوم ولاهاد ومهدى ولامنعم ومنعم

عليه ،بل الرب هو عين العبد ،والمالك هو عين المملوك والراحم هو عين المرحوم ،والتغاير فى الصور هو من تجليات الذات ،فالصور مظاهر للذات إذ تظهر تارة فى صورة معبود كما ظهرت فى صورة فرعون وهبل ونحوه من المعبودات ،وتظهر تارة فى صور العبيد ،وتظهر تارة فى صورة هاد كالأنبياء والرسل والعلماء ،وتظهر فى صورة المهدى كأتباع الرسل وهكذا.

يقول ابن عربى (أ) مبينا عقيدته فى الله - تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا - :- " فهو السارى فى مسمى المخلوقات والمبتدعات

(أ) هو من أرؤس الاتحادية أهل وحدة الوجود ،محي الدين ابن عربى ،محمد بن على بن محمد الحاتمى يعرف فى الصوفية بـ" الشيخ الأكبر " ولد بمرسية فى الأندلس سنة ٥٦٠هـ وارتحل الى المشرق سنة ٥٩٨ هـ ،ومات بدمشق سنة ٦٣٨ هـ ،قال الذهبى : من أردأ تواليفه كتاب الفصوص فإن كان لاكفر فيه فما فى الدنيا كفر " وقال فيه العز بن عبدالسلام "شيخ سوء كذاب يقول بقدم العالم ولايحرم فرجا " ،يقول المقرى :" كان بالمغرب يعرف بابن العربى بألف ولام واصطلح أهل المشرق على ذكره بغير ألف ولام فرقا بينه وبين القاضى أبى بكر بن العربي " ومما صنف فى بيان كفره كتاب البقاعى المطبوع بتحقيق الوكيل سنة ١٤٠٠هـ باسم "مصرع التصوف أوتنبيه الغبى الى تكفير ابن عربى ".

السير ٤٨/٢٣ - ٤٩ ،والميزان ٦٥٩/٣ - ٦٦٠ ،ولسان الميزان ٣١١/٥ وشذرات الذهب ١٩٠/٥ ونفخ الطيب ١٦١/٢ ،ومفتاح السعادة ٢١٤/١٠ وهدية العارفين ١١٤/٢.

ولو لم يكن الأمر كذلك لما صح الوجود فهو عين الوجود ، فهو كل شيء حفيظ بذاته فلا يؤوده حفظ شيء ،فحفظه تعالى للأشياء كلها حفظه لصورته أن يكون الشيء غير صورته ،ولا يصح إلا هذا فهو الشاهد من الشاهد والمشهود من المشهود فالعالم صورته "(1)

ويقول :" واعلم أن الحق لم يزل فى الدنيا متجليا للقلوب دائما ،فتتنوع الخواطر فى الإنسان عن التجلي الإلهي من حيث لايشعر بذلك إلا أهل الله ،كما أنهم يعلمون ان اختلاف الصور الظاهرة فى الدنيا والآخرة فى جميع الموجودات كلها ليس غير تنوعه هو ،فهو الظاهر إذ هو عين كل شيء"(2).

يقول :" فعين الخلق عين الحق فيه . . فلاتنكر فإن الكون عينه "(3)

ويقول :" ألا كل قول فى الوجود كلامه . . سواء علينا نثره ونظامه "(4)

ويقول :" فالحق عين العبد ليس سواه . . والحق غير العبد لست تراه

فانظر إليه به على مجموعه . . لاتفردنه فتستبيح حماه "(4)

ويقول :" فلاتفر ولاتركن إلى طلب . . فكل شيء تراه ذلك الله "(5)

ويقول :" لاتراقب فليس فى الكون إلا . . واحد العين وهو عين الوجود

---

(1) فصوص الحكم – مع شرح القاشانى – ص ١٦٠ .

(2) الفتوحات المكية ٤٧٠/٣ .

(3) المرجع السابق ٤٧١/٣ .

(4) المرجع السابق ١٤١/٤ .

(5) المرجع السابق ١٥٦/٢ .

فتسمى فى حالة بمليك[1]. وتكنى فى حالة بالعبيد فيقول :"فماثم إلا الله لاشىء غيره[2]". وماثم إلا وحدة الوحدات".

ولما كان الحق سبحانه وتعالى ـ عند هؤلاء ـ تعالى سبحانه عما يقول الظالمون علوا كبيرا ـ هو عين الوجود، كان كل شىء فى الوجود عندهم هو الله، رفيعا كان أم وضيعا عظيما أم حقيرا ممدوحا أم مذموما ،يقول ابن عربى :" ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات وأخبر بذلك عن نفسه ،وبصفات النقص وبصفات الذم؟ ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الحق من أولها الى آخرها وكلها حق له كما هى صفات المحدثات حق للحق[3] " . ويقول فى الله ـ تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ـ :" وهكذا تجده فى فى صور المعادن والنبات والحيوان والأفلاك فسبحان من أظهر الأشياء وهو عينها[4] " ويقول :" حتى الانحناء فى السلام عند الملاقاة ،ربما انحنى العارفون لإخوانهم عندما يلقونهم فى

---

(١) المرجع السابق ٢/٢١١.

(٢) المرجع السابق ٢/٢٨٣.

(٣) الفصوص ـ بشرح القاشانى ص ٨٨.

(٤) الفتوحات المكية ٢/٤٥٩.

سلامهم فيسر بذلك الشخص الذى ينحنى من أجله ،وسروزه

إنما هو من جهله بنفسه حيث تخيل أن ذلك الانحناء والركوع

له ممن لقيه إنما لما يستحقه من الرفعة ،فيفعله عامة

الأعاجم مقابلة جهل بجهل وعادة وعرفا وهم لايشعرون،

ويفعله العارفون مشاهدة جبروت إلهى يجب الانحناء له

إذ لايرون إلا الله قال لبيد : الأكل شىء ماخلا الله

باطل ،والباطل هو العدم بلاشك والوجود كله حق فما ركع

الراكع إلا لحق "(1).والله عندهم هو السراب الذى يحسبه الظمآن

ماء والنار التى أتاها موسى - عليه السلام - يقول ابن عربى:

" فاعلم أيدك الله أن من التحقيق أن تعطى المغالطة فى موضعها

حقها ،فإن لها فى كتاب الله موضعا ،وهو قوله فى أعمال

الكفار : كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ،والحق هو الذى

أعطاه فى عين هذا الرائى صورة الماء وهو ليس بالماء الذى

يطلبه هذا الظمآن ،فتجلى له فى عين حاجته " إلى أن

قال :" فهذا كنار موسى فتجلى له فى عين حاجته ، فلم

تكن نارا ،كما قلنا:

كنار موسى يراها عين حاجته .. وهو الإله ولكن ليس يدريه "(2)

ويقول فى بيان أن الله هو المسمى بكل اسم :" فهو عين ماظهر،

وهو عين مابطن فى حالة ظهوره ،وماثم من يراه غيره ،وماثم من

---

(1) الفتوحات ٢/٢٣٣.

(2) الفتوحات المكية ٢/٢٦٩.

يبطن عنه ،فهو ظاهر لنفسه باطن عنه وهو المسمى ،أبوسعيد الخراز وغير ذلك من أسماء المحدثات (1) " وكل من قال أنا الله عندهم فقد صدق وعرف ،يقول ابن عربي :" فصاحب العقل ينشد :

وفى كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وصاحب التجلى ينشد قولنا :

وفى كل شيء له آية تدل على أنه عينه

فبينهما مابين كلمتيهما ،فما فى الوجود إلا الله ولايعرف الله إلا الله ومن هذه الحقيقة قال من قال : أنا الله كأبي يزيد ، وسبحاني كغيره من رجال الله المتقدمين" (2)

وفرعون لما أدعى الربوبية عندهم لم يجانب الحق بل كان أشد معرفة للحق من موسى ،يقول ابن عربي :"وأماحكمة سؤال فرعون عن الماهية الإلهية بقوله – ومارب العالمين – فلم يكن عن جهل ،وإنما كان عن اختبار حتى يرى جوابه مع دعواه الرسالة عن ربه ،وقدعلم فرعون مرتبة المرسلين فى العلم بالله ،فيستدل بجوابه على صدق دعواه "إلى أن قال :
" فالسؤال صحيح على مذهب أهل الحق والعلم الصحيح والعقل السليم ،فالجواب عنه لايكون إلا بما أجاب به موسى" ثم ذهب

---

(1) الفصوص – بشرح القاشانى – ٧٨.
(2) الفتوحات المكية ١/٢٧٢.

يفسر مقصود موسى فى جوابه حتى قال :" فكأنه قال له فى جواب قوله :- ومارب العالمين - ،قال : الذى يظهر فى صورالعالمين من علو وهوالسماء وسفل وهوالأرض - إن كنتم موقنين - أويظهر هوبها ".

قال :" فلما قال فرعون لأصحابه - إنه لمجنون - كماقلنا فى معنى كونه مجنونا ،زاد موسى فى البيان ليعلم فرعون رتبته فى العلم الإلهى لعلمه بأن فرعون يعلم ذلك "إلى آخر ماقال (1)، وقال فى موضع آخر :" فكان المتكلم من موسى وهارون الحق ،وكان السمع الذى تلقى من فرعون كلام موسى الحق ،فحصل القبول فى نفسه " قال :" ولماعلم فرعون ان الحق سمع خلقه وبصره ولسانه وجميع قواه ،لذلك قال بلسان الحق :أنا ربكم الأعلى (2) ".

فأنت ترى كيف جعل الله هو موسى وهارون وهو فرعون وهو أبوسعيد الخراز وهو المنعوت بكل نعت مذموم أومحمود، وهم يمثلون لوحدة الوجود التى يعتقدونها بالخمر الرائقة فى الزجاج الرائق يقول ابن عربى فى كلام له :" فضربنا الواحد فى الواحد وهو ضرب الشىء فى نفسه فصار واحدا ،فلبس الواحدالآخر ،فكان الواحد رداء وهوالذى ظهر وهوالخليقة المبدع- بفتح الدال ،وكان الآخرمرتديا ،وهوالذى خفى ،وهو القديم المبدع فلايعرف

---

(1) الفصوص- مع شرح القاشانى - ٣١٦ - ٣١٧.
(2) الفتوحات المكية ٥٣٣/٣.

المرتدى إلا باطن الرداء، وهو الجمع ،ويصير الرداء على شكل المرتدى ،فإن قلت : واحد ،صدقت ، عينا وكشفا ،ولله درمن قال :

رق الزجاج وراقت الخمر .. فتشا كلا فتشابه الأمر
فكأنما خمرولاقدح .. وكأنما قدح ولاخمر.(1)

ويمثلون لها أيضا بالصورة فى مرايا متكثرة متعددة فالصورة تتكثر بحسب تكثر المرايا ،إذ الصورة الواحدة تظهر فى المرايا الصغيرة صغيرة وفى الكبيرة كبيرة وفى المستطيلة مستطيلة وهكذا تتكثر مظاهرها بحسب اختلاف المرايا من تحديب وتقعير وطول وقصر واستواء ونحوه ولايقدح ذلك فى كون الصورة واحدة فى ذاتها لم تتكثر حقيقة.(2)

ويمثلون لها أيضا بالشجرة أصلها نواة تنتج عنها الشجرة(3) ومما يمثلون به ماقاله ابن عربى :إذ يقول :" فالعالم يعلم من عبد وفى أى صورة ظهر حتى عبد ،وإن التفريق والكثرة كالأعضاء فى الصورة المحسوسة وكالقوى المعنوية

---

(1) الفتوحات ٦٤/١وانظر ٢٩٠/٣
(2) انظرهذا فى فصوص الحكم ـ مع شرح لقاشانى ص ٦٨،٥٠،٤٠ وفى الدرة الفاخرة ـ مع تأسيس التقديس ص ٢٠٦.
(3) انظر الفتوحات المكية ٢٨٦/٣ وغيرهما.

في الصورة الروحانية فما عبد غير الله في كل معبود)[1]

ولما كان الوجود كله وحدة واحدة عندهم كانت كل عبادة عندهم حق فكل أديان البرية حق لأنه لم يعبد على كل حال إلا الله ولهذا يقول ابن عربي :

"عقد الخلائق في الإله عقائدا .. وأنا شهدت جميع ما اعتقدوه

لما بدا صورا لهم متحولا .. قالوا بما شهدوا وما جحدوه

ذاك الذي أجنى عليهم خلفهم .. بجميع ما قالوه واعتقدوه"

إلى أن قال :" فالعارف الكامل يعرفه في كل صورة يتجلى بها ،وفي كل صورة ينزل فيها ،وغير العارف لا يعرفه إلا في صورة معتقده وينكره اذا تجلى له في غيرها"[2]

فكل الخلق عندهم موحدين إلا طائفة واحدة وهم القائلون بالحلول يقول ابن عربي :" والقائلون بالحلول غير موحدين لأنه أثبت أمرين حال ومحل"[3] فأنت ترى أهل وحدة الوجود نفوا الفرق بين الخالق والمخلوق وجعلو الخلق عين الخالق ليس شيئا مباينا له بل ولا حالا فيه لأن الحلول إثبات ذاتين أحدهما حل في الآخر وهم لا يثبتون لله ذاتا مباينة لخلقه ، وعليه فلا تفاضل بين الخالق والمخلوق وليس لله فضل على خلقه عندهم .

---

(١) الفصوص مع شرح القاشان ص٦٧ .

(٢) الفتوحات المكية ١٣٢/٣ .

(٣) المرجع السابق ٨٣/٢ .

وهو مذهب فاسد باطل يكفي مجرد عرضه لبيان بطلانه ولذلك نقلت تلك العبارات من مقالاتهم ، وكما قال ابن تيمية رحمه الله فيهم :" اعلم - هداك الله وأرشدك - أن تصور مذهب هؤلاء كاف فى بيان فساده لايحتاج مع حسن التصور إلى دليل آخر ،وإنما تقع الشبهة لأن أكثر الناس لايفهمون حقيقة قولهم وقصدهم ، لما فيه من الألفاظ المجملة والمشتركة ،بل وهم أيضا لايفهمون حقيقة مايقصدونه ويقولونه ، ولهذا يتناقضون كثيرا فى قولهم "(1).

وكما قال رحمه الله :" ليس معهم من الحق شىء، ولاشبهة حق"(2)

ويقول صاحب الدرة الفاخرة: إن مستندهم فيما ذهبوا إليه هو الكشف والعيان لا النظر والبرهان(3) ، وقد بيّن ابن تيمية رحمه الله مذهبهم وكشف باطلهم ، وبيّن كفرهم ، وأنهم أشد كفرا من الجهمية ، ومن عباد الأصنام ، ومن اليهود والنصارى ، وأن مذهبهم يجمع كل شرك فى العالم ، وتجد ذلك مبسوطا فى الجزء الثانى من الفتاوى ، وكذا فى التسعينية المطبوعة باسم " بغية المرتاد فى الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية وأهل الالحاد من القائلين بالحلول والاتحاد" وكذا فى " الصفدية " . ولعل أصل مقالتهم يرجع إلى قول فرقة من الصابئة وهم الخربانية فإنهم يقولون المعبود واحد بالذات

---

(1) الفتاوى ٢/١٣٨.

(2) الفتاوى ٢/٤١٤.

(3) الدرة الفاخرة - مع تأسيس التقديس - ص ٢٠٢ .

وكثير بالأشخاص فى رأى العين،أما الواحد ففى الذات

والأول والأصل والأزل ، وأما الكثير فلأنه يتكثر بالأشخاص فى

رأى العين وهى المدبرات السبع والأشخاص الأرضية العالمة

الفاضلة فإنه يظهر بها ويتشخص بأشخاصها ولاتبطل وحدته

فى ذاته.(1) وقد جعلت هذه الفرقة ظهور الله فى الأشياء

الشريفة الرفيعة،وحددوا ظهوره فى أشرف المخلوقات ، فهم على

شناعة قولهم وبعده فى الكفر،إلا أنه أهون من قول أهل

وحدة الوجود الجاعلين ظهوره فى كل شىء خسيسا كان

أم شريفا – سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون – ،قال ابن تيمية :

" واعلم أن هذه المقالات لاأعرفها لأحد من أمة قبل هؤلاء على

هذا الوجه ،ولكن رأيت فى بعض كتب الفلسفة المنقولة عن أرسطو

أنه حكى عن بعض الفلاسفة قوله : إن الوجود واحد ورد ذلك ، وحسبك

بمذهب لايرضاه متكلمة الصابئين ،وإنما حدثت هذه المقالات

بحدوث دولة التتار".(2)

---

(1) انظر الملل والنحل – فى هامش الفصل – ١٥٢/٢ – ١٥٣ ،
والخطط المقريزية ٣٤٤/٢ ،
وخبيثة الأكوان ص ١٢ ،
ودائرة معارف القرن العشرين ٤٣٠/٥.

(2) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٧٣ .

وقد ذكر الرازي (أ) أن أول من أظهر مقالة الحلول والاتحاد في الإسلام الروافض إذ ادعوا الحلول في حق أئمتهم.(1)

وذكر ابن خلدون (ب) أن سلف القائلين بوحدة الوجود كانوا مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين بالحلول وإلهية الأئمة قال: "فأشرب كل واحد من الفرقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم" وذهب في ذكر أوجه من

(1) الفتاوى ١٧١/٢.

(أ) هو محمد بن عمر بن الحسين القرشي النسب، كان أحد فقهاء الشافعية المشاهير وأحد أئمة المتعلمين، وكان مع غزارة علمه في فن الكلام يقول: من لزم مذهب العجائز كان هو الفائز، كانت بينه وبين الكرامية عداوة شديدة، وقد ذكر السبكي بسنده وصيته عند موته وفيها تسفيه الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، ت ٦٠٦/ ترجمته في، طبقات الشافعية ٣٣/٥، البداية والنهاية ٥٥/١٣ ولسان الميزان ٤٢٦/٤.

(ب) هو عبدالرحمن بن محمد بن محمد، أبو زيد ولي الدين الحضرمي الاشبيلي من ولد وائل بن حجر، ولد ونشأ بتونس، ولي قضاء المالكية بمصر في عهد سلطانها برقوق، وله مؤلفات في المنطق والحساب والتصوف وكتابه في التاريخ مشهور، ت ٨٠٨ هـ.

ترجمته في: شذرات الذهب ٧٦/٧، وهدية العارفين ٥٢٩/١، ونفح الطيب ١٧١/٦.

التشابه بين الفريقين[1]. وكذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله نبه إلى التشابه بين الاتحادية والقرامطة فى مواضع من كتبه[2].

والحاصل أن أهل وحدة الوجود نفوا صراحة أن يكون لله فضل على خلقه، كيف وهم لايفرقون بين الخالق والمخلوق، وإن كان فيهم من يقول: إن هذا الوجود بعضه أفضل من بعض والأفضل يستحق أن يكون ربا للمفضول على أن ذلك إنما هو فى الظهور لافى الواقع وحقيقة الأمر، إذ فى الحقيقة لاتفاضل.

نقل ملا الجامى[أ] فى كتابه الدرة الفاخرة عن صدر الدين القونوى[ب] فى رسالته الهادية قوله : " إذا اختلفت حقيقة فى كونها

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٧٣.

(٢) انظر مثلا بغية المرتاد ص ٤٩٠.

(أ) هو عبدالرحمن بن أحمد بن محمد الجامى، نور الدين، ولد بجام من بلاد خراسان سنة ٧١٨ هـ، وصحب مشايخ الصوفيه، وله شرح لفصوص الحكم لابن عربى، وكتابة الدرة الفاخرة هو فى تحقيق مذهب الصوفية والمتكلمين فى وجود الله وصفاته، توفى سنة ٨٩٨ هـ، انظر ترجمته فى شذرات الذهب ٣٦٠/٧ - ٣٦١ وهدية العارفين ٥٣٤/١ والأعلام ٢٩٦/٣، ومعجم المؤلفين ١٢٢/٥.

(ب) هو محمد بن اسحاق بن محمد، يعرف بالصدر الرومى، من كبار تلاميذ ابن عربى وقد تزوج ابن عربى أمه ورباه، وبينه وبين نصيرالدين الطوسى مكاتبات وله تصانيف فى التصوف توفى سنة ٦٧٣ هـ. انظر طبقات الشافعية الكبرى ١٩/٥ وهدية العارفين ١٣٠/٢، والاعلام ٣٠/٦، ومعجم المؤلفين ٤٣/٩. وانظر المجلد الثانى من الفتاوى فقد بين ابن تيمية جملة من مقالاته وفندها.

فى اى شىء أقوى أوأقدم أوأشد أوأولى فكل ذلك عند

المحقق راجع إلى الظهور دون تعدد واقع فى الحقيقة الظاهرة،

أي حقيقة كانت من علم ووجود وغيرهما ، فقابل يستعد

لظهور الحقيقة فيه من حيث هى أتم منها من حيث ظهورها

فى قابل آخر، مع أن الحقيقة واحدة فى الكل ،والمفاضلة

والتفاوت واقع بين ظهوراتها بحسب الأمر المظهر المقتضى

تعيين تلك الحقيقة تعينا مخالفا لتعينه فى أمر آخر ،فلا تعدد

فى الحقيقة من حيث هى ولاتجزئة ولاتبعيض" (١) وبذلك المذهب

صح عندهم قول فرعون :" أناربكم الأعلى " وبه فسروه ،يقول

ابن عربى فى تفسير قول فرعون هذا : " أى وإن كان الكل أربابا

فأنا الأعلى منهم بما أعطيته فى الظاهر من التحكم فيكم"

يقول :" ولماعلمت السحرة صدقه فيماقال لم ينكروه وأقروا

له بذلك فقالوا : فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة

الدنيا ،فالدولة لك ،فصح قوله : أناربكم الأعلى وإن كان

---

(١) الدرة الفاخرة ـ مع تأسيس التقديس ـ

ص ٢٠١ ـ ٢٠٣ .

عين الحق فالصورة لفرعون "[1] ويقول شارح الفصوص في شرحه[2] كلام ابن عربي هذا :" وتختلف المظاهر في تجلي صفة الربوبية وتتفاضل ، فمن كان أكثر تصرفا وتحكما بالنسبة إلى غيره كانت ربوبيته أعلى ،ولما كان فرعون صاحب السلطنة في وقته متحكما في قومه بحسب إرادته ادعى أنه ربهم الأعلى "[3]

هذا هو التفاضل والمفاضلة عند أهل الوحدة لاشيء غير ذلك البتة .

---

(١) الفصوص بشرح القاشاني ص ٣٢١ .

(٢) أعني القاشاني وهو عبد الرزاق بن أحمد توفي سنة ٧٣٠ هـ
ولـه شرح أيضا على تائية ابن الفارض وكتب في التصوف .
انظر هدية العارفين ٥٦٧/١
وكشف الظنون ٢٦٦
والأعلام ٣٥٠/٣

(٣) شرح فصوص الحكم ص ٣٢١ .

* ضلال الجهمية :

والجهمية لم تبعد كثيرا عن الاتحادية في القول في الله وإن كانت الجهمية أقرب إلى الإسلام من الاتحادية مع كفرهم فقد كفرهم السلف وتكلم فيهم الائمة (1)، وكلام الجهمية يؤدي إلى وحدة الوجود بل أهل الوحدة نسخة الجهمية كما قال ابن تيمية (2).

ذلك أن الجهمية يقولون إن الله في الأمكنة كلها لا يخلو منه مكان وهو في كل مكان بذاته (3)، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

إلا أن مقالتهم هذه أخف شناعة من مقالة الاتحادية، فقد أثبتوا ذاتا مفضلة خالقة ووصفوها بالحلول العام، أما الاتحادية فقالوا الخالق هو عين الأمكنة، والاتحادية جعلت كل وصف في الوجود صفة لله - تعالى الله عما يقول الظالمون علوا عظيما -

---

(1) انظر السنة للامام أحمد 1/103 ومابعدها، وخلق أفعال العباد، 30 .. وشرح أصول اعتقاد أهل السنة 1/313 ومابعدها، وبغية المرتاد ص 350 ومابعدها.

(2) بغية المرتاد 411 وانظر 349 .

(3) انظر سير أعلام النبلاء 6/27، والبداية والنهاية 10/19.

أما الجهمية فقد نفوا عن الله الصفات جميعها ، إذ أنكروا الصفات الالهية كلها بدعوى تنزيه البارى وقالوا بأنه لايجوز أن يوصف البارى بالصفات لأن الخلق يوصفون بها (1) ، فهم ضلوا فى باب فضل الله على خلقه من جهتين: من جهة الذات فجعلوا ذوات المخلوقات أفضل من ذات الله - تعالى سبحانه عما يقول الظالمون علوا كبيرا - إذ قالوا هو فى كل مكان حتى فى الحشوش وأماكن القذارة ونحوه مما يتنزه عنه الانسان - حاشا الله وتعالى عما يقولون - ، ومن جهة الصفات فقد عطلوا الله من صفاته ، فشبهوه تعالى وتقدس بالمعدوم أو بالناقص أو بالجماد ، فإن من ليس بحى ولا سميع ولا بصير ولا متكلم لايكون إلا معدوما أو يكون موجودا ناقصا ميتا أصم أعمى أبكم أو جمادا ، ولقد قال الجهم به صفوان رأس الجهمية (2) :

(1) انظر المرجعين السابقين والخطط المقريزية ٣٤٩/٢ . وانظر الحاشية رقم (٢) فى الصفحة ٦٢٦ من مقالات الاسلاميين.

(2) توفى سنة ١٢٨ هـ مقتولا ، وقد قال بخلق القرآن أخذه عن الجعد بن درهم ، وكان جبريا نفى استطاعة العبد فكفرته المعتزلة بذلك ، وقد كفره أهل السنة والجماعة لقوله فى الصفات . انظر ترجمته فى / سير أعلام النبلاء ٢٦/٦ ، وميزان الاعتدال ٤٢٦/١ ، ولسان الميزان ١٤٢/٢ ، وانظر الملل والنحل بهامش الفصل ١٠٩/١ .

«لايقال إن الله شيء لأن ذلك تشبيه له بالأشياء لأن الشيء عنده هو المخلوق الذي له مثل»،قال :«ولا هو أيضا لاشيء لأنه تعالى خالق كل شيء فلاشيء إلا مخلوق»(1). فلايقال لله عنده شيء ولايقال لاشيء (2) وكذا قول الجهمية في سائر الصفات ينفون عنه الصفة وعدمها فيقولون مثلا : لاحي ولالاحي ، لاسميع ولا لاسميع ، فأنت ترى كيف أرادوا تفضيل الله على خلقه من حيث فضلوا خلقه عليه ،ولقد فند قولهم وشبههم ابن تيمية رحمه الله في مواضع من كتبه . وذكر أن الخلو عن النقيضين ممتنع في بدائه العقول كالجمع بينهما ،وكان مماقاله رحمه الله في ذلك : " وإن كان المخاطب من الغلاة نفاة الأسماء والصفات ،وقال لا أقول هو موجود ،ولاحي ولاعليم ولاقدير، بل هذه الأسماء لمخلوقاته ، إذ هي مجاز، لأن إثبات ذلك يستلزم التشبيه بالموجود الحي العليم ،قيل له : وكذلك إذا قلت : ليس بموجود ولاحي ولاعليم ولاقدير، كان ذلك تشبيها بالمعدومات وذلك أقبح من

---

(1) مقالات الإسلاميين 181 وقال الأشعري " وقال المسلمون كلهم إن الباري شيء لا كالأشياء ".

(2) الفصل 4/205 .

التشبيه بالموجودات ، فإن قال :أنا أنفى النفى والاثبات

،قيل له : فيلزمك التشبيه بما اجتمع فيه النقيضان من

الممتنعات ،فإنه يمتنع أن يكون الشيء موجودا معدوما

أولاموجودا ولامعدوما،ويمتنع أن يوصف ذلك باجتماع الوجود

والعدم أوالحياة والموت ونفي العلم والجهل،فإن قلت : إنما

يمتنع نفي النقيضين عما يكون قابلا لهما ، وهذان يتقابلان

تقابل العدم والملكة لاتقابل السلب والإيجاب،(1) فإن الجدار

لايقال له أعمى ولابصير ولاحى ولاميت إذ ليس بقابل لهما ،

قيل لك :

أولا .. هذا لايصح فى الوجود والعدم،فإنهما متقابلان تقابل السلب والإيجاب باتفاق العقلاء،فيلزم من رفع أحدهما ثبوت الآخر ،وأما ماذكرته من الحياة والموت والعلم والجهل،فهذا اصطلاح اصطلحت عليه المتفلسفة المشاءون ، والاصطلاحات اللفظية ليست دليلا على نفي الحقائق العقلية ، وقد قال الله تعالى :" والذين يدعون

---

(1) يظهر لى من سياق الكلام أنه يعنى بـ " العدم" : انعدام الصفة عمن يقبل الاتصاف بها ،وبـ " الملكة " : وجود الصفة فيمن يقبل الاتصاف بها وبـ " السلب ": نفي قبول الصفة ،وبـ "الإيجاب": ثبوت قبول الصفة ،والله أعلم.

من دون الله لايخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير أحياء ومايشعرون أيان يبعثون "- النحل ٢١- فسمى الجماد ميتا وهذا مشهور فى لغة العرب وغيرهم .

وقيل لك **ثانيا**: فما لايقبل الاتصاف بالحياة والموت والعمى والبصر ونحوذلك من المتقابلات،أنقص مما يقبل ذلك ،فالأعمى الذى يقبل الاتصاف بالبصر،أكمل من الجماد الذى لايقبل واحدا منهما ،فأنت فررت من تشبيهه بالحيوانات القابلة لصفات الكمال ووصفته بصفات الجمادات التى لاتقبل ذلك " إلى قال رحمه الله : " وقيل له أيضا : اتفاق المسميين فى بعض الأسماء والصفات ليس هو التشبيه والتمثيل الذى نفته الأدله السمعيات والعقليات، وإنما نفت مايستلزم اشتراكهما فيما يختص به الخالق،مما يختص بوجوبه أوجوازه أوامتناعه،فلايجوز أن يشركه فيه مخلوق ولايشركه مخلوق فى شىء من خصائصه سبحانه وتعالى "(١)

---

(١) الرسالة التدمرية ٢٤ - ٢٥ ،٢٦ - ٢٧ .

* ضلال المعتزلة :

ونظير مافعلت الجهمية فعلت المعتزلة ، ذهبت لتفضل الله على خلقه وتنفي مشابهته لخلقه - بزعمها - فجعلت الخلق أفضل منه - تعالى الله - ووصفته سبحانه بصفات النقص والعدم - تعالى وتقدس - ،فإن المعتزلة عطلت الله من صفاته ،وجعلت أسماءه سبحانه أعلاما محضة مجردة عن الصفات،فهي عندهم غير دالة على الصفات،بل هي محض أعلام كأسماء المخلوقات - تعالى الله عمايقولون علوا كبيرا - ولذلك فأسماء الله في اعتقادهم مترادفات لا لكونها أسماء لمسمى واحد كما هو الحق،بل لأنها لامعاني لها مختلفة ، معناها كلها واحد،وهو كونها علم على الإله ، وهذا هو إثبات المعتزلة للأسماء اذا قيل أنها تثبت الأسماء،

ولذلك فهم يقولون : إن الله حي لابحياة قادر لابقدرة عالم لابعلم ،ويزعمون أن نفي الصفات هو التنزيه،وبه يتحقق التوحيد ، لأننا إن أثبتنا لله هذه الصفات - بزعمهم - فقد شبهناه بخلقه لأن هذه الصفات لاتعقل إلا لمخلوق، قالوا: فالله غير قابل لهذه الصفات ولايجوز أن

يوصف بها . ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علوا[1]

كبيرا ـ .

وقد تعقب الإمام ابن تيمية رحمه الله شبههم وفندها في مواضع من كتبه كثيرة، وكان من جملة ما قاله رحمه الله في ذلك :"وإن كان المخاطب ممن ينكر الصفات ويقر بالأسماء كالمعتزلي الذي يقول : إنه حي عليم قدير وينكر أن يتصف بالحياة والعلم والقدرة، قيل له : لافرق بين إثبات الأسماء وإثبات الصفات ، فإنك إن قلت : إثبات الحياة والعلم والقدرة يقتضي تشبيها أوتجسيما ، لأنا لانجد في الشاهد متصفا بالصفات إلا ماهو جسم ، قيل لك : ولانجد في الشاهد ماهو مسمى حي عليم قدير إلا ماهو جسم ، فإن نفيت مانفيت لكونك لم تجده في الشاهد إلا للجسم، فانف الأسماء بل وكل شيء لأنك لاتجده في الشاهد إلا للجسم فكل مايحتج به من نفى الصفات، يحتج به نافي الأسماء الحسنى، فما كان جوابا لذلك كان جوابا لمثبتي الصفات "[2]

---

(1) انظر تفصيل اعتقادهم هذا في شرح الأصول الخمسة ١٨٢ ـ ٢٣٢.

(٢) الرسالة التدمرية ٢٤.

وقال رحمه الله في موضع آخر :" ومن قال : إنه ليس بحي ولا سميع ولا بصير ولا متكلم ، لزمه أن يكون ميتا أصم أعمى أبكم ، فإن قال : العمى عدم البصر عما من شأنه أن يقبل البصر ومالم يقبل البصر كالحائط لا يقال له أعمى ولا بصير ، قيل له : هذا اصطلاح اصطلحتموه ، وإلا فما يوصف بعدم الحياة والسمع والبصر والكلام يمكن وصفه بالموت والعمى والخرس والعجمة ، وأيضا فكل موجود يقبل الاتصاف بهذه الأمور ونقائضها ، فإن الله قادر على جعل الجماد حيا ، كما جعل عصى موسى حية ابتلعت الحبال والعصي ، وأيضا فالذي لا يقبل الاتصاف بهذه الصفات أعظم نقصا ممن يقبل الاتصاف بها مع اتصافه بنقائضها ، فالجماد الذي لا يوصف بالبصر والعمى ولا الكلام ولا الخرس ، أعظم نقصا من الحي الأعمى الأخرس ، فإذا قيل : إن الباري لا يمكن اتصافه بذلك ، كان في ذلك من وصفه بالنقص أعظم مما إذا وصف بالخرس والعمى والصم ونحو ذلك ، مع أنه إذا جعل غير قابل

لهما كان تشبيها له بالجماد الذى لايقبل الاتصاف

بواحد منها ،وهذا تشبيه بالجمادات لابالحيوانات ،فكيف

من قال ذلك على غيره ممايزعم أنه تشبيه له بالحي،

وأيضا فنفس نفي هذه الصفات نقص كما أن إثباتها كمال،

فالحياة من حيث هي هي، مع قطع النظر عن تعيين الموصوف

بها،صفة كمال ، وكذلك العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام

والفعل ونحو ذلك ،وماكان صفة كمال فهوسبحانه أحق

أن يتصف به من المخلوقات ، فلو لم يتصف به مع اتصاف المخلوق

به لكان المخلوق أكمل منه ".(١)

قلت : هذه هي القاعدة : كل كمال اتصف به المخلوق

وأمكن أن يتصف به الخالق فالخالق أولى به . والله أعلم.

وكما قال ابن تيمية رحمه الله :" ان الكمال ثابت

لله ،بل الثابت له هو أقصى مايمكن من الأكملية ،

لايكون وجود كمال لانقص فيه إلا وهو ثابت للرب

تعالى،يستحقه بنفسه المقدسه ،وثبوت ذلك مستلزم نفي

نقيضه ،فثبوت الحياه يستلزم نفي الموت ،وثبوت العلم

---

(١) الرسالة التدمرية ٤٢ - ٤٣ ،وانظر الرسالة الأكملية ص ٣٤ - ٣٦.

يستلزم نفي الجهل ،وثبوت القدرة يستلزم نفي العجز،

وان هذا الكمال ثابت له بمقتضى الأدلة العقلية والبراهين

اليقينية مع دلالة السمع على ذلك ".(1) وليعلم أن من الكمالات

ماهو كمال للمخلوق نقص بالنسبة للخالق وهو فى الجملة :

" كل ماكان مستلزما لإمكان العدم عليه المنافى لوجوبه

وقيوميته ـ سبحانه ـ ،أومستلزما للحدوث المنافى لقدمه ،

أومستلزما لفقره المنافى لغناه "(2) ومثال ذلك: اتخاذ

الصاحبة والولد كمال فى المخلوق نقص بالنسبة للخالق ،

والأكل والشرب كمال فى المخلوق نقص بالنسبه للخالق ،

والغنى بالمال ونحوه كمال فى المخلوق نقص بالنسبة

للخالق لأنه الغني بنفسه لابغيره.

---

(1) الرسالة الأكملية ص ٧ أومجموعة الرسائل والمسائل المجلد الثانى ص (١٩٥).

(2) الرسالة الأكملية ص ٣٣ أومجموعة الرسائل والمسائل المجلد الثانى ص (٢١٤).

الفصل الثاني

تفاضل أسماء الله وصفاته

الباب الأول

الفصل الثاني - تفاضل أسماء الله وصفاته

المبحث الأول : تفاضل أسماء الله ودلالة ذلك .

تمهيد ..

قال الله عز وجل : " ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها " الأعراف ١٨٠ - ، وقال سبحانه : " قل ادعوا الله أوادعوا الرحمن أيآما تدعوا فله الأسماء الحسنى" - الاسراء ١١٠ - ،وقال تعالى : " الله لاإله إلا هو له الأسماء الحسنى " - طه ٨ - ،وقال :" هو الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى ". - الحشر ٢٤ -.

فأسماء الله عز وجل كلها حسنى ،متناهية في الكمال ليس فيها اسم غير ذلك أصلا ،وذلك لوجوه من الفضل والحسن لاتحصر مانجهله منها أكثر وأعظم مما نعلمه ، فمن ذلك :-

- أن الاسم يشرف بشرف المسمى ،فأسماء الله بهذا أشرف الأسماء .

- وأن أفعال الرب تبارك وتعالى صادرة عن أسمائه وصفاته ،وأسماء المخلوقين صادرة عنأفعالهم ،فالرب

تبارك وتعالى فعاله عن كماله ،والمخلوق كماله

عن فعاله ،فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل ،فالرب

لم يزل كاملا ،فحصلت أفعاله عن كماله ، لأنه كامل بذاته

وصفاته ،فأفعاله صادرة عن كماله ،كمل ففعل ،والمخلوق

فعل فكمل الكمال اللائق به"(٦).

● " أن أسماءه الحسنى هى أعلام وأوصاف ، والوصف

بها لاينافى العلمية ، بخلاف أوصاف العباد فإنها

تنافى علميتهم ،لأن أوصافهم مشتركة فنافتها العلمية

المختصة، بخلاف أوصافه تعالى"(٢).

● " أن أسماءه الحسنى دالة على صفاته سبحانه ،وصفاته

صفات كمال وعلو ،- كماتقدم بيانه فى الفصل الأول.

● ومن أظهر وجوه فضل الأسماء الحسنى أنه يُتعبد بها.

وأسماؤه سبحانه غير محصورة ،وهى كثيرة لايعلم

كثرتها إلا صاحبها سبحانه وتعالى .

---

(١) بدائع الفوائد ١/١٦٢.

(٢) بدائع الفوائد ١/١٦٢.

ففى الحديث - من الدعاء - :" وأسألك بكل اسم هو لك ،سميت به نفسك ،أوعلمته أحدا من خلقك، أو أنزلته فى كتابك ، أواستأثرت به فى علم الغيب عندك "[1] وفى الموطأ عن كعب الأحبار فى دعائه :-

" ... وبأسماء الله الحسنى كلها ماعلمت منها ومالم أعلم"[2]

وعند ابن ماجة نحوه من دعاء عائشة بحضرة النبى

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند ٣٩١/١ ، ٤٥٢ قال الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٨٦/١٠ - ١٨٧ :- رواه أحمد وأبويعلى والطبرانى والبزار ،قال : " ورجال أحمد وأبى يعلى رجال الصحيح غير أبى سلمة الجهنى وقد وثقة ابن حبان " مجمع الزوائد ١٨٦/١٠ ، ١٨٧ ،وقال محقق - زاد المعاد - فى سند أحمد " وسنده صحيح " زاد المعاد ١٩٨/٤،وأخرجه ابن حبان فى صحيحه انظر موارد الظمآن ص ٥٨٩ ،والاحسان ١٦٠/٢ ،وأخرجه الحاكم ٥٠٩/١.

(٢) الموطأ ٩٥٢/٢.

- صلى الله عليه وسلم، إلا أنه ضعيف[1]، وفي حديث الشفاعة: " ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي"[2]، ومن دعائه في السجود - صلى الله عليه وسلم - قوله: " لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك "[3].

والمحامد والثناء هي في أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى. فهذه نصوص دالة على أن أسماءه سبحانه غير محصورة فلا يلتفت إلى من زعم حصرها كما زعمه ابن حزم[4].

وحكى النووي عن ابن العربي أنه ذكر عن بعضهم أن لله ألف اسم[5]، وذكر ابن حجر نقل الرازي عن بعضهم أن لله أربعة آلاف اسم استأثر بعلم ألف منها، وأعلم الملائكة

---

(١) سنن ابن ماجه ١٢٦٩/٢ قال ابن حجر: (سنده ضعيف) الفتح ٢٢٤/١١ وانظر مصباح الزجاجة ٢٧٢/٢ .

(٢) متفق عليه، البخاري مع الفتح ٣٩٥/٨، ومسلم ١٨٥/١.

(٣) أخرجه مسلم ٣٥٢/١ .

(٤) انظر المحلى ٣٠/١.

(٥) شرح مسلم ٥/١٧.

بالبقية ،والأنبياء بألفين منها ،وسائر الناس بألف .[1]

كل هذا هراء لايلتفت إليه ،وإنما يجاب عن استدلال ابن حزم ومن وافقه على الحصر ،وسيأتى بيان دليله والجواب عنه قريبا إن شاء الله .

---

(1) فتح البارى 11/220 .

المطلب الأول ..

أدلة تفاضل أسماء الله :

والحاصل أن أسماء الله كثيرة لاتحصر ولاتحد بعدد، وهى متفاضلة غير متساوية فى الفضل بعضها أفضل من بعض ، وإن كانت أسماء لمسمى واحد ،والأدلة على تفاضل أسماء الله متعددة ، فإن النصوص تدل على أن بعض أسمائه سبحانه أفضل من بعض ، ففى الآثار ذكر اسمه الأعظم سبحانه وقد وردت روايات متعددة فى ذكر الاسم الأعظم ،ففى روايات يقول - صلى الله عليه وسلم - : " لقد سأل الله باسمه الأعظم "(١) ، وفى أخرى :" دعى الله باسمه الأعظم "(٢) ، وفى أخرى : " لقد دعا الله باسمه العظيم "(٣) ،،وفى أخرى : " اسم الله الأعظم

---

(١) انظر مسند أحمد ٣٤٩/٥ ، ٣٥٠ ، ٣٦٠ ،وسنن ابن ماجه ١٢٦٨/٢، وسنن الترمذى - مع التحفة ٤٤٥/٩٠.

(٢) انظر سنن الترمذى - مع التحفة - ٥٢٩/٩ ،والمستدرك ٥٠٤/١.

(٣) انظر سنن أبى داود ٨٠/٢ وسنن النسائى ٥٢/٣.

فى كذا " ، وفى رواية : " باسمه الأعظم الأكبر"[1]،وفى[2] رواية : " أسألك باسمك الأعلى الأعز الأجل الأكرم "[3] على اختلاف فى تعيين الاسم الأعظم ماهو ؟ وهى مسألة للناس فيها خلاف معروف فى كتب العلم.[4]

ففى هذه الروايات دلالة ظاهرة على تفاضل الأسماء الحسنى ، لدلالتها على أن فى الأسماء الحسنى اسم أعظم يفضلها فهو أعظمها.

ومن الأدلة على تفاضل أسمائه سبحانه قوله - صلى الله عليه وسلم - :" إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها داخل الجنة "[5] فخص النبى - صلى الله عليه وسلم -

---

(١) انظر المسند ٤٦١/٦ ،وسنن الدرامى ٤٥٠/٢ ،وسنن ابن ماجه ١٢٦٧/٢ ،وسنن أبى داود ٨٠/٢ وسنن الترمذى - مع التحفة - ٤٤٧/٩.

(٢) أخرجها الحاكم فى المستدرك ٥٠٤/١.

(٣) أخرجها الطبرانى ،انظر مجمع الزوائد ١٥٦/١٠.

(٤) انظر مشكل الآثار للطحاوى ٦١/١ - ٦٤ وفتح البارى ٢٢٤/١١ فقد ذكر أربعة عشر قولا فى تعيين الاسم الأعظم.

(٥) متفق عليه ،أنظر صحيح البخارى مع الفتح ٣٥٤/٥ ، وصحيح مسلم ٢٠٦٣/٤.

فى هذا الحديث الأسماء التسعة والتسعين بهذه الفضيلة ،

فهى تفضل غيرها من الأسماء بأن من أحصاها دخل

الجنة ،فهى اختصت بهذه الفضيلة ، إذ هذه هى دلالة

الحديث التى نقل النووى الاتفاق عليها فى قوله :

"واتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر

لأسمائه سبحانه وتعالى ، فليس معناه أنه ليس له

أسماء غير هذه التسعة والتسعين ، وإنما مقصود الحديث

أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة ،فالمراد

الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها ، لا الإخبار بحصر

الأسماء "(1) وهذا كقول من يملك ألف مملوك - مثلا.

إن لى مائة مملوك أعددتهم للجهاد ،فليس قوله هذا

مانعا من أن له غيرهم معدون لغير الجهاد ، فلا دلالة

فى الحديث لمن احتج به على حصر الأسماء الحسنى

فى هذا العدد كما فعل ابن حزم.(2)

---

(1) شرح مسلم ٥/١٧ ، وانظر المقصد الأسنى ١٣١ ، والفتاوى ٣٨١/٦ ،وبدائع الفوائد ١٦٦/١.

(2) انظر المحلى ٣٠/١.

ومن الأدلة على تفاوت أسماء الله في الفضل : الحديث المتقدم الذى فيه أن أسماءه سبحانه أقسام منها ما استأثر الله بعلمه ،ومنها ما أنزله فى كتابه ،ومنها ماعلمه أحدا من خلقه ،ففى هذا دلالة على تفاوتها وعلى اختصاص كل منها بخصيصة .

ثم إن كل دليل من كتاب وسنة دل على تفاضل صفات الله التى تدل عليها أسماؤه ، هو دليل على تفاضل تلك الأسماء،التفاضل دلالاتها،لأن الاسم يراد لمعناه لا لحروفه،وسيأتى بيان أدلة تفاضل الصفات فى المبحث الثانى إن شاء الله - ،والناظر فى أسماء الله يجد أنها تتفاوت من وجوه عدة يظهر بها تفاضلها ، فمن ذلك :

● " أن أسماءه تعالى منها مايطلق عليه مفردا ومقترنا بغيره ، وهو غالب الأسماء ،كالقدير والسميع والبصير والعزيز والحكيم ، وهذا يسوغ أن يدعا به مفردا ومقترنا بغيره ، فتقول : ياعزيز ، ياحليم ، ياغفور

يارحيم ،وأن يفرد كل اسم ، وكذلك فى الثناء عليه

الخبر عنه بما يسوغ لك الإفراد والجمع ،ومنها مالايطلق

عليه بمفرده بل مقرونا بمقابله ،كالمانع والضار

والمنتقم ، فلايجوز أن يفرد هذا عن مقابله ،فإنه

مقرون بالمعطى والنافع والعفو ، فهو المعطى المانع ،الضار

النافع ، المنتقم العفو ،المعز المذل ، لأن الكمال فى

اقتران كل اسم من هذه بما يقابله ، لأنه يراد

به أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف

فيهم عطاء ومنعا ونفعا وضرا وعفوا وانتقاما ،

وأما أن يثنى عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار

فلا يسوغ ، فهذه الأسماء المزدوجة تجرى الأسماء منها

مجرى الاسم الواحد الذى يمتنع فصل بعض حروفه

عن بعض ، فهي وإن تعددت ،جارية مجرى الاسم الواحد،

ولذلك لم تجىء مفردة ، ولم تطلق عليه إلا مقترنة ،

فاعلمه ،فلو قلت يامذل ياضار يامانع وأخبرت

بذلك لم تكن مثنيا عليه ولاحامدا له حتى

تذكر مقابلها "فهذا[1] وجه من وجوه تفاوتها يظهر به تفاضلها فليس الاسم الدال على الكمال بمفرده مساويا للذى لايدل على الكمال إلا باقترانه بمقابله.

ومن ذلك :

● أن من أسمائه سبحانه مايدل على صفة واحدة كالسميع والبصير ، ومنها مايدل على صفات عديدة لاتختص بصفة معينة كالمجيد والعظيم ، فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال ،وهو موضوع لبلوغ النهاية فى كل محمود ،ولنيل الشرف بكرم الفعال، وللكثرة ، ولذا قالوا: استمجد المرخ والعفار أى استكثرا من النار حتى تناهيا فى ذلك حتى إنه يقبس منهما[2]،

وكذا العظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال ، وكذلك الصمد ،قال ابن عباس رضى الله عنهما: " الصمد ، السيد الذى كمل فى سؤدده ، والشريف الذى كمل فى

---

(١) بدائع الفوائد ١٦٧/١ وانظر تفسير الرازى ٦٧/١٥.

(٢) انظر تهذيب اللغة ٦٨٢/١٠ ،والصحاح ٥٣٦/٢ ومعجم مقاييس اللغة ٢٩٧/٥.

شرفه ،والعظيم الذى قد كمل فى عظمته ، والحليم الذى قد كمل فى حلمه ،والغني الذى قد كمل فى غناه ، والجبار الذى قد كمل فى جبروته ، والعالم الذى قد كمل فى علمه ، والحكيم الذى قد كمل فى حكمه ، وهو الذى قد كمل فى أنواع الشرف والسؤدد " (١) ، فهذا وجه من وجوه تفاوت أسماء الله ، وهو دال على تفاضلها فليس الاسم المتضمن لصفات عديدة كالدال على صفة واحدة .

ومن ذلك :

● أن من الأسماء مايتضمن سلب صفة نقص عن الله ، وهى الصفة المقابلة للصفة التى يثبتها الاسم ، كالبصير مثلا فيها سلب صفة نقص عن الله وهى العمى سبحانه وتعالى وتنزه وتقدس ، ومنها مايرجع إلى التنزيه المحض من كل نقص وعيب جملة وتفصيلا فيكون متضمنا للكمال المحض كالقدوس والسلام ،وهو وجه قريب من سابقه .

---

(١) آخرجه البيهقى فىالأسماء والصفات ص ٧٨ ،وغيره ، انظر الدر المنثور ٦/٤١٥ .

ومن ذلك :

- أن من أسمائه سبحانه مايدل على صفة بعينها، ومنها مايدل على تلك الصفة وزيادة ، كالعليم يدل على صفة العلم مطلقا ،والخبير يدل على علمه بالأمور الباطنة ،وكذلك الغني هو الذى استغنى بنفسه عن كل شيء فلايحتاج إلى شيء ، والملك أيضا لايحتاج إلى شيء ولكنه يحتاج إليه كل شيء ،فيكون الملك مفيدا معنى الغني وزيادة .(1)

ويدل على تفاوت الأسماء الحسنى فى الفضل،وجود أسماء منها دالة على صفة واحدة ،واشتقاقها واحد ،مع الاختلاف في مبانيها ،مثل : القدير المقتدر القادر ، والغفور الغفار الغافر ،والرحمن الرحيم ،ونحو ذلك ،فإن كلا منها معدود اسما مستقلا وهى متغايرة متفاضلة ، دل على تفاضلها صيغ مبانيها ، فإن فعّال وفعيل وفعلان صيغ مبالغة أبلغ من " فاعل " ،ثم " فعلان " أبلغ من فعيل ، ولذا ذكر ابن جرير أنه لاتمانع بين أهل العلم بلغات

---

(1) انظر المقصد الأسنى ص ٢٢.

العرب أن الرحمن أبلغ من الرحيم [1]، وهو مذهب أكثر العلماء [2].

قال الزمخشري [أ]: " في الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم ولذلك قالوا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا، ويقولون: إن الزيادة في البناء لزيادة المعنى " [3]

---

(1) تفسير الطبري ٤٢/١

(2) انظر البرهان في علوم القرآن ٥٠٤/٢ ، ومعترك الأقران ٤١٢/١.

(3) الكشاف ٦/١ ، والزمخشري من المعتزلة القائلين بأن اسماء الله أعلام لامعاني لها وفي هذا النقل إلزام من كلامه على بطلان مذهبهم.

- - - - - - - - - - -

(أ) الزمخشري هو: محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري، جار الله، أبو القاسم، لقب بجار الله لملازمته في مكة زمنا، معتزلي المذهب مجاهر بمذهبه، ومعدود في أئمة اللغة توفي سنة ٥٣٨ هـ.

انظر وفيات الأعيان ١٦٨/٥ ،

ولسان الميزان ٤/٦.

وشذرات الذهب ١١٨/٤.

وقال الغزالي [أ] : " الغافر يدل على أصل المغفرة فقط ،

والغفور يدل على كثرة المغفرة بالإضافة إلى كثرة

الذنوب حتى أن من لايغفر إلا نوعا واحدا من الذنوب

فلا يقال له : الغفور ، والغفار يشير إلى كثرة غفران

الذنوب على سبيل التكرار ، أى يغفر الذنوب مرة بعد

أخرى ، حتى أن من يغفر الذنوب جميعا ولكن أول مرة

ولايغفر للعائد إلى الذنب مرة بعد أخرى لم يستحق اسم

الغفار" [1] .

فهذه بعض أدلة ووجوه تفاضل أسماء الله فيما

بينها ، فبعضها أفضل من بعض وهى كلها فاضلة فى

غاية التمام والكمال ليس فيها نقص ، ولذا فإن

---

(١) المقصد الأسنى ٢٢ .

(أ) هو : محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى ، أبو حامد ،

صوفي فيلسوف ، وهو معروف بلقب " حجة الاسلام " ،

وله نحو مئتى مصنف فى التصوف والفلسفة والاعتقاد

وأشهر كتبه "احياء علوم الدين " خلط فيه خلطا

بين الصالح والفاسد ، وكان بخس البضاعة فى الحديث .

انظر طبقات الشافعية ١٠١/٤ وشذرات الذهب ١٠/٤

ووفيات الأعيان ٢١٦/٤ .

قولنا بأنها متفاضلة غير قادح فى كونها فاضلة كلها متوافرة فى الكمال ، لأن التفاضل بينها دلالة النصوص كما رأيت ، ولأن التفاضل بين الأشياء الفاضلة الكاملة لايستلزم نقص المفضول كما سيأتى بيانه فى المبحث الثالث إن شاء الله عند نقض قول من نفى تفاضل الأسماء.

المطلب الثاني : دلالة تفاضل أسماء الله تعالى :-

تفاضل أسماء الله تعالى يدل على أنها متباينة المعاني ،وأن ترادفها إنما هو من جهة المسمى ،أى من حيث كونها جميعا أسماء لذات واحدة هو الله عز وجل، أما من حيث معانيها فهى متابينة ، ووجه دلالة تفاضلها على ذلك:أن التفاضل لايكون إلا بين شيئين فصاعدا، إذ الواحد من كل وجه المترادف من كل وجه لايعقل فيه شىءأفضل من شىء ،والأسماء إذا كانت مترادفة المعانى لايكون فى واحد منها زيادة دلالة على الآخر ،بل يقوم كل واحد منها مقام الآخر ،ويدل على مايدل عليه الآخر من معنى سواء بسواء ،وليست أسماء الله كذلك ،بل إن كل اسم منها يدل على معنى غير المعنى الذى يدل عليه غيره منها ،ولذلك وقع التفاضل فيها ولايقع التفاضل فى الأسماء المترادفة ،وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيرا بمرادف محض، بل هو على سبيل التقريب

والتفهيم [1] .

ويدل تفاضل أسماء الله كذلك على أنها أسماء تدل على معان وصفات ، وليست أعلاما محضة لامفهوم لها إلا مجرد الدلالة المحضة على مسماها ، فإن الأعلام المحضة لاتدل على معان ولايشتق منها أوصاف للمسمى ، ولذلك لايقع فيها التفاضل إذ لاوجه لتفاضلها ، إذ لايفهم منها جميعها الامعنى واحد وهو الدلالة على المسمى لاغير .

أما أسماء الله فهي معان وأوصاف ،ولذلك تشتق منها الأوصاف لله ،ولذلك وقع فيها التفاضل ولايقع التفاضل في الأعلام المحضة .

وفي هذا نقض لما ضل به المعتزلة ومن لف لفهم من اعتقاد أن أسماء الله أعلام مترادفة .

---

(1) انظر بدائع الفوائد ١٦٨/١ .

المبحث الثاني : تفاضل صفات الله ودلالة ذلك :

المطلب الأول : من أدلة تفاضل صفات الله :

معنى تفاضل صفات الله كون بعض الصفات أفضل من بعض لوجه من وجوه الفضل ، ومن أدلة تفاضل الصفات : قوله صلى الله عليه وسلم : " لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش ، إن رحمتي غلبت غضبي "(1) وفي رواية "سبقت غضبي"(2) " قال ابن تيمية رحمه الله : " وصف رحمته بأنها تغلب وتسبق غضبه ، وهذا يدل على فضل رحمته على غضبه من جهة سبقها وغلبتها "(3).

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في سجوده :" اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك "(4) ،

---

(1) متفق عليه ، البخاري مع الفتح ٢٨٧/٦ ، ومسلم ٢١٠٨/٤.

(2) في البخاري مع الفتح ٤٠٤/١٣، ومسلم ٢١٠٨/٤

(3) جواب أهل العلم والإيمان ٨٩.

(4) أخرجه مسلم ٣٥٢/١.

فكان يستعيذ من صفة السخط بصفة الرضا ،ومن عقوبة الله بمعافاته ، وبه سبحانه منه ،قال إبن تيمية رحمه الله :" ومعلوم أن المستعاذ به أفضل من المستعاذ منه ".(1)

وأما قوله : " أعوذ بك منك " فمعناه والله أعلم، الاستعاذة بكل صفة مرغوب فيها من صفات الله من كل صفة مرهوب منها من صفات الله ، فيكون دليلا جامعا يدل على تفاضل صفات الله المستعاذ بها والمستعاذ منها جميعها ، وقد قال ابن تيمية رحمه الله :

" وأما استعاذته به منه فلابد أن يكون بأعتبار جهتين : يستعيذ به باعتبار تلك الجهة ،ومنه باعتبار تلك الجهة ، ليتغاير المستعاذ به والمستعاذ منه ،إذ أن المستعاذ منه مخوف مرهوب منه ،والمستعاذ به مدعو مستجار به ملتجأ إليه ، والجهة الواحدة لا تكون مطلوبة مهروبا منها ،لكن باعتبار جهتين تصح "(2) والجهتان

---

(1) جواب أهل العلم والإيمان ٩٠

(2) جواب أهل العلم والإيمان ٩٠ ـ ١٩١.

متعلقتان بصفاته الفعلية أوالذاتية ولاريب ،وشبه

رحمه الله قوله :" أعوذ بك منك " بقوله فى حديث البراء

فى الدعاء عند النوم :" لامنجا ولاملجأ منك إلاإليك "[1]

وقال رحمه الله :" ومعلوم أن جهة كونه منجيا غير

جهة كونه منجيا منه ، وكذلك جهة كونه ملتجأ إليه

غير كونه ملتجأ منه ، سواء قيل إن ذلك يتعلق

بمفعولاته أوأفعاله القائمة به أوصفاته أوبذاته

بأعتبارين"[2]٠

ثم إن كل دليل على تفاضل أسماء الله دليل على تفاضل

صفاته لأنأسماء الله أسماء وأوصاف ٠

---

(١) متفق عليه ،البخارى مع الفتح ١١٣/١١ ومسلم ٢٠٨٢/٤

(٢) جواب أهل العلم والإيمان ٩١٠

المطلب الثاني : تفاضل الصفة الواحدة :

التفاضل فى صفات الله قد يقع فى الصفة الواحدة ، فتكون الصفة الواحدة متفاضلة ،ومن أدلة ذلك :،تفاضل صفة الحب والبغض ، قال صلى الله عليه وسلم : "أحب البلاد إلى الله مساجدها ،وأبغض البلاد إلى الله أسواقها"(1) و"أحب" و "أبغض" صيغة تفضيل ، وقال صلى الله عليه وسلم :" أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم "(2) ، وقال صلى الله عليه وسلم :" أبغض الناس إلى الله ثلاثة : ملحد فى الحرم ،ومبتغ فى الإسلام سنة الجاهلية ،ومطلب دم امرىء بغير حق يهريق دمه"(3)،

وكذا تفاضل صفة اليد كمافى حديث : "يمين الله ملأى لايغيضها نفقة ،سحاء الليل والنهار ،أرأيتم ماأنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض مافى

---

(1) أخرجه مسلم ٤٦٤/١.

(٢) متفق عليه ،البخارى مع الفتح ١٨٨/٨ ومسلم ٢٠٥٤/٤.

(٤) أخرجه البخارى ،الصحيح مع الفتح ٤١٠/١٢.

يمينه ،وبيده الأخرى القبض يرفع ويخفض".[1]

قال ابن تيمية :" فبين صلى الله عليه وسلم أن الفضل بيده اليمنى والعدل بيده الأخرى ،ومعلوم أنه مع أن كلتا يديه يمين فالفضل أعلى من العدل ،وهو سبحانه كل رحمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ،ورحمته أفضل من نقمته " قال :" ولهذا كان المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن[2] ولم يكونوا عن يده الأخرى وجعلهم عن يمين الرحمن تفضيل لهم ،كما فضل في القرآن أهل اليمين وأهل الميمنة على أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة ،وإن كانوا إنما عذبهم بعدله ،وكذلك الأحاديث والآثار جاءت بأن أهل قبضة اليمين أهل السعادة وأهل القبضة الأخرى هم أهل الشقاوة".[3]

---

(١) متفق عليه ، البخاري مع الفتح ٤٠٣/١٣ ومسلم ٦٩١/٢.

(٢) كما ورد في حديث مسلم في صحيحه ١٤٥٨/٣.

(٣) جواب أهل العلم والإيمان ٩٢ - ٩٣.

ومن تفاضل الصفة الواحدة من صفات الله ، تفاضل صفة الكلام ، والدلائل عليه كثيرة من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فمن ذلك : أن القرآن كلام الله وقد فضله على سائر كتبه التى سبقته وهى كلها كلامه سبحانه وتعالى ، قال تعالى : " وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه " المائدة ٤٨ ، واختص الله القرآن من بين سائر كلامه بخصائص ، فاختصه بأن تكفل سبحانه بحفظه ، واختصه بأن جعله معجزة نبيه التى اجتمع عليها البشر ، واختصه بأن تحدى الخلق أن يأتوا بمثله أو بمثل عشر سور منه أو بمثل سورة منه ، وغير ذلك من خصائصه ، وتخصيص القرآن بأحكام وفضائل توجب تشريفه وتفضيله على غيره مما أنزل الله على رسله ، وقد قال سبحانه : " واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم " الزمر ٥٥ ، وقال : " الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى " - الزمر ٢٣ - .

ثم القرآن نفسه متفاضل ، كما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تفضيل بعض آياته وسوره على غيرها ،فمن ذلك :

حديث أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" يا أبا المنذر ،أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم ؟ " قال : قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : " يا أبا المنذر ،أتدرى أى آية فى كتاب الله معك أعظم ؟ " قال : قلت :الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، قال : فضرب فى صدرى وقال :" والله ليهنك العلم أبا المنذر "(1).

فهذه آية من كلام الله وهى آية الكرسى أعظم آية فى كتاب الله ، ووردت أحاديث فيها تخصيص بعض الآيات من كتاب الله بفضائل ، كما ثبت فى الآيتين من آخر البقرة أن من قرأهما فى ليلة كفتاه(2) ،وكذا ثبت

---

(1) أخرجه مسلم ٥٥٦/١.

(2) جاء هذا فى الحديث المتفق عليه ، البخارى مع الفتح ٣١٧/٧ - ٣١٨ ، ومسلم ٥٥٥/١

في بعض السور، نحو قوله صلى الله عليه وسلم: " يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران "[1] فهذا في تفضيل هاتين السورتين من كلام الله . ، وفي حديث ابن عباس قال : بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضا من فوقه ، فرفع رأسه ، فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك ،فقال هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم ،فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك ،فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته "[2] ، وقال صلى الله عليه وسلم : " قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن "[3] ، وقال: والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن "[4] ووردت

---

(١) أخرجه مسلم ٥٥٤/١ .

(٢) أخرجه مسلم ٥٥٤/١ .

(٣) أخرجه مسلم ٥٥٦/١ .

(٤) أخرجه البخاري ٥٩/٩ .

أحاديث عديدة يطول حصرها فيها ماذكر من تخصيص

بعض الآيات والسور بفضائل ،وجميعها يدل على أن

كلام الله يتفاضل ، قال الغزالي :" لعلك تقول : قد

توجه قصدك في هذه التنبيهات إلى تفضيل بعض

القرآن على بعض والكل قول الله تعالى فكيف يفارق

بعضها بعضا ؟ وكيف يكون بعضها أشرف من بعض ؟

فاعلم :أن نور البصيرة إن كان لايرشدك إلى الفرق

بين آية الكرسي وآية المداينات ، وبين سورة الإخلاص

وسورة تبت ، وترتاع من اعتقاد الفرق نفسك الجوارة ،

المستغرقة بالتقليد ، فقلد صاحب الرسة صلوات الله

وسلامه عليه ، فهو الذى أنزل عليه القرآن، وقد

دلت الأخبار على شرف بعض الآيات وعلى تضعيف الأجر

في بعض السور المنزلة" (١) ونقل السيوطى عن العز بن

عبدالسلام قوله :" كلام الله فى الله أفضل من كلامه في

غيره ، فـ " قل هو الله أحد أفضل

---

(١) جواهر القرآن ٦٢ – ٦٣ .

من " تبت يد أبي لهب "[1] فهذا من وجوه تفاضل صفة الكلام ومن وجوهها أيضا ماقاله ابن تيمية :" إذا كان المخبر به أكمل وأفضل كان الخبر به أفضل وإذا كان المأمور به أفضل كان الأمر به أفضل "[2] وقد قال تعالى : " وماكان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أومن وراء حجاب أويرسل رسولا فيوحي بإذنه مايشاء " الشورى ٥١ ، قال ابن تيمية " معلوم أن تكليمه من وراء حجاب أفضل من تكليمه بالايحاء وبإرسال رسول، ولهذا كان من فضائل موسى عليه السلام ان الله كلمه تكليما وقال : (إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي)[3] الأعراف ١٤٤. ولقد قال تعالى :" ماننسخ من آية أوننسها نأت بخير منها أومثلها " - البقرة ١٠٦ - قال ابن تيمية :" أخبر أنه يأت بخير منها أومثلها ،

---

(١) الاتقان ١٩٩/٢.

(٢) جواب أهل العلم والإيمان ٦١.

(٣) جواب أهل العلم والإيمان ٦٦.

وهذا بيان من الله لكون تلك الآية قد يأتي بمثلها تارة أو خير منها أخرى فدل ذلك على أن الآيات تتماثل تارة وتتفاضل أخرى ".[1]

والحاصل : أن النصوص الشرعية من القرآن وصحيح السنة قاطعة فى الدلالة على تفاضل صفات الله عز وجل.

---

(١) جواب أهل العلم والإيمان ١١٠

المطلب الثالث : دلالة تفاضل صفات الله :

تفاضل صفات الله عز وجل يدل على تعددها ، لأن التفاضل لايعقل إلا مع التعدد ،إذ لايكون إلا بين شيئين فصاعدا - كما سبق بيانه - ،وهذا يدل إلى ان صفات الله ليست هي عين ذاته ، وإنما هي متعلقة بذاته سبحانه وتعالى ، لأن الذات واحدة غير متعددة ،ولكنها متصفة بصفات متعددة. واتصاف الذات بالصفات دليل كما لها ، لأن الذات المجردة التي لاتتعلق بها صفة ناقصة.

وثبوت تعدد صفات الله يدل على ثبوتها لله عز وجل،فلا يسع المؤمن إلا إثباتها متعددة،لكل منها معنى يغاير معنى الآخر ، ولذلك كان ورود إثبات صفات الله فى نصوص الشرع إنما يكون على وجه التفصيل ،أما النفى فيكون مجملا ،ففى النصوص ذكر أسماء وصفات الله مفصلة ،وفيها نفى مالايصلح له

من التشبيه والتمثيل إجمالا ،وهذا بخلاف طريقة أهل الضلال والباطل الذين يفصلون فى النفي، فينفون عنه صفاته على وجه التفصيل ،ولايثبتون له إلا وجودا مطلقا لاتتعلق به صفة.(1)

وإثبات تفاضل الصفات هو من لوازم إثبات الصفات ، فمن أثبت الصفات لزمه إثبات تفاضلها ، لأن إثبات التفاضل بين الشيئين ، فرع عن إثبات كل واحد منهما بمعناه وماتضمنه من كمال ،فينظر فى أيهما أفضل وأكمل ،أما إذا كان الشيئان منفيين ،فلا تفاضل بينهما ،لأنه لاوجود لهما أصلا ، فلا كمال ولافضيلة هناك أصلا حتى يمكن النظر فى التفاضل ،ولذلك فإنه يمتنع التفاضل بين صفات الله بناء على مذهب المعطلة الباطل من الجهمية والمعتزلة ونحوهم.

---

(1) انظر الرسالة التدمرية ٨ - ١١ و ٧٤ - ٧٥.

المبحث الثالث : ماوقع من الشذوذ والباطل فى هذا الباب :

قد ظهرت أقوال شاذة تمنع وقوع التفاضل فى صفات الله ،وأعظم ماوقع الكلام فيه واشتهر: التفاضل فى كلام الله عز وجل ،فمنع تفاضل كلام الله جمع من الناس ، واشتهر حتى توهم بعضهم أن هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة ، وظنوا أن القول بتفضيل كلام الله بعضه على بعض لايمكن إلا على قول الجهمية من المعتزلة وغيرهم القائلين بأنه مخلوق ،أما أهل السنة فهم مجمعون على أن القرآن غير مخلوق،ولذا اعتقد هؤلاء أن ذلك يمنع وقوع التفاضل فى صفات الله القائمة بذاته ،يقول ابن تيمية رحمه الله :- " ولأجل هذا الاعتقاد -(أى اعتقاد أن القرآن كلام الله غيرمخلوق)-صار من يعتقده يذكر إجماع أهل السنة على امتناع التفضيل فى القرآن كماقال أبوعبدالله بن الدراج فى مصنف صنفه فى هذه المسألة ،قال :" أجمع أهل السنة على أن ماورد فى الشرع مماظاهره المفاضلة بين آى القرآن وسوره

ليس المراد به تفضيل ذوات بعضها على بعض

إذ هو كلام الله وصفة من صفاته ، بل هو كله لله

فاضل كسائر صفاته الواجب لها نعت الكمال " وهذا

النقل للاجماع هو بحسب ماظنه لازما لأهل السنة ،فلما

علم أنهم يقولون القرآن كلام الله ليس بمخلوق ،وظن

هو أن المفاضلة إنما تقع في المخلوقات لا في الصفات ،

قال ماقال . وإلا فلا ينقل عن أحد من السلف والأئمة أنه

أنكر فضل كلام الله بعضه على بعض : لا في نفسه ،

ولا في لوازمه ومتعلقاته ،فضلا على أن يكون هذ إجماعا" .[1]

وقال رحمه الله :" وربما نقل عن بعض السلف في

قوله تعالى :" نأت بخير منها " - البقرة ١٠٦ - أنه قال:

خير لكم منها ،أو أنفع لكم. فيظن الظان أن ذلك

القائل موافق لهؤلاء ،وليس كذلك ،بل مقصوده بيان

وجه كونه خيرا وهو أن يكون أنفع للعباد ،فان ماكان أكثر

من الكلام نفعا للعباد كان في نفسه أفضل ،كما بين في

---

(١) جواب أهل العلم والإيمان ٧٢ ،وابن الدراج لم أعثر له بعد البحث والتقصى على ترجمة .

موضعه . وصار من سلك مسلك الكلابية من متأخري أصحاب أحمد ومالك والشافعي وغيرهم يظنون أن القول بتفاضل كلام الله بعضه على بعض إنما يمكن على قول المعتزلة ونحوهم الذين يقولون أنه مخلوق ،فان القائلين بأنه مخلوق يرون فضل بعضه على بعض فضل مخلوق على مخلوق ،وتفضيل بعض المخلوقات على بعض لاينكره أحد . فاذا ظن أولئك أن القول بتفضيل بعض كلام الله على بعض مستلزم لكون القرآن مخلوقا فروا من ذلك وأنكروا القول به لأجل ماظنوه من التلازم، وليس الامر كماظنوه ،بل سلف الامة وجمهورها يقولون : إن القرآن كلام الله غير مخلوق ،وكذلك سائر كلام غير الله مخلوق . ويقولون مع ذلك : إن كلام الله بعضه أفضل من بعض ،كما نطق بذلك الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين من غير خلاف يعرف في ذلك عنهم."(1) وقال ابن تيمية رحمه الله " وفي الجملة فدلالة النصوص النبوية والآثار

---

(٢) جواب أهل العلم والإيمان ص ٥٣.

السلفية والأحكام الشرعية والحجج العقلية على أن كلام الله بعضه أفضل من بعض هو من الدلالات الظاهرة المشهورة»[1].

وقد وقع في القول بمنع تفاضل كلام الله بعض أفاضل العلماء، كابن جرير الطبري أحد أئمة المفسرين وقد قال: " غير جائز أن يكون من القرآن شيء خير من شيء، لأن جميعه كلام الله، ولا يجوز في صفات الله تعالى ذكره أن يقال بعضها أفضل من بعض وبعضها خير من بعض "[2].

وكذا ابن حبان إذ قال:" كلام الله يستحيل أن يكون فيه تفاوت التفاضل "[3]. وقد نسب هذا القول لبعض الأئمة المتقدمين فقد رُوي عن سفيان بن عيينة، قال محمد بن نصر المروزي[أ]:" حدثنا أبو قدامة قال: سمعت سفيان بن عيينة

---

(١) جواب أهل العلم والإيمان ص٥٦.

(٢) التفسير ٣٨٣/١.

(٣) الإحسان ٧٥/٢.

(أ) أبو عبد الله، كان من أعلم الناس باختلاف الصحابة فمن بعدهم، كان عابدا، وقال الحاكم فيه: إمام عصره بلا مدافعة في الحديث توفي سنة ٢٩٤ هـ - انظر سير أعلام النبلاء ٣٣/١٤، وتذكرة الحفاظ ٦٥٠/١، وتاريخ بغداد ٣١٥/٤، وتهذيب التهذيب ٤٨٩/٩.

يقول : كنت أقرأ هذه الآية فلا أعرفها (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها) . أقول: هذا قرآن، وهذا قرآن، فكيف يكون خيرا منها ؟ حتى فسر لي فكان بينا نأت بخير منها لكم، أيسر عليكم، أخف عليكم، أهون عليكم "[1]، ونُسب كذلك للإمام مالك، قال القرطبي[أ] : "اختلف العلماء في تفضيل بعض السور والآيات على بعض، وتفضيل بعض أسماء الله الحسنى على بعض، فقال قوم : لا فضل لبعض على بعض، لأن الكل كلام الله، وكذلك أسماؤه لا مفاضلة بينهما، ذهب إلى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعري والقاضي أبو بكر بن الطيب، وأبو حاتم محمد بن حبان البستي وجماعة من الفقهاء " قال : " وروى معناه عن مالك، قال يحيى بن يحيى[ب] : تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ ، وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها ، وقال عن مالك في قول الله تعالى :(نأت بخير منها أو مثلها) قال : محكمة مكان منسوخة ، وروى ابن كنانة مثل ذلك كله عن

---

(١) السنة ٦٦٠

(أ) هو محمد بن أحمد الانصاري الخزرجي الأندلسي ، معشر ، وكان صالحا متعبدا زاهدا ت ٦٧١ هـ . انظر شذرات الذهب ٣٣٥/٦ ، ومقدمة تفسيره ص (و)

(ب) هو يحيى بن يحيى بن أبي عيسى الليثي بالولاء ، أبو محمد ، عالم الأندلس في عصره ، رحل الى المدينة شابا وسمع الموطأ من مالك وعاد الى الأندلس فنشر فيها مذهب مالك ت ٢٣٤هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٥١٩/١٠ وتهذيب التهذيب ٣٠٠/١١ .

مالك " قال " واحتج هؤلاء بأن قالوا : إن الأفضل يشعر بنقص المفضول،والذاتية في الكل واحدة وهي كلام الله ،وكلام الله تعالى لانقص فيه "[1] فمأخذ هؤلاء في منعهم التفاضل في كلام الله وصفاته هو توهمهم أن القول بالتفاضل يشعر بنقص المفضول ولاتجوز نسبة النقص لصفات الله عز وجل، وهذا ظاهر كلام ابن جرير وغيره ،قال ابن تيمية رحمه الله :

" ومن حجة هؤلاء أنه إذا قيل بعضه أفضل من بعض كان المفضول ناقصا عن الفاضل ،وصفات الله كاملة لانقص فيها والقرآن من صفاته ، قال هؤلاء : صفات الله كلها متوافرة في الكمال ،متناهية إلى غاية التمام لايلحق شيئا منها نقص بحال "[2] ولذلك حملوا التفاضل الوارد في النصوص على تفاضل الأجر والثواب ونحو ذلكم ممايتعلق بالصفة مما ليس منها ، ولذلك قال ابن حبان :" قوله صلى الله عليه وسلم : ألا أخبرك بأفضل القرآن ،أراد به

---

(١) تفسير القرطبي ١٠٩/١ ،وانظر البرهان في علوم القرآن ٤٣٨/١، والاتقان ١٩٩/٢.

(٢) جواب أهل العلم والإيمان ٧١.

بأفضل القرآن لك ، لا أن بعض القرآن يكون أفضل من بعض "[1] وقال في حديث الفاتحة أنه ما أنزل في التوراة ولا في الانجيل ولا في الزبور مثلها[2] :" معنى هذه اللفظة " ما في التوراة ولا في الانجيل مثل أم القرآن" أن الله لا يعطي لقارئ التوراة والإنجيل من الثواب ما يعطي لقارئ أم القرآن "[3].

وقال ابن جرير في قوله تعالى :" ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها " :" إما بخير منها في العاجل لخفته على من كلفه، أو في الآجل لعظم ثوابه وكثرة أجره، أو يكون مثلها في المشقة على البدن واستواء الأجر والثواب عليه "[4].

---

(1) الإحسان ٧٥/٢.

(2) انظر الحديث في الموطأ ٨٣/١ والمسند ١١٤/٥ وصحيح ابن خزيمة ٢٥٢/١ ،وسنن الترمذي ١٤٣/٥ ،وسنن النسائي ١٣٩/٢ ، والمستدرك ٥٥٧/١.

(3) الإحسان ٧٥/٢.

(4) التفسير ٣٨٢/١ .

وعلى هذا جرى جمع من المفسرين[1] وشراح كتب الحديث[2] والمؤلفين في أصول الفقه[3] عند كلامهم على النسخ .

فهذا قول بتفاضل متعلق الصفة أما ذات الصفة فلا تتفاضل.

وقد فند ابن تيمية رحمه الله دعوى أن في القول بتفاضل الصفات قول بنقص المفضول منها ، وبين أنه خطأ لا تدفع به دلالات النصوص ، وهو وهم غير صحيح ، فصفات الله كلها فاضلة في غاية التمام والكمال ليس فيها نقص

---

(1) انظر تفسير القرطبي ٢٧٣/١ ، التفسير الكبير ٢٣٣/٣ ، البحر المحيط ٣٤٤/١ ، تفسير النسفي ٦٨/١ ، تفسير البغوي ١٠٤/١ ، تفسير الخازن ٩٤/١ ، ٢٦٧ ، أحكام القرآن للجصاص ٥٩/١ .

(2) انظر عارضة الأحوذي ٣/١١ ، وشرح مسلم للنووي ٩٣/٦ - ٩٤ ، وعمدة القاري ٨١/١٨ .

(3) انظر الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٩٥/٤ ، المغني في أصول الفقه للخبازي ٢٥٧ ، العدة في أصول الفقه ٧٩١/٣ .

اصلا ، فالتفاضل فيها تفاضل بين صفات فاضلة كاملة لانقص فيها ولاعيب ،واستشهد رحمه الله بما بينه صلى الله عليه وسلم من أن كلتي يمين الرب مباركة ليس فيها نقص ولاعيب بوجه من الوجوه مع أن اليمين أفضلهما ، وبأن كل رحمة منه سبحانه فضل وكل نقمة منه عدل ورحمته أفضل من نقمته ،وهي تسبق غضبه ،وتغلب غضبه (١) .

وليست هذه الدعوى في واقعها إلا وهم فاسد،وإلا فالمفاضلة بين المخلوقات الفاضلة لاتستلزم نسبة النقص والعيب للمفضول كالمفاضلة بين الأنبياء مثلا ،فليس قولنا : إن نبيا أفضل من نبي دال على أن المفضول ناقص معيب ،مع كون الأنبياء مخلوقين والمخلوق قابل للنقص والعيب.

فإذا كان التفاضل لايستلزم نقص المفضول وأنه معيب في المخلوقات التي تقبل النقص والعيب ،فكيف بالتفاضل في صفات الله التي لانقص فيها أصلا ولاتقبل النقص .

---

(١) جواب أهل العلم والإيمان ٨٧ ـ ٩٨ .

وأما دعوى أن التفاضل إنما يكون فى متعلق الصفة من الثواب أوكونه أخف عملا أوأشق أونحو ذلك مماذكر ، فقد فندها ابن تيمية أيضا بمايظهر فسادها ، فأجاب مثلا عن قولهم فى الآية " نأت بخير منها " أن الخيرية من جهة كونه أخف عملا أوأشق وأكثر ثوابا ،أو لكونه أنفع للعباد بأجوبة منها :

- أن " قول القائل : إنه ليس بعض ذلك خيرا من بعض بل بعضه أكثر ثوابا ، رد لخبر الله الصريح فإن الله يقول :" نأت بخير منها أومثلها " فكيف يقال ليس بعضه خيرا من بعض ؟ وإذا كان الجميع متماثلا فىنفسه ،امتنع أن يكون فيه شىء خيرا من شىء ،وكون معنى الخير أكثر ثوابا مع كونه متماثلا فى نفسه ،أمر لايدل عليه اللفظ حقيقة ولامجازا ، فلايجوز حمله عليه ، فإنه لايعرف قط أن يقال هذا خير من هذا وأفضل من هذا مع تساوى الذاتين بصفاتهما من كل وجه ،بل لابد مع إطلاق هذه العبارة من التفاضل ولو ببعض الصفات ".(1)

---

(1) جواب أهل العلم والإيمان ١٧٠.

- ثم : " لايجوز أن يراد بالخير من جهة كونه أخف عملا أو أشق أو أكثر ثوابا ،لأن هذين الوصفين ثابتان لكل ما أمر الله به مبتدأ وناسخا " قال : " فإذا كانت هذه الصفة لازمة لجميع الأحكام ،لم يحسن أن يقال: ماننسخ من حكم نأت بخير منه أومثله ،فإن المنسوخ أيضا يكون خيرا ومثلا بهذا الاعتبار ،فإنهم إن فسروا الخير بكونه أسهل ، فقد يكون المنسوخ أسهل فيكون خيرا ، وإن فسروه بكونه أعظم أجرا لمشقته فقد يكون المنسوخ كذلك ،والله قد أخبر أنه لابد أن يأتى بخير مما ينسخه أومثله فلايأتى بدونه "(١) اذا فلزم أن يكون خيرا فى نفسه لافى ماتعلق به .

- "وأيضا فعلى ماقالوه ، لايكون شيء خيرا من شيء، بل إن كان خيرا من جهة السهولة ،فذلك خير من وجهة الأجر "(٢).

- ثم " يقال لهؤلاء : ماذكرتموه حجة عليكم ،مع مافيه من مخالفة النص ، وذلك أن كون الثواب على أحد

---

(١) جواب أهل العلم والإيمان ٤٧ - ٤٨ .

(٢) جواب أهل العلم والإيمان ٤٨.

القولين أوالفعلين أكثر منه على الثاني إنما كان لأنه في نفس أفضل ، ولهذا إنما تنطق النصوص بفضل القول والعمل في نفسه ،كما قد سئل النبي صلى الله عليه وسلم غير مرة : أي العمل أفضل ؟ فيجيب بتفضيل عمل على عمل ،وذلك مستلزم لرجحان ثوابه ، وأما رجحان الثواب مع تماثل العملين فهذا مخالف للشرع والعقل "(1).

هذا في جملة ردود قوية دامغة بسطها رحمه الله في كتابه " جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمن من أن قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن".

ذلك ما وقع من الشذوذ (2) في هذا الباب ، أما ما وقع

---

(1) جواب أهل العلم والإيمان ص ١٦٧.

(2) أعني بالشذوذ : القول المبني على اجتهاد في تفسير النص لا يدل عليه اللفظ البتة ولا بوجه من الوجوه لكنه غير مبني على أصل باطل أو على قاعدة من قواعد أهل الضلال .

من الباطل فيه ، فهو منع تفاضل الصفات بناء على مذاهب باطلة وقواعد ضالة في الصفات ، كما هو مذهب المعتزلة[1] المنكرين للصفات كلها ، القائلين بأنه لايوجد إلا الذات القديمة ، والقدم أخص وصف لها ، ولايجوز أن يكون للذات صفة لأن صفة القديم قديمة ، ولوقلنا بالصفات لقلنا بتعدد القدماء ، وبناء على هذا المذهب يمتنع حصول التفاضل أصلا إذ لايتصور حصول التفاضل في ذات مجردة عن جميع الصفات .

قال ابن تيمية : " من قال : إن صفات الرب لاتتعدد فهو يقول : العلم هو القدرة ، والقدرة هي الإرادة ، والسمع والبصر هو العلم " إلى أن قال : " ثم قد يقولون: إن الصفة هي الموصوف ، فالعلم هو العالم ، والقدرة هي القادر " قال :" ومعلوم أن في هذه الأقوال من مخالفة المعقول الصريح والمنقول الصحيح ـ بل مخالفة المعلوم بالاضطرار للعقلاء ، والمعلوم بالاضطرار من

---

(١) انظر مذهب المعتزلة في الصفات شرح الأصول الخمسة ١٥١ ومابعدها ومقالات الإسلاميين ٤٨٣ ومابعدها وغيره من كتب المقالات .

دين الإسلام والرسل - مابين أنها في غاية الفساد شرعا وعقلا "(1). وكذا مذهب الكلابية ، أتباع عبد الله بن كلاب ، الذى يعتقد :" أن الله سبحانه لم يزل متكلما ، وأن كلام الله سبحانه صفة له قائمة به ، وأنه قديم بكلامه ،وأن كلامه قائم به كما أن العلم قائم به والقدرة قائمة به وهو قديم بعلمه وقدرته ، وأن الكلام ليس بحرف ولا صوت ، ولا ينقسم ولا يتجزأ ،ولا يتبعض ولا يتغاير ، وأنه معنى واحد بالله عز وجل وأن الرسم هو الحروف المتغايرة وهو قراءة القرآن " " وأن العبارات عن كلام الله سبحانه تختلف وتتغاير وكلام الله سبحانه ليس بمختلف ولا متغاير " " وإنما سمي كلام الله سبحانه عربيا لأن الرسم الذى هو العبارة عنه وهو قراءته عربي ،فسمي عربيا لعلة ،وكذلك سمي عبرانيا لعلة ،وهى أن الرسم الذى هو عبارة عنه عبراني ، وكذلك سمي أمرا

لعلة ،وسمي نهيا لعلة ، وخيرا لعلة"(1)

فهذا قول بأن كلام الله معنى واحد قائم بذات الله لايتغاير ،إن عبرعنه بالعربية كان قرآنا، وإن عبرعنه بالعبرانية كان توراة ، وهكذا ،ووافقت الأشاعرة الكلابية حتى لكأن مذهبهما واحد، فقالت: إن كلام الله قديم قائم بنفسه ، وهو شىء واحد لايختلف ولايتغير ،ويدل عليه الخطوط المصطلح عليها بين أهل كل خط ، فيقوم الخط فى الدلالة مقام النطق باللسان كما يقول الباقلانى (2) ، ويقول الجوينى:

" كلام الله تعالى واحد وهو متعلق بجميع متعلقاته وكذلك سائر صفاته ، وهو العالم بجميع المعلومات بعلم واحد ، والقادرعلى جميع المقدورات بقدرة واحدة ،وكذلك القول فى الحياة والسمع والبصر والإرادة"(3).

---

(1) مقالات الإسلاميين ٥٨٤ - ٥٨٥.

(2) الإنصاف ١٠٦ - ١٠٧.

(3) الإرشاد ١٣١.

وقال : " الكلام هو القول القائم بالنفس ،وإن رمنا تفصيلا فهو القول القائم بالنفس الذى تدل عليه العبارات ومايصطلح عليه من الإشارة". (١) ويمتنع على مذهب الكلابية والأشاعرة أن يقع التفاضل فى صفة الكلام والقدرة والسمع والإرادة وسائر صفات الله لأن كلا منها شىء واحد قائم بالذات لايتغاير ولايتعدد ، وليس لهم من دليل من كتاب الله ولا من سنة رسوله ولامن عقل صحيح موافق للكتاب والسنة وإنما بنوا مذاهبهم على دلالات عقلية لايحتج بها فى دين الله .

والرد على المعتزلة والكلابية والأشاعرة يكون بنقض أصولهم التى بنوا عليها منع التفاضل فى صفات الله وهو أمر يطول ذكره ويخرج بالبحث حده ، ولكن ابن تيمية رحمه نقض مذاهبهم بما لايدع مجالا للقول فى الفتاوى والمجلد السابع عشر منها فى موضوع

---

(١) الإرشاد ١٠٨ ،وانظر المواقف ص ٢٩٤ - ٢٩٥.

التفاضل خاصة "[1].

وكان مما قاله في نقض قول الأشاعرة والكلابية :

" وجمهور العقلاء يقولون : ليست معاني " تبت يدا أبي لهب " ، ولا معاني آية الدين معاني آية الكرسي ، ولا معاني الخبر عن صفات الله هي معاني الخبر عن مخلوقات الله ، وأن تعلق ذلك المعنى بالحقائق المخبر عنها ، والأفعال التي تعلق بها الأمر والنهي ، إن كان أمرا وجوديا فلابد له من محل ، فإن قام بذات الله فقد تعددت معاني الكلام القائمة بذاته ، وإن قام بذات غيره كان صفة لذلك الغير لا لله ، وإن قام لا بمحل كان ممتنعا فإن المعاني لا تقوم بأنفسها ، وإن كان تعلق ذلك المعنى بالحقائق أمرا عدميا لم يكن هناك مايميز بين الخبر والأمر والنهي ، بل لا لايميز بين خبر الله عن نفسه وعن قوم نوح وعاد إذا كان المعنى الواحد لاتعدد فيه فضلا عن أن يمتاز

---

(٤) وهو الجزء الذي اشتمل على كتاب " جواب أهل العلم والإيمان ".

بعضه عن بعض .

والحقائق المخبرعنها والمأموربها والمنهي عنها لاتكون بأنفسها مخبر بها ومأمورا بها ومنهيا عنها ،بل الخبرعنها والأمر بها والنهي عنها هو غير ذواتها ، ،فاذا لم يكن هنا أمر موجود غير ذلك المعنى الذى لا امتياز فيه ولاتعدد وغير المخلوقات التى لاتميز بين الأمر والنهي والخبر،لم يكن هنا مايميز بين النهي والخبر ،ولامايجعل معاني آية الوضوء غيرمعاني آية الدين ، فان الحروف المخلوقة الدالة على ذلك المعنى ان لم تدل إلا عليه فلا تعدد فيه ولاتنويع وان دلت على التعلقات التى هي عدمية،فالعدم ليس بشيء حتى يكون أمرا ونهيا وخبرا ،وليس عند هولاء إلا ذلك المعنى وتعلقه بالحقائق المخبرعنها والمأمور بها ،ونفس القرآن العربي المخلوق عندهم (هو) الدال على ذلك المعنى ، فالمدلول ان كان هو ذلك المعنى لايتميز فيه أمر عن خبر ،ولاأمر

بصلاة عن أمر بزكاة ،ولا نهي عن الكفر عن

إخبار بتوحيد. وإن كانت التعلقات عدمية فالمعدوم

ليس بشيء ،ولايكون العدم أمرا ونهيا وخبرا،

ولايكون مدلول التوراة والانجيل والقرآن وسائر

كتب الله أمورا عدمية لاوجود لها ،ولاتكون الأمور

العدمية هي التي بها وجبت الصلاة وحرم الظلم،

ولايكون المعنى الواحد بتلك الأمور العدمية إلا صفات

إضافية وهي من معنى السلبية ،فانها ان لم تكن

سلب أمر موجود فهي تعلق ليس بموجود ،فحقيقة

الأمر - على قول هؤلاء أنه ليس لله كلام لامعان

ولاحروف إلا بمعنى واحد - لاحقيقة له موجودة ولامعلومة". (١)

وبيّن رحمه الله أن التفاضل لا يعقل إلا مع التعدد،

وتعدد صفات الله وكلماته هو القول الذى عليه جمهور

المسلمين وهو الذى كان عليه سلف الأمة وأئمتها وهو

الموافق لفطرة الله التى فطر عليها عباده. (٢)

---

(١) انظر جواب أهل العلم والإيمان ٧٠ - ٧١ .

(٢) " " " العلم والإيمان ١٥٥.

وقد بين رحمه الله تاريخ هذه المقالة ومنشأها وبين أن إنكار تفاضل كلام الله إنما اشتهر القول به بعد المائتين لما أظهرت الجهمية القول بخلق القرآن واتفق أئمة السنة وجماهير الأمة على انكار ذلك ورده. فظنت طائفة كثيرة كابن كلاب ومن وافقه أن رد هذا القول لايمكن إلا بما جاءوا به من البدع فردوا على البدعة ببدعة مثلها وتركوا سبيل الكتاب والسنة.[1]

(١) انظر جواب أهل العلم والإيمان ٥٢.

الباب الثاني

تفاضل الخلق

الفصل الأول

تفاضل الأنبياء

الباب الأول

الفصل الأول : تفاضل الأنبياء وفضلهم .

المبحث الأول : مسائل تمهيدية :

المسألة الأولى : تعريف النبى والرسول وأصل اشتقاق لفظيهما :

للعلماء فى معنى النبى ثلاثة أقوال :

أحدهما : أن معناه المنبىء عن الله المبلغ شرعه على أنه مشتق من : نبأ مهموز الأصل، ونبأ أصل يدل على الاتيان من مكان إلى مكان ، ومنه سمي النبأ وهو الخبر ، لأنه يأتى من مكان إلى مكان ،وبه سمي النبى لأنه أنبأ عن الله ، أى أخبر عنه ، وقد أجازوا همزه وترك الهمز تخفيفا ، وترك همزه هو الأجود عند بعض أهل العلم ، بل قال سيبويه : الهمز فى النبىء لغة رديئة ،يعنى لقلة استعمالها لا لأن القياس يمنع

ذلك .

وهذا القول فى معنى النبي هو الذى عليه أكثر أهل اللغة .(1)

وهو الأصح والأضبط ذلك أنه قد وردت قراءة سبعية متواترة بقراءة " النبي " مهموزا ، وهى قراءة نافع (أ) ، قرأ بها فى جميع القرآن .

قال الشاطبي :

وجمعا وفردا فى النبيء وفى النبوءة الهمز كل غير نافع أبدلا
وقالون (ب) فى الأحزاب فى للنبي مع بيوت النبي الياء شدد مبدلا (2)

---

(1) الصحاح للجوهرى 486/15 ، ولسان العرب 162/1 ، واشتقاق أسماء الله 293 - 294 ، ومعجم مقاييس اللغة 385/5 ، ومختار الصحاح 642 والنهاية فى غريب الحديث 3/5 - 4 .

(2) الشاطبية 39 .

- - - - - - - - - - - - -

(أ) هو نافع بن عبدالرحمن بن أبى نعيم ، أحد القراء السبعة ، ثقة صالح ، انتهت اليه رئاسة القراءة فى المدينة وأقرأ الناس نيفا وسبعين سنة وتوفى سنة 169 بالمدينة ، انظر غاية النهاية 2: 330 وسير أعلام النبلاء 336/7 .

(ب) هو عيسى بن مينا بن وردان ، قارئ المدينة ونحويها ، أخذ القراءة عن نافع وقد كان ربيبه وهو الذى سماه قالون وهى رومية بمعنى جيد ، ت 220 ، انظر غاية النهاية 617/1 وسير أعلام النبلاء 326/10 .

أى أن نافعا انفرد بهمز النبي فى جميع القرآن والبقية قرأوا بترك همزه إبدالا وانفرد قالون عن نافع بترك الهمز فى سورة الأحزاب موافقا فيهما بقية القراء.

وعليه ،فالنبى مشتق من نبأ مهموز الأصل .

القول الثانى : أن معناه مشتق من النبو وهو الارتفاع، غير مهموز الأصل،والنبي على هذا الاشتقاق معناه : المفضل على سائر الناس برفع منزلته ،فهو ارتفع على الخلق وعلا قدره فيهم.

وهو مذهب جماعة من أهل اللغة ولم يجيزوا همزه وخطّأوه.(1)

---

(1) انظر الصحاح 486/15 ، ولسان العرب 302/15 ، واشتقاق أسماء الله 294 ومعجم مقاييس اللغة 384/5.

القول الثالث : أن معناه مشتق من النبي بمعنى: الطريق ،وسمي النبي به لأنه طريق إلى الهدى[1] .

والأقوال الثلاثة صحيحة فى معنى النبي ، وهي مؤتلفة فى حق الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - ، وقد قال الراغب :" النبي بغير الهمز أبلغ من النبي بالهمز لأنه ليس كل منبأ رفيع القدر والمحل "[2] وفى هذا نظر ،إذ مابلغ النبي رفعة القدر إلا لكونه منبأ عن الله ، وليس هو فى جملة المنبئين بل متميز عنهم ،ثم الهمز أصح أصلا لأنه لغة القرآن فى أحد قراءاته ،وترك

---

(١) انظر الصحاح ٤٨٦/١٥ ، ولسان العرب ٣٠٢/١٥ ،ومعجم مقاييس اللغة ٣٨٥/٥ ،وتفسير الطبرى ٢٥١/١ ،ولوامع الأنوار البهية ٤٩/١ ،والمواقف ٣٣٧ .

(٢) المفردات ٤٨٢.

الهمز أجود نطقا فهو لغة القرآن في باقي قراءاته ، ولأنه أوفق صرفا كما بينته كتب اللغة (1) وهو أخف نطقا .

أما الرسول فهو مشتق من رسل ، وهو أصل يدل على الانبعاث ، ولمعناه في اللغة ثلاثة أوجه (2) :

أحدهما : أنه مشتق من الإرسال بمعنى التوجيه ، فالرسول هو المرسل الموجه من الله إلى البشر (3) .

الثاني : أنه بمعنى ذو رسول ، أي ذو رسالة (4) ، إذ تسمى الرسة في اللغة رسول ، وهو قريب من الأول .

---

(1) انظر الصحاح 15/ 486 ، ولسان العرب 1/162 ، و 15/ 303
(2) معجم مقاييس اللغة 2/392 .
(3) انظر لسان العرب 11/283 .
(4) انظر الصحاح 12/391 .

الثالث : أنه بمعنى الذى يتتابع عليه الوحي ،مشتق من رسل اللبن ،إذا تتابع،[1]

وقيل بمعنى الذى يتابع أخبار الذى بعثه ،

قال الجوهرى : " قال أبوبكر بن الأنبارى[أ] فى قول المؤذن أشهد أن لاإله إلا الله ،أشهد أن محمدا رسول الله ،قال : معنى أشهد أعلم وأبين أن محمدا متابع للإخبار عن الله جل وعز ، قال : والرسول معناه فى اللغة الذى يتابع أخبار الذى بعثه أخذ من قولهم : جاءت الإبل رسلا : أى متتابعة "[2].

---

(١) انظر مشارق الأنوار ٢/٣٢٠ ، وأصول الدين للبغدادى ١٥٤.

(٢) الصحاح ١٢/٣٩١.

- - - - - - - - - - - - - -

(أ) هو محمد بن القاسم بن محمد ،أبوبكر ابن الأنبارى ت ٣٢٨ هـ ،كان من أعلم الناس بالنحو والأدب ،وأكثرهم حفظا له ،وكان صدوقا فاضلا دينا خيرا من أهل السنة وصنف كتبا كثيرة فى علوم القرآن . انظر تاريخ بغداد ٣/١٨١وتذكرة الحفاظ وطبقات الحنابلة ٢/٦٩ ومابعدها.

المسألة الثانية : الفرق بين النبي والرسول :

لقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن بين النبي والرسول فرق ،فمن ذلك :

- قوله تعالى في صفة موسى عليه السلام:" وكان رسولا نبيا " مريم ٥١ ، وفي صفة اسماعيل :" وكان رسولا نبيا " مريم ٥٤.

فهذان وصفان متغايران إذ لو كانا مترادفين لكان في الكلام حشو يتنزه عنه كلام الباري سبحانه ، وهو كقولك زيد فقيه شاعر كاتب ، فالصفات متغايرة متعددة وإن كان المتصف بها واحدا.

- وقال سبحانه :" وما أرسلنا من قبلك من رسول ولانبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله مايلقي الشيطان " الحج٥٢ ،فغاير سبحانه بينهما فالعطف يدل على المغايره.

- وقال سبحانه :" الذين يتبعون الرسول النبي الأمي" الأعراف ١٥٧ ، فغاير سبحانه بين وصفي الرسول والنبي.

- وفى حديث أبى أمامة أن أباذر سأل النبى صلى الله عليه وسلم :كم وفى عدة الأنبياء ؟ قال صلى الله عليه وسلم: " مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ،الرسل من ذلك ثلثمائة وخسة عشر جما غفيرا "(1).

- وفى نفس حديث أبى أمامة هذا سأل أبوذر : يانبي الله أى الأنبياء كان أول ،قال صلى الله عليه وسلم: " أدم " .

وفى حديث الشفاعة أن أدم يقول :" ائتوا نوحا فإنه أول رسول بعثه الله "(2).

---

(1) أخرجه أحمد ٢٦٦/٥ ،والحاكم ٢٦٢/٢ ،وقال على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، وصححه الألبانى فى تخريج المشكاة ١٥٩٩/٣.

(2) متفق عليه ،البخارى مع الفتح ١٠٦/٨ ،ومسلم ١٨٠/١ وانظر الجامع الصغير ١١٣/١ والدرالمنثور ٩٤/٣ ، والوسائل فى مسامرة الأوائل ٦.

فلو كان النبي رسولا لما صح كون نوح أول الرسل

وقبله آدم أول الأنبياء)وغيره من الأنبياء كثير .

- وقال صلى الله عليه وسلم : " إن الرسالة والنبوة

قد انقطعت " (١) فغاير صلى الله عليه وسلم بينهما .

فهذه دلائل ظاهرة على التفريق بين الرسول والنبي،

إلا أنه قد ذهب بعض أهل العلم إلى نفي الفرق

بين النبي والرسول ،قال القاضي عياض (أ) :" اختلف

العلماء هل النبي والرسول بمعنى أو بمعنيين ،فقيل:

هما سواء " قال : " وقيل هما مفترقان " قال:

---

(١) أخرجه أحمد ٢٦٧/٣ ،والترمذى ٤٦٢/٤ ،والحاكم ٣٩١/٤ وقال على شرط مسلم ووافقه الذهبى)وصحح الحديث السيوطى فى الجامع ٨٠/١ والألبانى فى صحيح الجامع ٦٧/٢ .

(أ) هو عياض بن موسى اليحصبى البستى ،إمام أهل الحديث فى وقته وعالم أهل المغرب وتولى قضاء سبتة وغرناطة توفى سنة ٥٤٤ هـ - انظر سير أعلام النبلاء ٢١٢/٢٠ ، وشذرات الذهب ١٣٨/٤ .

" والذى عليه الجماء الغفير أن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا ".(1)

واستدل نفاة الفرق بين النبي والرسول بقوله سبحانه:

" وما أرسلنا من قبلك من رسول ولانبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان" الحج٥٢ ، قالوا : قد أثبت لهما الإرسال معا فلايكون النبي إلا رسولا ولا الرسول إلا نبيا.(2) وغاية مافى هذا الاستدلال اثبات الإرسال لهما ، وهذا لايمنع المغايرة بينهما ، فكلا هما مرسل وهما مع ذلك متغايران ، إذ الرسول جمع بين النبوة والرسالة ، أما النبي فليس له إلا النبوة دون الرسالة ،وظاهر نص الآية التفريق بينهما بذكر الوصفين معا والعطف بالواو المقتضى التغاير.

---

(1) الشفا ٢٥٠/١ - ٢٥١.

(2) انظر الشفا ٥٠/١

وتفسير الرازى ٤٩/٢٣،

والمواهب اللدنية ١٩٢/١. وفيض القدير ١٥/١.

وقال أبونعيم[أ] : " ومن جعل النبوة من الإنباء التى هى الإخبار لم يفرق بين النبوة والرسالة "[1] وغاية مافى هذا المأخذ ، إثبات الإنباء لكل من النبي والرسول ، ولكنه لايمنع اختصاص الرسول بالإرسال مع مشاركته النبي فى الإنباء . والله أعلم.

هذا ،والمعتزلة على نفي الفرق بين النبي والرسول،[2] إلا أنه يبدو أنهم لم يجمعوا على ذلك فالزمخشري فرق بينهما فى الكشاف[3] وهو معتزلي .

---

(1) دلائل النبوة ٣٣.

(٢) انظر شرح الأصول الخمسة ٥٦٨ ،وتفسير الرازى ٤٩/٢٣ والتعريفات ١١٠.

(٣) انظر الكشاف ٣٧/٣.

- - - - - - - - - - - - - -

(أ) هو أحمد بن عبدالله بن أحمد الأصبهاني ،قال الذهبى فيه :"أحد الأعلام ،صدوق ،تكلم فيه بلاحجة". توفى سنة ٤٣٠.
انظر/ميزان الاعتدال ١١١/١ ، وطبقات الشافعية ٧/٣.

تعيين الفرق بين النبى والرسول :

فالصحيح الذى تدل عليه النصوص هو التفريق بين النبي والرسول ،ولكن ماهو الفرق بينهما ؟! وقد تعددت الأقوال فى تحقيق الفرق بينهما ماهو على التعيين (١) وحاصل تلك الأقوال أن أيًّا منها إنما يرجع إلى التفريق بينهما من أحد جهتين :-

(١) – إما من جهة صفة الإيحاء إلى النبي والرسول، ومنها قول من قال : من أتاه جبريل بالوحي عيانا وخاطبه مشافهة فهو الرسول)ومن أتاه الوحي إلهاما أومناما أوأخبره رسول فى عصره بنبوته فهو النبي ،وغيره منالأقوال ٠

---

(١) انظر هذه الأقوال فى المراجع الآتية : تفسيرالبغوى ٢٩٣/٣ ،والكشاف ٧٣/٣ ،وتفسير القرطبى ٨٠/١٢ ،وتفسير الرازى ٤٩/٢٣ ،والتعريفات ٢٣٩ ،وأصول الدين ٥٤ /, والصلاقوالبشر ١٣ ،وشرح الطحاوية ١٠٧ ،والمواهب اللدنية ١٩٢/١ ،ولوامع الأنوار البهية ٤٩/١ ،وفيض القدير ١ /١٥ – ١٦ وغيرها٠

(٢) - وإما من جهة صفة التبليغ ،ومنها قول من قال : الرسول هو الذى يبلغ شريعة جديدة والنبي يبلغ شريعة من قبله ، ونحوه من الأقوال . ولايخلو أي منها من مأخذ يرد عليه، فالنصوص دالة على أن كلا من النبي والرسول يوحى الله إليه بأمر ونهى وخبر، وأن كلا منهما مأمور بتبليغ هذا الوحي سواء كان وحيا بشريعة جديدة أم لا ، ولذلك فإن الفرق الموافق لدلالة النصوص هو الذى قرره وشرحه واستدل له شيخ الاسلام ابن تيمية فى كتاب النبوات[1] وحاصله :

أن النبي من أوحى إليه بأمر ونهي وخبر، وأُمر بتبليغه لقوم يؤمنون به ويعرفون أن ماجاء به حق وأنه من الله ، كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقبلون مايبلغه العلماء عن الرسول ،فمهمة الأنبياء كمهمة العلماء.

---

(١) انظر النبوات ٢٢٥ - ٢٥٧.

أما الرسول فهو من أوحي إليه وأرسل إلى مخالفين كفار لايعرفون ماجاء به، فيدعوهم إلى توحيد الله ويكذبونه، وتقع بينه وبينهمم نزاع، وقد يكون له أتباع منهم وقد لايكون.

تنبيه

ثم كل من قال بالتفريق بين النبى والرسول يقول: كل رسول نبى وليس كل نبى رسول ولايكون الرسول إلا نبيا، إلا ماكان من العز بن عبدالسلام، فقد نقل عنه الفيروز أبادى (أ) فى كتاب " الصلات والبشر فى

(أ) هو محمد بن يعقوب الشيرازى، صاحب القاموس، إمام اللغة، اشتهر حتى كان مرجعا فى اللغة والحديث والتفسير، ت ٨١٧.

انظر مفتاح السعادة ١/١١٧.

انظر الأعلام ٧/١٤٦ - ١٤٧.

(1)
الصلاة على خير البشر" قوله في قواعده : " ماكل رسول نبي ولاكل نبي رسول " وأرتضى الفيروز آبادى ذلك وشرحه بما ملخصه : أن من أوحي إليه بوحي اختص به واقتصر عليه وحرم على غيره فهو النبي، فإن أُمر بتبليغه لغيره إما طائفة مخصوصة كسائر الأنبياء وإما لعامة الناس فهو الرسول ، فإن أُمر بالتبليغ ولم يخص في نفسه بحكم مع التبليغ فهو رسول لانبي .

قلت : فهذا قول بإمكان رسالة بلا نبوة وهذا عجيب ، ولايحتج بقول حتى يحتج له بحجة ظاهرة من الشرع ، ومامن رسول على سائر أحواله سواء اختص بحكم في نفسه أم لا، إلاوهو مختص من بين سائر الناس بالانبياء من الله والإنباء عنه سبحانه وتعالى ،وتلك هي النبوة إذ ليست النبوة اختصاص النبي بحكم في نفسه حرم على غيره .

---

(1) ص ١٤ – ١٥ وقدتطلبت كلام العز في قواعد الاحكام المطبوع فلم أجده فلعله في القواعد الكبرى الذى اختصره في الصغرى كمافي طبقات الشافعية ١٠٣/٥ وانظر الاعلام ٢١/٤٠ ولكن انظر قواعد الاحكام ص ٢٣٧ فانه يفهم من كلامه فيه مانقله الفيروز آبادى .

المسألة الثالثة : صفة الإيمان الواجب على العبد بالأنبياء:

الإيمان بالأنبياء ركن من أركان الإيمان ، قال سبحانه : " آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله " - البقرة ٢٨٥ - وفي حديث جبريل المشهور لما سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الإيمان قال - صلى الله عليه وسلم - :" الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر".(١)

والإيمان بالأنبياء هو الإيمان بما ورد فيهم وعنهم في كتاب الله وصحيح حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إجمالا فيما أجمل وتفصيلا فيما فصل ،وإليك أمثلة مما ورد في شأن الأنبياء إجمالا:

---

(١) أخرجه الستة : صحيح البخاري مع الفتح ١١٤/١ ، ٥١٣/٨، وصحيح مسلم ٤٠/١ ، وسنن الترمذي ٨/٥ ،وسنن أبي داود ٢٢٣/٤ ،وسنن ابن ماجه ٢٥/١، وسنن النسائي ١٠١/٨.

١ - بين سبحانه أنه بعث أنبياء ورسلا وأخبر أنه قص بعضهم فى كتابه ولم يقصص بعضا ، قال سبحانه :" كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين " البقرة ٢١٣ - وقال سبحانه :" وكم أرسلنا من نبي فى الأولين " الزخرف ٦ - ،وقال سبحانه :" ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك " النساء ١٦٤ - ،وقال سبحانه : " ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليكم " - غافر ٧٨ -.

٢ - بين سبحانه أنه فضل بعض الرسل والأنبياء على بعض ،قال جل شأنه :" تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض " - البقرة ٢٥٣ - ،وقال تعالى :" ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض " الأسراء ٥٥ -.

٣ - بين سبحانه أنه بعث كلا منهم بلسان قومه ، قال تعالى : " وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه لنبين لهم "- ابراهيم ٤ -.

٤ ـ بين سبحانه أنهم بعثوا بملة واحدة ،قال جل وعز :" وماأرسلنا من قبلك من رسول إلانوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون " الأنبياء ٢٥ ـ وقال جل وعلا :" ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت " ـ النحل ٣٦ ـ.

٥ ـ بين سبحانه أنه لم يرسل إلا رجالا يوحى إليهم، فقال سبحانه :" وماأرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى " ـ يوسف ١٠٩ ـ ،وقال جل وعز : " وماأرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم" النحل ٤٣ ـ وقال جل وعلا :" وماأرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم " ـ الأنبياء ٧ ـ.

٦ ـ أخبر سبحانه أنه مامن نبي ولارسول إلا استهزأ به وكان له أعداء ،قال تعالى :" ومايأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون " ـ الزخرف ٧ ـ ، وقال عز وجل : " ياحسرة على العباد مايأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون " ـ يس ٣٠ ـ ،وقال سبحانه :

" ولقد كذبت رسل من قبلك " - الأنعام ٣٤ ، وقال جل وعلا :" وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين" - الفرقان ٣١ .

٧ - أمر سبحانه بالإيمان بهم على الإجمال دون تفريق ، قال سبحانه : " ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين " - البقرة ١٧٧. وقال تعالى :" فآمنوا بالله ورسله " - النساء ١٧١ ، وقال عز وجل :" آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله " البقرة ٢٨٥ - وقال سبحانه : " والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما " - النساء ١٥٢ - ،وقال تعالى :" إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون

أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا أليما " النساء ١٥١ .

٨ - أمر سبحانه بالإيمان بما أوتي النبيون على الإجمال دون تفريق بينهم ،قال سبحانه : " قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ... " إلى قوله " وما أوتي النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون" البقرة ١٣٦ - وقال تعالى :" قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون"آل عمران ٨٤ .

أما التفصيل ، فقد قص علينا سبحانه وتعالى عددا من أنبيائه ورسله فأخبرنا بأسمائهم وأحوالهم مع أممهم ومعجزاتهم وأخبارهم ،ومن أمثلة هذا التفصيل ماقصه سبحانه من خبر آدم عليه السلام وخلقه وإسجاد الملائكة له ثم إهباطه إلى الأرض

وسببه ، وكذا قصة موسى عليه السلا وولادته وربايته

فى بيت فرعون ،ثم خروجه من أرض قومه وسببه ،ثم نكاحه

ثم عودته ونبوته ورسالته ، ثم خبره مع فرعون وقومه

ونحو ذلك من أخباره ، وكذا قصة نوح قبله وبناءه

السفينة وخبر الطوفان ،وقد فصل سبحانه أسماء

عدد من أنبيائه فى كتابه فى نحو قوله سبحانه : " وتلك

حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ،نرفع درجات من

نشاء إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحاق ويعقوب

كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ،ومن ذريته داود

وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى

المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من

الصالحين. وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا

على العالمين ." الأنعام ٨٣ - ٨٦ . ونحو ذلك من التفاصيل

الواردة فى شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ،

المبحث الثاني : بعض أدلة التفاضل بين الأنبياء ووجوهه جملة :

التفاضل بين الأنبياء ثابت بأدلة الشرع ،

فمن الكتاب :

قوله سبحانه :" تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ،منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات " _ البقرة ٢٥٣.

وقال سبحانه :" ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا " _ الاسراء ٥٥ _ والآيتان نص في التفاضل بين الأنبياء .

وقال سبحانه : " ولقد آتينا داود وسليمان علما ، وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين " النمل ١٥ _ ففي قولهما " كثير" تنبيه إلى أن المفضل عليهما قليل،ووجه دلالة الآية: أنهما عليهما السلام جعلا تفضيل الله لهما على كثير من المؤمنين دون جميع المؤمنين مع كونهما

أفضل أهل زمانهما لأنهما أرادا بالبعض المستثنى من المؤمنين من ثبت له ماثبت لهم من النبوة فى الماضين كموسى وهارون ، فهو فى التفاضل بين الأنبياء ، قال ابن سعدى فى تفسيرالآية :" فحمدا الله على جعلهما من المؤمنين أهل السعادة وأنهما كانا من خواصهم"، قال :" ولاشك أن المؤمنين أربع درجات : الصالحون ،ثم فوقهم الشهداء ، ثم فوقهم الصديقون ،ثم فوقهم الأنبياء ،وداود وسليمان من خواص الرسل وإن كانا دون درجة أولى العزم الخمسة لكنهما من جملة الرسل الفضلاء الكرام الذين نوه الله بذكرهم ومدحهم فى كتابه مدحا عظيما فحمدا الله على بلوغ هذه المنزلة ".(1) وأول مايدخل فى قولهما " فضلنا " تفضيلهما بالنبوة وهى أفضل مراتب المؤمنين فلايكون من يفضلهما إلا من الأنبياء.

---

(1) تيسير الكريم الرحمن ٥/٢٧٣.

ومن السنة :

مارواه أبوهريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب وأحلت لى الغنائم وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون "(1).

فقوله صلى الله عليه وسلم " فضلت على الأنبيا " دليل وقوع التفاضل بينهم.

وفى حديث المعراج دليل على تفاضل الأنبياء ، فإنه عليه الصلاة والسلام مر بأنبياء اختلفت الروايات فى تعيين منازلهم فى السموات فمر على آدم وعيسى ويحيى وإدريس ويوسف وهارون وإبراهيم وموسى كل فى سماء ، متفاضلون ، ويدل على أن تفاوتهم فى منازلهم من السموات الوارد فى حديث المعراج هو من

---

(1) أخرجه مسلم فى صحيحه 1/371.

التفاضل بينهم ماجاء فى رواية عند البخارى:

" وموسى فى السابعة بفضل كلام الله ،فقال موسى:

رب لم أظن أن ترفع علي أحدا،ثم علا (يعنى جبريل)

به (يعنى بالنبى صلى الله عليه وسلم) فوق ذلك بما

لايعلمه إلا الله "[1].

والأمة مجمعة على أن بعض الأنبياء أفضل من

بعض[2]. وقد قال الخازن[أ] فى قوله سبحانه : " تلك

الرسل فضلنا بعضهم على بعض" : " فيه دليل على

زوال الشبهة لمن أوجب التسوية بين الأنبياء فى الفضيلة

لاستوائهم فى القيام بالرسالة"[3]، ولم أجد من قال

---

(١) صحيح البخارى مع الفتح ٤٧٨/١٣ ،وانظر روايات الحديث فيه فى ٤٥٨/١ و ٣٠٢/٦ ،٣٧٤، ٤٦٧، و٢٠١/٧،وفى صحيح مسلم١٤٥/١ ومابعدها.

(٢) تفسير الرازى ١٩٥/٦ ، وتفسير الخازن ٢٦٥/١ .

(٤) تفسير الخازن ٢٦٥/١.

(أ) هوعلى بن محمدبن ابراهيم الشيحى ،من علماء التفسيروالحديث ،وأحد فقهاء الشافعية ،كان خازن الكتب بالمدرسة السميساطية بدمشق ،توفى٧٤١هـ انظر الدرر الكامنة ٩٧/٣ ،والأعلام ٣/٥.

بعدم التفاضل بين الأنبياء إلا ماقاله البغدادي:

" وزعم ضرار[أ] أنه لم يكن بعض الأنبياء أفضل من بعض"[1] إلا أنه قال في موضع آخر :" كان ضرار بن عمرو يقول : لايجوز تفضيل بعضهم على بعض بعينه"[2] وليس هذا نفيا للتفاضل بل للتعيين، ونسب القسطلاني[ب] نفي تفاضل الأنبياء إلى مذهب المعتزلة[3]، ولم أجده فيما بين يدي من كتب المقالات وكتب المعتزلة غير المذكور عن ضرار، ورأيت الزمخشري نص على تفاضل الأنبياء في تفسيره آيتي البقرة والإسراء من الكشاف وهو

---

(1) أصول الدين ص ١٦٥.

(2) أصول الدين ص ٢٩٧.

(3) المواهب اللدنية ٤٢/٢.

(أ) هو ضرار بن عمرو الغطفاني، معتزلي جلد، له مقالات خبيثة - انظر ميزان الاعتدال ٣٢٨/٢ ولسان الميزان ٢٠٣/٣.

(ب) هو أحمد بن محمد بن أبي بكر المصري، من علماء الحديث له شرح للصحيحين، وكتب في القراءات والتجويد والسيرة.، ت ٩٢٣هـ. انظر الأعلام ٢٣٢/١ ومعجم المؤلفين ٨٥/٢.

معتزلي ،فالله أعلم ، وهم مظنة أن يقولوا ذلك ، وقولهم غير قادح فىالإجماع فإنه قول من لايعتد بقوله ولايلتفت إليه .

وجوه التفاضل بين الأنبياء :

آسباب التفضيل بين الأنبياء لايعلمها إلا الذى فاضل بينهم سبحانه وتعالى إلا أنه نبهنا سبحانه فى كتابه وعلى لسان رسوله إلى شىء من وجوه التفاضل بينهم .

فأولا : عرفنا من النصوص السابقة أن معنى التفاضل بينهم فى الجملة هو اختصاص بعضهم بما ليس للآخر منهم ،فهم اشتركوا فى صفة خير لاتخلو من أحدهم تساووا فيها فُضلوا بها على سائر البشر – كما سيأتى بيانه فى الفصل الثانى – ووقع التفاضل بينهم فى الأمور الزائدة على المشترك

بينهم ،فهم اشتركوا فى النبوة ثم تباينوا فى

الفضائل بما منحهم الله منها ، هذا جملة ،وقد

ورد فى النصوص السابقة بيان بعض المتفاضلين والوجوه

التى فضلوا بها ، فبعد أن ذكر سبحانه تفاضلهم

على وجه الإجمال فى قوله " تلك الرسل فضلنا

بعضهم على بعض" وقوله :" ولقد فضلنا بعض النبيين

على بعض " قال سبحانه فى الآية الأولى على وجه الالتفات

بتخصيص بعض الفضائل بالذكر :" منهم من كلم الله ،

ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم

البينات وأيدناه بروح القدس " وقال فى الآية

الثانية :" وآتينا داود زبورا ".

أما قوله " منهم من كلم الله " فالمراد به موسى

عليه السلام إذ هو المشتهر بين الأنبياء بالتكليم وقد قال

له سبحانه :" ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى

وبكلامى " الأعراف ١٤٤ ــ وقال تعالى :" وكلم الله موسى تكليما "

النساء ١٦٤ ــ.

وأما قوله " ورفع بعضهم درجات " فهو محمد

- صلى الله عليه وسلم - كما سيأتي بيانه. ووجوه التفاضل

كما بينتها النصوص السابقة :

* التفضيل بالتخصيص بمنقبة، كتكليم الله موسى، فمن خص

بمنقبة عظيمة من الأنبياء أفضل ممن لم يخص .

* والتفضيل بالبينات والآيات كما قال سبحانه :" وآتينا

عيسى ابن مريم البينات " وقال صلى الله عليه وسلم:

" أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب " ، فمن كان

من الأنبياء أعظم آيات وأكثر معجزات كان أفضل .

* والتفضيل بالتأييد بالملائكة ، كما قال سبحانه

في عيسى :" وأيدناه بروح القدس " وروح القدس هو

جبريل عليه السلام في أظهر الأقوال(1)، فمن كان

تأييد الله له من الأنبياء بالملائكة أكثر وأظهر

كان أفضل ، وقال ابن سعدي في الآية :" وأيده

---

(1) انظر تفسير الطبري 320/1 ،وتفسير القرطبي 24/2 ،وتفسير ابن كثير 123/1 ،وروح المعاني 317/1 ،وأضواء البيان 69/1 وغيرها .

بروح القدس أى بروح الإيمان فجعل روحانيته فائقة

روحانية غيره فحصل له بذلك القوة والتأييد وإن

كان أصل التأييد بهذه الروح عاما لكل مؤمن

بحسب إيمانه كما قال " وأيدهم بروح منه " لكن

مالعيسى أعظم مما لغيره لهذا خصه بالذكر"(١)

وعليه فكل من كان تأييد الله له من الأنبياء

بالإيمان أعظم وأقوى كان أفضل .

* والتفضيل بالشرائع كما قال - صلى الله عليه وسلم -

" وأحلت لى الغنائم ،وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا "

وكما قال سبحانه عن - محمد صلى الله عليه وسلم - فى

شأن اليهود :" ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى

كانت عليهم " -الأعراف ١٥٧ - وكما حكى الله قول عيسى

لليهود :" ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم"آل عمران

٥٠ - فكل من أوتي شريعة جديدة من الأنبياء فهو أفضل

---

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/١٥٠.

ثم كل من كانت شريعته أتم وأيسر فهو أفضل .

* والتفضيل بإنزال كتاب ، كما قال سبحانه :"وآتينا داود زبورا " فمن أنزل عليه كتاب أفضل ممن لم ينزل عليه كتاب ، ثم التفضيل بما في الكتاب من الشرائع ونحوها بين من أنزل إليهم كتاب .

* التفضيل بالدرجات كما قال سبحانه :" ورفع بعضهم درجات " يعني مراتب متباعدة ووجوه متعددة.(1)

* التفضيل بالمراتب في السماء كما في حديث المعراج.

* التفضيل بكثرة الأتباع كما في حديث الصحيحين أن النبي - صلى الله عليه وسلم - عرضت عليه الأمم فرأى النبي وليس معه أحد والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي ومعه الخمسة والنبي ومعه الرهط والنفر والنبي ومعه العشرة والنبي ومعه السواد العظيم.(2)

---

(1) روح المعاني ٣/٢

(2) انظر صحيح البخاري مع الفتح ١١/٤٠٥ وصحيح مسلم ١/١٩٩.

قال القاضي عياض في آية البقرة وآية الإسراء:

" قال بعض أهل العلم :والتفضيل المراد لهم هنا في الدنيا وذلك بثلاثة أحوال : أن تكون آيته ومعجزاته أبهر وأشهر أوتكون أمته أزكى وأكثر أويكون في ذاته أفضل وأظهر ، وفضله في ذاته راجع إلى ماخصه الله به من كرامته واختصاصه من كلام أوخلة أورؤية أوماشاء الله من ألطافه وتحف ولايته واختصاصه"(1).

وقال ابن تيمية رحمه الله :" الرسول الذي ينشأ بين أهل الكفر الذين لانبوة لهم يكون أكمل من غيره من جهة تأييد الله له بالعلم والهدى وبالنصر والقهر كما كان نوح وإبراهيم"(2).

فهذه جملة من وجوه تفاضل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

---

(1) الشفا 227/1 – 228

(2) الفتاوى 131/15.

المبحث الثالث : التفاضل بينهم على التفضيل وفيه مسائل:

المسألة الأولى : التفاضل بين الأنبياء والرسل :

تقرر لدينا فى المسألة الثانية من المبحث الأول أن بين النبي والرسول فرق لدلالة النصوص على ذلك .

وهذه المسألة ثمرة لتلك ، فإن التفاضل إنما يكون فى الفوارق بين المتفاضلين لا فيما تساووا فيه من كل وجه .

وفى التفاضل بين الأنبياء والرسل اتفاق على أن الرسول أفضل من النبي يقول ابن كثير :

" لاخلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء "[1] وقال السفاريني:

" الرسول أفضل من النبى إجماعا لتميزه بالرسالة التى هى أفضل من النبوة "[2].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٧/٢

(٢) لوامع الأنوار البهية ٥٠/١

وقد بدأ الله بذكر الرسول قبل النبي في

قوله " وما أرسلنا من قبلك من رسول ولانبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان " الحج ٥٢ ، وقدم سبحانه الوصف بالرسالة على الوصف بالنبوة فى قوله

فى كل من موسى واسماعيل عليهما السلام: " إنه كان رسولا

نبيا " مريم ٥١ ،٥٤ ـ فلعل فى هذا دلالة على فضل

الرسول على النبي ، إذ الترتيب كان قاضيا بتقديم

النبي على الرسول،لأن النبوة تكون أولا ثم الرسالة، ففى

تقديمها على النبوة إفادة معنى . ودلل الماوردى (أ) على

فضل الرسول فقال " الرسول أعلى منزلة من النبي ولذلك

سميت الملائكة رسلا ولم يسموا أنبياء " (١) ولكن هذا

الاستدلال على القول بتفضيل الملائكة على الأنبياء وهو

مرجوح.

---

(١) أعلام النبوة ص ٣٨.

(أ) هو على بن محمد بن حبيب ، أبوالحسن الماوردى ،من قضاة عصره البارزين ،ولى القضاء فى بلدان كثيرة ثم جعل " قاضى القضاة " ،كان يميل الى مذهب الاعتزال فى مسائل،توفى ٤٥٠هـ.

انظر طبقات الشافعية ٣/٣٠٣ ـ وشذرات الذهب ٣/٢٨٥ ـ ٢٨٦

ومن أوجه فضل الرسل على الأنبياء :

* أن الرسالة في أصلها قدر زائد على النبوة فهي نبوة وزيادة ،فالرسل ساووا الأنبياء في النبوة وفضلوا عليهم بالرسالة - صلوات الله وسلامه على الجميع - ، يقول القرطبي :" معلوم أن من أرسل أفضل ممن لم يرسل، فإن من أرسل فضل على غيره بالرسالة واستووا في النبوة ".

قال :" إلى ما يلقاه الرسل من تكذيب أممهم وقتلهم إياهم وهذا مما لا خفاء فيه " (1) وفي قول القرطبي هذا وجه آخر من وجوه فضل الرسول على النبي . وذكر ابن القيم طبقات المكلفين فجعل الطبقة الأولى مرتبة أولي العزم من الرسل ثم الطبقة الثانية من عداهم من الرسل ثم قال :" الطبقة الثالثة الذين لم يرسلوا إلى أممهم وإنما كانت لهم النبوة دون الرسالة فاختصوا

---

(1) تفسير القرطبي ٣/٢٦٣.

بإيحاء الله إليهم وإرساله ملائكته إليهم ،واختصت الرسل عنهم بإرسالهم إلى الأمة بدعوتهم إلى الله بشريعته وأمره واشتركوا فى الوحي ونزول الملائكة عليهم".[1]

* ومن وجوه فضل الرسول على النبي: أن الرسالة تثمر هداية الكافرين وإزالة الشرك، أما النبوة فتثمر توجيه المؤمنين وصيانة أحكام الله فيهم ، وهذا مستفاد مما ذكر من الفرق بين النبي والرسول أن النبي يبعث فى مؤمنين والرسول فى كافرين ، ولاشك أن هداية الكافر خير من تعليم المؤمن وفى كل خير، قال - صلى الله عليه وسلم - لعلي رضى الله عنه لما أمره بدعوة أهل خيبر إلى الإسلام :" فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم ".[2]

---

(١) طريق الهجرتين ص ٣٥٠.

(٢) أخرجه البخاري ، الصحيح مع الفتح ٤٧٦/٧ ومسلم ١٨٧٢/٤.

وهذا الإجماع المذكور على فضل الرسول على النبي واقع خلافا للعز ابن عبدالسلام كما يقول السفاريني (1)

فإن العز قال : " إن قيل أيهما أفضل النبوة أم الإرسال ؟ فنقول النبوة أفضل لأن النبوة إخبار عمايستحقه الرب من صفات الجمال ونعوت الكمال،وهي متعلقة بالله من طرفيها ، والإرسال دونها أمر بالإبلاغ إلى العباد،فهو متعلق بالله منأحد طرفيه وبالعباد منالطرف الآخر ، ولاشك أن مايتعلق من طرفيه أفضل مما يتعلق به منأحد طرفيه ،والنبوة سابقةعلى الإرسال فإن قول الله لموسى :(إني أنا الله رب العالمين) مقدم على قوله :(اذهب إلى فرعون إنه طغى) فجميع ماتحدث به قبل قوله :(اذهب إلى فرعون) نبوة ، وماأمره بعد ذلك من التبليغ فهو إرسال ، والحاصل أنالنبوة راجعة إلى التعريف بالإله وبما يجب له والإرسال إلى أمر الرسول

---

(1) لوامع الأنوارالبهية 1/50، 2/300.

بأن يبلغ عنه إلى عباده أو إلى بعض عباده ما أوجبه عليهم من معرفته وطاعته واجتناب معصيته ، وكذلك الرسول عليه السلام لما قال له جبريل :(اقرأ باسم ربك الذى خلق) إلى قوله :(إلى ربك الرجعى) كان هذا نبوة ، وكان ابتداء الرسالة حين جاء جبريل بيا أيها المدثر قم فأنذر)(1).

ويظهر من كلام العز بن عبدالسلام حصره سبب تفضيله النبي على الرسول فى أمرين :-

الأول : أن النبوة متعلقة بالله من طرفيها ،والإرسال متعلق بالله من أحد طرفيه وبالعباد من الطرف الآخر.

الثانى : أن النبوة سابقة على الإرسال .

---

(1) قواعد الأحكام ص٢٣٧.

أما الأولى فإنه لم يعين الطرفين ماهما على التحديد[1] إلا أنه بنى ذلك على تفريقه بين النبوة والرسالة بأن النبوة تعريف الله نبيه به سبحانه وبما يجب له ومثاله فى كلامه قول الله لموسى عليه السلا " إنى أنا الله رب العالمين" وقول جبريل للنبي - صلى الله عليه وسلم - " اقرأ باسم ربك الذى خلق " والرسالة الأمر بالتبليغ، ومثاله

---

(١) ولعل مقصوده فيما أفهمه من بعض كلامه أن وحى النبوة مقصور على التعريف بالله وصفاته ، فلا يبلغ النبي العباد إلا ذلك وهذان هما الطرفان وحى متعلق بالله وصفاته لاغير، وتبليغ للعباد متعلق بالله وصفاته لاغير والرسالة فيها أمر بتشريع وعبادات يقوم بها العباد فتعلقت بالعباد من جهة التبليغ ، وتعلقت بالأخذ عن الله من جهة الوحي، لعله أن يكون المقصود ذلك، فإن يكنه فهو فى الفرق بين النبي والرسول، وهو غير مسلم فإن فى وحي النبوة أمر بأحكام وفى وحي الرسالة تعريف بالله وصفاته الا أنه يمنع كون ذلك مقصودا أن فى كلامه مايفهم منه أن النبي لايؤمر بالتبليغ والرسول يؤمر بالتبليغ .

قوله سبحانه لموسى عليه السلام " اذهب إلى فرعون " وقوله للنبي صلى الله عليه وسلم " قم فأنذر " ، فكأن النبوة على هذا وحي خاص بالنبي لايبلغه لغيره ، والرسول من أمر بالتبليغ فرجع إلى قول من جعل الفرق بينهما أن النبي من أوحى إليه بوحي ولم يؤمر بتبليغه ، والرسول من أوحي إليه بوحي وأمر بتبليغه ، وهو غير مسلم فإن الإرسال ثابت لهما كما تقدم بيانه فى مسألة الفرق ، وثبوت الإرسال لهما يجعل النبوة متعلقة بالله وبالعباد كالرسالة فيكون السبب المذكور فى تفضيل النبي على الرسول منتقضا .

وأما الثاني .. فإن سبق النبوة دليل على فضل الرسالة عليها لأنه لايبلغ مرتبة الرسالة إلا من كان نبيا فهى مرتبة شريفة تفضل مرتبة النبوة، فلا يبلغ مبلغ الرسول إلا من كان نبيا أولا .

ونبوة الرسول تكون إعدادا له للقيام بأعباء الرسالة - وهذا مفهوم من كلام العز - فدل على فضل الرسالة على النبوة .

وقد فهم السفارينى من كلام العز بن عبدالسلام تخصيصه فضل النبوة على الرسالة فى حال اجتماعهما فى شخص واحد لامطلقا قال السفارينى :" الرسول أفضل من النبي إجماعا ، لتميزه بالرسالة التى هى أفضل من النبوة، على الأصح خلافا لابن عبدالسلام" إلى أن قال :" ثم إن محل الخلاف فيهما مع اتحاد محلهما وقيامهما معا بشخص واحد أما مع تعدد

المحل فلاخلاف فى أفضلية الرسالة على النبوة "(1)

وقال فى موضع آخر :" الرسالة أفضل من النبوة ولو فى شخص واحد ، خلافا للعز ابن عبدالسلام فى قوله أن نبوة النبي أفضل من رسالته لقصرها على الحق تعالى، إذ هى الإيحاء بما يتعلق بالبارى جل شانه من غير ارتباط له بالخلق، أمامع تعدد المحل فلاخلاف فى أفضلية الرسالة على النبوة ضرورة جمع الرسالة لها مع زيادة "قال :" على أن الصحيح المعتمد أفضلية الرسالة مطلقا "(2).

وليس فى كلام العز الذى وجدته ونقلته إلا إطلاق تفضيل النبوة على الرسالة لا كما يذكر السفارينى إلا أن يكون وقف على غير ماوقفت عليه .

وفى حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه فى

---

(1)لوامع الأنوار ١/٥٠.

(2)لوامع الأنوار ٢/٣٠٠ - ٣٠١

تعليم النبي - صلى الله عليه وسلم - له دعاء يقوله

قبل النوم وفيه :" اللهم آمنت بكتابك الذى أنزلت

ونبيك الذى أرسلت " قال عبادة " فرددتها على

النبى - صلى الله عليه وسلم - فلما بلغت : اللهم

آمنت بكتابك الذى أنزلت ،قلت : ورسولك ،قال:

لا ، ونبيك الذى أرسلت " (١) ذكر ابن حجر وجوها

فى تعليل نهي النبى صلى الله عليه وسلم عبادة من قول

ورسولك الذى أرسلت ليقول ونبيك الذى أرسلت ،وكان

مما قاله :" أو لأن لفظ النبي أمدح من لفظ الرسول

لأنه مشترك فى الاطلاق على كل من أرسل بخلاف لفظ

النبي فإنه لا اشتراك فيه عرفا " (٢) وهذا فى عرف اللغة

لا فى عرف الشرع بل وصف الرسالة فى عرف الشرع

يستلزم وصف النبوة ، فالصحيح المتقرر أن الرسالة أفضل من

النبوة ،والرسول أفضل من النبي فلفظ الرسول أمدح من لفظ

النبي ،والله أعلم .

---

(١) أخرجه البخارى انظر صحيحة مع الفتح ٣٥٧/١ ومسلم فى الصحيح ٢٠٨٢/٤

(٢) فتح البارى ٣٥٨/١ .

المسألة الثانية : التفاضل بين الرسل :

تقرر فى المسألة السابقة كون الرسل أفضل من الأنبياء ،ونبين فى هذه المسألة أن الرسل يتفاضلون فيما بينهم أيضا .

قال سبحانه وتعالى :" تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس " البقرة ٢٥٣ - فهذا نص فى التفاضل بين الرسل خاصة من جملة الأنبياء ،فقد ذكرهم الله عز وجل نصا فقال :" تلك الرسل " ، ثم ذكر سبحانه رسلا مبينا أوجه فضلهم .

وقال سبحانه :" ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض " الاسراء ٥٥ - والرسل داخلون فى هذا الإطلاق وهو إطلاق يفهم منه تفاضل الرسل فيما بينهم فإنه غير مانع من أن يكون الرسل من الأنبياء متفاضلون فيما بينهم .

وأفضل الرسل أولو العزم منهم،قال سبحانه وتعالى آمرا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم - وهو أفضل الخلق :" فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولاتستعجل لهم " الأحقاف ٣٦.

فامتدحهم الله عز وجل بالعزم وخصهم بالذكر من بين رسله، وأمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم - وقد فضله على جميع خلقه أن يقتدى بهم.

يقول ابن تيمية رحمه الله :" أفضل أولياء الله هم أنبياؤه، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ،وأفضل المرسلين أولو العزم "(١) وقال ابن كثير : "لاخلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء وأن أولى العزم منهم أفضلهم"(٢).

ومعنى العزم الذى امتدحهم الله وفضلهم به :الحزم والصبر، فإن العزم فى أصل اللغة دال على الصريمة والقطع واجتماع القلب على الشئ(٣)،وفى كتاب الله مايدل على تفسير العزم بالصبر دلالة ظاهرة قال سبحانه :" وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور " آل عمران ١٨٦ ، وقال سبحانه :

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٧.

(٢) التفسير ٣/٤٧.

(٣) انظر معجم مقاييس اللغة ٤/٣٠٩ وتفسير الطبرى ١٦/١٦٠.

حاكيا قول لقمان لابنه :" واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور " لقمان ١٧ ، وقال سبحانه :" ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور " الشورى ٤٣ ،وفى ذات الآية المذكور فيها أولو العزم بهذه الصفة ذكر الصبر فقد أمر الله فيها نبيه بالصبر اقتداء بأولى العزم فى صبرهم ٠

والمقصود بالصبر، الصبر على أعباء الرسالة وأمانة أدائها وتحمل مشاقها،والصبر على أذى المرسل إليهم،مع الحزم فى الدعوة وأداء الرسالة ،ونحوه من المعانى ٠

وأولو العزم هم بعض الرسل لا كلهم كما نقل عن بعض السلف ممن حَمَلَ " مِنْ " فى الآية على التجنيس لا التبعيض (١) ، فإن خروج بعض الرسل من أن يكونوا معنيين فى الآية ثابت فى كتاب الله ،فالله عز وجل أمر نبيه فى هذه الآية بالاقتداء بأولى العزم ، ونهاه فى آية أخرى عن أن يكون كصاحب الحوت يونس عليه السلام إذ قال سبحانه :

---

(١) انظر تفسير الطبرى ٢٤/٢٦ ،وتفسير البغوى ١٧٦/٤ ،وزاد المسير ٣٩٢/٧ ،وتفسير القرطبى ٢٢٠/١٦ ،وتفسير ابن كثير ١٧٣/٤٠

" ولاتكن كصاحب الحوت " القلم٤٨ ويونس عليه السلام رسول

قال سبحانه :" وإن يونس لمن المرسلين " الصفات ١٣٩.

وقال :" وأرسلناه إلى مائة ألف أويزيدون " الصفات ١٤٧ ،

وقيل:أولوالعزم هم كل الأنبياء عدا يونس عليه السلام (١) وهو مرجوح

بأمرين ورد الدليل بهما :

الأول : أن الآية نص فى أنهم من الرسل لا من الأنبياء غير الرسل .

الثاني : أن الله نفى العزم عن آدم عليه السلام وهو نبي ولم يستثنه أصحاب هذا القول قال سبحانه : " ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما "طه ١١٥.

ومامن شك أن الله لم يرسل رسولا إلا وهو ذوعزم وجد فى طاعة الله فيما ائتمنه عليه،ولكن خص هؤلاء بالذكر والتفضيل لأنهم أعظم وأكمل عزما من غيرهم ،والله أعلم.

---

(١) انظر تفسير البغوى ١٧٦/٤ ،وزاد المسير ٣٩٣/٧ ،وتفسيرالقرطبي ٢٢٠/١٦.

مطلب فى تعيين أولى العزم :

وقد اختلفت الأقوال فى تعيين أولى العزم من هم،[1]

ويمكن تصنيفها إلى قسمين :

الأول : قول من جعل التعيين بالصفة لا بالتسمية ،

كقول من قال: إنهم الذين امتحنوا فى ذات الله فى الدنيا بالمحن فلم تزدهم المحن إلا جدا فى أمر الله .[2]

وقول من قال: إنهم الذين أمروا بالقتال فأظهروا المكاشفة وجاهدوا الكفرة ، وهو مروي عن الشعبي ومجاهد والسدي وغيرهم[3] ، وقول من قال: إنهم الذين لم تصبهم فتنة من الأنبياء ، وهو مروى عن الحسن[4]،

وقول من قال: إنهم العرب من الأنبياء ، قاله مجاهد والشعبي .[5] ولم تُذكر للقائلين بما تقدم أدلة لما قالوه .

---

(١) انظرها فى تفسير الطبرى ٢٤/٢٦ ، وتفسير البغوى ١٧٦/٤ ، وزاد المسير ٣٩٢/٧ ، وتفسير القرطبى ٢٢٠/١٦ والدر المنثور ٤٥/٦ .

(٢) انظر تفسير الطبرى ٢٤/٢٦ .

(٣) انظر تفسير البغوى ١٧٦/٤ ، وتفسير القرطبى ٢٢٠/١٦ وزاد المسير ٣٩٢/٧ .

(٤) انظر زاد المسير ٣٩٢/٧ .

(٥) انظر تفسير البغوى ١٧٦/٤ ، وتفسير القرطبى ٢٢٠/١٦ وزاد المسير ٣٩٢/٧

والثاني : قول من جعل التعيين بالتسمية ، وهي أقوال ،

فقيل: هم الثمانية عشر المذكورون في سورة الأنعام - الآيات ٨٤ - ٨٦ - لقوله سبحانه في عقب ذكرهم "أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده " الأنعام ٩٠، وهم ابراهيم واسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكرياء ويحيى وعيسى وإلياس واسماعيل واليسع ويونس ولوط[1] . وهو قول يضعفه أمران :-

أحداهما أن فيهم أنبياء ليسوا برسل كاسحاق ويعقوب وزكريا ويحيى، وأولو العزم رسل .

ثانيهما أنهم لم يخصوا تعيينا في أمره سبحانه نبيه بالاقتداء بهم ،فقد قال سبحانه بعد أن ذكرهم وقبل الأمر بالاقتداء " ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتنبناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم " وقال كذلك :" أولئك

---

(١) انظر تفسير البغوي ١٧٦/٤، وتفسير القرطبي ٢٢٠/١٦ ، وزاد المسير ٣٩٢/٧

الذين آتيناهم الكتاب والحكمة والنبوة " ،فهو أمر بالاقتداء بهدى الأنبياء جملة،قال ابن كثير فى قوله تعالى" أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ":"أولئك: يعنى الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه "(1).

وقيل:هم ستة : نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام ،وهم المذكورون على النسق فى سورتي الأعراف والشعراء (2).

وقيل غير ذلك (3)، ولكن الأشهر المتداول فى كتب العلم أنهم خمسة وهم : محمد ،ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ،وهم الخمسة المذكورون نصا فى قوله سبحانه :" وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا " الأحزاب ٧ ،وفى قوله سبحانه :" شرع لكم

---

(1) التفسير ١٥٦/٢ ،وزاد المسير ٣٩٢/٧.

(2) انظر تفسير البغوى ١٧٦/٤ ،وتفسير القرطبى ٢٢٠/١٦

(3) انظر المراجع السابقة والدر المنثور ٤٥/٦.

من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم إليه " الشورى ١٣ - فقد خصهم الله عز وجل بالذكر فى هاتين الأيتين من بين الأنبياء، وهو تنبيه الى فضلهم على سائر الأنبياء، وقد خصهم سبحانه بالذكر فى ذكره أعظم الأمور وأفضلها وأغلظها، وهو الميثاق الذى قال فيه " وأخذنا منهم ميثاقا غليظا "[1] والوصايا التى شرعها لخلقه، وذلك ما أخذ على جميع النبيين وبُعث به جميعُ النبيين، وهو العهد الذى بَينَ الله وخلقه، وهو إقامة دين الله وعدم التفرق فيه وإسلام الوجه له سبحانه والدعوة إلى ذلك والمجاهدة فيه والموالاة فيه والبراءة فيه ، وهؤلاء الخمسة صلوات الله وسلامه عليهم أكمل وأعظم من قام بهذا الميثاق ، ولذا خُصوا بالذكر، وهم الذين تفزع الأمم إليهم فى الموقف يوم القيامة بعد أبيهم آدم فيتراجعونها حتى تنتهى إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - كما فى حديث الشفاعة[1] .

---

(١) انظره فى صحيح البخارى مع الفتح ٣٩٥/٨ ،وصحيح مسلم ٦٣/١.

والقول بأنهم هم أولو العزم، مروي عن ابن عباس وغيره من السلف رضوان الله عليهم ،وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال :" خيار ولد آدم خمسة نوح وإبراهيم وعيسى وموسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ،وخيرهم محمد - صلى الله عليه وسلم وصلى الله عليهم أجمعين وسلم "(١). قال أبوحاتم(أ) في آية الأحزاب :" وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم " : "أجمل النبيين ثم قال :" ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم " فأفردهم تفضيلا لهم على سائر الأنبياء "(٢) يقول ابن القيم في بيان طبقات المكلفين :" الطبقة الأولى وهي العليا على

---

(١) أخرجه البزار ،انظر كشف الأستار ١١٤/٣ وقال الهيثمي " رجاله رجال الصحيح " المجمع ٢٥٥/٨ ،وكذا أخرجه الحاكم وقال :" هذا حديث صحيح الاسناد وإن كان موقوفا على أبي هريرة " ووافقه الذهبي ،انظرالمستدرك مع التلخيص ٥٤٦/٢،وأخرجه الديلمي في الفردوس ٢٨٣/٢ ،وذكر السيوطي أن ابن عساكر أخرجه قال المناوي "في التاريخ" وصححه السيوطي - انظر الجامع الصغير ٨/٢ وفيض القدير ٤٧٠/٣.

(٢) كتاب النخل ص (٤٠)

(أ) هو سهل بن محمد بن عثمان الجشمي السجستاني ،من كبار علماء العربية ورواة الشعر ت ٢٤٨ هـ - انظر الفهرست ٨٦،ووفيات الأعيان ٤٣٠/٢.

الإطلاق مرتبة الرسالة فأكرم الخلق وأخصهم بالزلفى لديه

رسله " قال :" وأعلاهم منزلة أولو العزم منهم المذكورون

فى قوله تعالى " شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى

أوحينا إليك وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى" وهؤلاء

هم الطبقة العليا من الخلائق وعليهم تدور الشفاعة حتى

يردوها إلى خاتمهم وأفضلهم صلى الله عليه وسلم " قال :

" الطبقة الثانية : من عداهم من الرسل على مراتبهم من تفضيلهم

بعضهم على بعض ".(١)

---

(١) طريق الهجرتين ص ٣٤٩ - ٣٥٠.

مطلب : فى تفاضل أولى العزم :

وقد ذكر الله عز وجل أولى العزم فى آيتي الأحزاب والشورى المذكورتين ،وقد بدأ سبحانه فى الآيتين بذكر الطرفين أول الرسل وخاتمهم،وذكر بينهما الثلاثة مبتدأ بإبراهيم ثم موسى ثم عيسى بحسب ترتيب وجودهم عليهم الصلاة والسلام ، وقد بدأ سبحانه فى آية الأحزاب بذكر محمد - صلى الله عليه وسلم - لشرفه وفضله عليهم وذلك لأن فى الآية ذكر للنبيين فى الجملة تعميما ثم خص سبحانه أفضلهم بالذكر بعد دخولهم فى العموم فناسب لذلك الابتداء بذكر محمد - صلى الله عليه وسلم - لكونه أفضل هؤلاء المفضلين ،وفى الآية ذكر للميثاق المأخوذ على النبيين فهى متعلقة بالأنبياء خاصة ولذلك قدم - محمد صلى الله عليه وسلم فى الذكر للوجه المذكور قال سبحانه : " وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم" الأحزاب ٧ - ،أما آية الشورى فمتعلقة بالشريعة التى بعثوا بها . ولذا بدأ سبحانه بنوح قبل

محمد عليهما الصلاة والسلام، لأن الآية فى ذكر دين الإسلام وماوصى الله به الرسل،فناسب ذلك أن يبدأ بنوح،لأن رسالته أول الرسالات،ففيه بيان جلي أن أول رسالات الرسل أوصت بماشرع لأمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم من الدين ، فهو دين أصيل مستقيم لاعوج فيها ولااضطراب ،ثم ذكر سبحانه من بين من توسطوا بين محمد ونوح أشهر أصحاب الشرائع وأفضلهم[1] .

قال سبحانه : " شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه " الشورى ١٣.

فمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو أفضل أولى العزم بلاخلاف ،يقول ابن كثير :" لاخلاف أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضلهم ثم بعده ابراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام على المشهور"[2] يعنى

---

(١) انظر الأنموذج الجليل ٧٧/٢ ،وتفسير ابن كثير ٤٧٠/٣ ،وفتح الرحمن ٤٥٨ ،وروح المعانى ١٥٤/٢١.

(٢) تفسير ابن كثير ٤٧/٣، وقال ابن كثير بعد ذلك :" وقد بسطناه بدلائله فى غير هذا الموضع " وقد بذلت جهدى فى البحث فى تفسيره وفى البداية والنهاية ولم أقف على هذا الموضع الذى أحال إليه هنا.

ابن كثير أن نوحا آخرهم فى ترتيبهم فى الفضل ،وقوله :

" على المشهور " كأنه إشارة إلى وجود خلاف فى ترتيبهم فى الفضل بعد محمد - صلى الله عليه وسلم -،وقد قطع بأن ابراهيم بعده فى الفضل فى موضع آخر فقال فى ابراهيم :" هو أشرف أولى العزم بعد محمد - صلى الله عليه وسلم "(1) وقد نص السفارينى على اختلاف العلماء فى من يلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فى الفضيلة منهم،وذكر أن المشهور أنه ابراهيم، قال:

" قد اختلف العلماء فى من يلى النبى صلى الله عليه وسلم فى الفضيلة منهم،والمشهور واختاره ابن حجر فى شرح البخارى انه ابراهيم خليل الرحمن،لما ورد أن ابراهيم عليه السلام خير البرية ، خص منه محمد - صلى الله عليه وسلم - بإجماع،فيكون أفضل من موسى وعيسى ونوح عليهم السلام،والثلاثة بعد ابراهيم أفضل من سائر الأنبياء والمرسلين ،قال الحافظ ابن حجر ولم أقف على نقل أيهم أفضل والذى ينقدح فى النفس تفضيل موسى فعيسى فنوح عليهم الصلاة والسلام "(2).

---

(1) البداية والنهاية 1/170.

(2) اللوامع 2/300 وقد بذلت جهدى فى الوقوف على مانسبه لابن حجر فى الفتح فلم أعثر عليه وبخاصة فى مظانه من الفتح.

وذكر السيوطى أن الإجماع منقول على تقديم ابراهيم عليه السلام، فبعد أن ذكر أن النبى - محمد صلى الله عليه وسلم - أفضل خلق الله على الاطلاق قال: " فخليله إبراهيم يليه فى التفضيل، فهو أفضل الخلق بعده، نقل بعضهم الإجماع على ذلك، وفى الصحيح خير البرية ابراهيم خص منه النبى - صلى الله عليه وسلم - فبقي على عمومه " قال السيوطى: " فموسى وعيسى ونوح الثلاثة بعد ابراهيم أفضل من سائر الأنبياء ولم أقف على نقل أيهم أفضل "[1].

وتعقب المناوى[أ] السيوطى فى كلامه هذا فقال: " وفاته - (يعنى فات السيوطى) - أن الفخر الرازى حكى الإجماع على تقديم موسى وعيسى على نوح فإنه قال فى أسرار التنزيل: لا نزاع فى أن أفضل الأنبياء والرسل هؤلاء الأربعة محمد وابراهيم وموسى وعيسى "[2].

---

(١) إتمام الدراية ١٧ بهامش مفتاح العلوم.

(٢) فيض القدير ٣/٤٦٤.

(أ) هو محمد عبدالرؤوف بن تاج العارفين بن على المناوى، بضم الميم كان منزويا للبحث والتصنيف وكان قليل الطعام كثير السهر فمرض وجعل ولده يستملى منه تآليفه، ت ١٠٣١ هـ.
انظر الأعلام ٦/٢٠٤، ومعجم المؤلفين ١٠/١٦٦.

والحاصل أن النص دال على تفضيل محمد صلى الله عليه وسلم والإجماع منعقد عليه. وكذا يدل النص على أن إبراهيم يليه في التفضيل لحديث أنس قال: قال رجل لرسول الله : ياخير البرية فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ " ذاك ابراهيم "(1)، وقال السيوطي، وابن حجر ـ كما نقله السفاريني عنه ـ، أنهما لم يقفا على نقل أي الثلاثة أفضل بعد ابراهيم عليه السلام ، ولكن النقل دال على تقديم موسى على عيسى عليهما السلام(2) ففي أحاديث المعراج أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مر بعيسى في السماء الثانية

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه ١٨٣٩/٤ ، وأبوداود في سننه ٢١٨/٤ ،وأحمد في المسند ١٧٨/٣ ، ١٨٤.

(2) تقدمت الإحالة قريبا على مواضع أحاديث المعراج المذكور فيها درجات الأنبياء من الصحيحين.

ومر بموسى فى رواية فى السادسة، وفى أخرى فى السابعة، يعنى فى منزلة أعلى من منزلة عيسى عليهم [1]

---

(1) قد يشكل بالرواية التى فيها أن موسى فى السابعة تفضيله على ابراهيم لأنه مذكور فى ذات الرواية أنه فى السادسة، قال ابن حجر: " ولكن المشهور من الروايات أن الذى فى السابعة هو ابراهيم وأكد ذلك فى حديث مالك بن صعصعة بأنه كان مسندا ظهره الى البيت المعمور " الفتح ٤٨٢/١٣ وكذا ورد كون ابراهيم مسندا ظهره الى البيت المعمور فى روايات أخر كرواية ثابت البنانى عن أنس، والبيت المعمور فى السابعة بلاخلاف.

ورواية أن إبراهيم فى السادسة وموسى فى السابعة وقعت من طريقين فقط، من حديث الزهرى عن أنس عن أبى ذر، ومن حديث شريك بن عبد الله عن أنس، أما حديث أبى ذر فقد قال فيه أنس: ولم يثبت " يعنى أباذر " كيف منازلهم " فلاشك أن رواية من أثبتها أرجح -(انظر الرواية فى البخارى مع الفتح ٤٥٨/١ و٣٧٤/٦ وفى صحيح مسلم ١٤٨/١) -، وأما رواية شريك فإن مسلما رحمه الله أورد المسند من روايته ثم قال :" وقدم فيه شيئا وأخر وزاد ونقص " صحيح مسلم ١٤٨/١ فهى إشارة الى اضطراب رواية شريك وضعف ضبطها (انظر فتح البارى ٤٨٣/١٣ - ٤٨٦)، قال ابن كثير فى ابراهيم عليه السلام :" ثم هو أشرف أولى العزم بعد محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو الذى وجده عليه السلام فى السماء السابعة مسندا ظهره بالبيت المعمور"

الصلاة والسلام ،فموسى أفضل من عيسى ،فبقي ترتيب نوح عليه السلام هل هو مقدم عليهما أم مؤخر عنهما أم هو بينهما ؟

= قال " وماوقع فى حديث شريك ابن أبى نمير عن أنس فى حديث الإسراء من ابراهيم فى السادسة وموسى فى السابعة فمما انتقد على شريك فى هذا الحديث والصحيح الأول " البداية والنهاية ١٧٠/١ وانظر ٣١٣/١ . قال ابن حجر فى شريك :" هو مختلف فيه فإذا تفرد عد ماينفرد به شاذا،وكذا منكرا على رأى من يقول المنكر والشاذ شىء واحد " قال :" والأولى التزام ورود المواضع التى خالف فيها غيره والجواب عنها إما بدفع تفرده وإما بتأويله على وفاق الجماعة " الفتح ٤٨٥/١٣ ، وتفرد شريك مندفع فى هذه الجملة فقد وافقه الزهرى عن أنس عن أبى ذر فيها،إلا أن فى رواية الزهرى التنصيص على عدم ضبط المنازل، ولكن فى رواية شريك مايدل على أنه ضبط كون موسى فى السماء السابعة فقد قال :" كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فوعيت منهم إدريس فى الثانية ... الخ " فقوله " فوعيت " دال على ماذكرنا ،إلى أن قال :" وآخر فى الخامسة لم أحفظ أسمه " فدل على ضبطه الآخرين ،ثم قال :" وموسى فى السابعة بفضل كلام الله " قال ابن حجر " وهذا التعليق يدل على أن شريكا ضبط كون موسى فى السماء السابعة " الفتح ٤٨٢/١٣ ثم قال :" فقال موسى : رب لم أظن =

ولانقل يدل على شيء من ذلك وليس الأمر مورد اجتهاد

وغاية مايستطيعة من اجتهد بتأخير نوح الا ستدلال بنصوص

= أن ترفع عليّ أحدا " وفيه زيادة ضبط ،ولكن الثابت في جميع الروايات غير روايتي الزهري وشريك هاتين أن موسى في السادسة وابراهيم في السابعة)فإن استقام جَمْعُ بينها وإلا فالأرجح رواية الجماعة ،وقد جُمِعَ بينهما ،قال ابن حجر :" جُمِعَ بأن موسى كان في حالة العروج في السادسة وابراهيم في السابعة على ظاهر حديث مالك بن صعصعة وعند الهبوط كان موسى في السابعة،لأنه لم يذكر في القصة أن ابراهيم كلمه في شيء ممايتعلق بمافرض الله على أمته من الصلاة كما كلمه موسى ،والسماء السابعة هي أول شيء انتهى إليه حالة الهبوط،فناسب أن يكون موسى بها لأنه هو الذى خاطبه في ذلك كماثبت في جميع الروايات ،ويحتمل أن يكون لقي موسى في السادسة فأصعد معه الى السابعة تفضيلا له على غيره من أجل كلام الله تعالى ،وظهرت فائدة ذلك في كلامه مع المصطفى فيما يتعلق بأمر أمته في الصلاة " الفتح ١٣ /٤٨٢.

غاية مافيها إثبات منقبة لكل واحد منهم من غير

تخيير بين المناقب،

وتقديم أحدهما عليه أوتأخيره عنه

-صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - بتفضيل منقبة على أخرى

مما لايقبل اجتهادا حتى يقوم عليه دليل ، فالواجب

اعتقاده فضل نوح عليه السلام بعد إبراهيم على الجملة

من غير تعيين ترتيبه مع موسى وعيسى عليهم السلام ،فيكون

حاصل القول فى تفاضل أولى العزم أن أفضلهم محمد

ثم يليه ابراهيم ثم نوح وموسى وعيسى .

وموسى أفضل من عيسى عليهم الصلاة والسلام أجمعين ،والله أعلم.

مطلب فى ذكر بعض خصائص أولى العزم :

سيأتى الحديث فى فضائل محمد - صلى الله عليه وسلم - وخصائصه فى المسألة الثالثة ،ونذكرهنا شيئا من خصائص بقية أولى العزم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -

أما إبراهيم عليه السلام فمن فضائله وخصائصه عليه السلام أنه خليل الرحمن لم يشاركه فى الخلة إلا محمدصلى الله عليهما وسلم ،قال سبحانه :" ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا " - النساء ١٢٥ - ،وقد جعله الله عز وجل إماما للناس يقتدون به ويهتدون بهديه قال سبحانه :" وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما " البقرة ١٢٤ - ،وقال سبحانه : "إن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين " النحل ١٢٠ - قال سبحانه :" ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلامن سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين " البقرة ١٣٠ -

وقد أجرى الله على يديه بناء بيته الذى جعله قياما للناس ومثابة وأمنا وعهد الله إليه ولابنه تبعا له

تطهير البيت للطائفين والعاكفين والركع والسجود وأمر سبحانه المؤمنين باتخاذ مقامه مصلى قال سبحانه :" وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ،وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود " البقرة ١٢٥ ـوقال تعالى:

" وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم " البقرة ١٢٧.

وقد حصر الله النبوة والكتاب فى ذريته عليه السلام قال سبحانه : " ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين " العنكبوت ٢٧ ـ فلم يأت نبي بعد ابراهيم إلا من ذريته ، وهو عليه السلام أول من يكسى يوم القيامة كما فى المتفق عليه من حديث ابن عباس قال : قام فينا النبى صلى الله عليه وسلم يخطب فقال :" إنكم محشورون حفاة عراة غرلا ـ كما بدأنا أول خلق نعيده ـ الآية وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة ابراهيم"(١).

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ، انظره مع الفتح ٣٧٧/١١ ،ومسلم ٢١٩٤/٤.

وقد جمع الله له منزلتين عظيمتين قال سبحانه "

واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا "- مريم ٤١-

فجمع له بين الصديقية والنبوة ،وفضائله أكثرمن أن تحصر

عليه السلام وماعلمناه غيض من فيض،ماجهلناه فى إبراهيم

عليه السلام.

وأمانوح - عليه السلام - فقد جاهد فى الله حق جهاده

وهو أول رسول بعث فى الناس بعد اختلافهم على دينهم

واجتيال الشيطان لهم،وقد لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين

عاما باذلا وسعه فى الدعوة إلى الله ليلا ونهارا سرا

وجهارا،صابرا على أذى قومه،لا تثنيه عن الدعوة إلى ربه

سفاهاتهم وتعدياتهم ،قال سبحانه :" ولقد أرسلنا نوحا

إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلاخمسين عاما فأخذهم

الطوفان وهم ظالمون ،فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها

آية للعالمين " العنكبوت ١٤ - ١٥ . وقال سبحانه فى نوح:

" قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائى

إلا فرارا . وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى

آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا.ثم

إنى دعوتهم جهارا ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا"

نوح ٧ - ١٠ وقال سبحانه عن قوم نوح :" قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بماتعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين " هود ٣٣ - ٣٤.

وأما موسى عليه السلام فهو كليم الله اشتهر من بين الأنبياء بهذه الحلية قال سبحانه :" وكلم الله موسى تكليما " النساء ١٦٤ ،وقال سبحانه :" ولماجاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ،قال رب أرني أنظر إليك " إلى أن قال : " قال ياموسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين " الأعراف ١٤٣ - ١٤٤ ،وقد ورد ذكر تكليم الله موسى في مواضع من كتاب الله (١). وهو عليه السلام المعني في قوله سبحانه :" تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله " في قول كافة المفسرين، وقدثبت تكليم الله آدم عليه السلام في كتاب الله ،في نحو قوله سبحانه :" قال

---

(١) انظر سورة طه الآيات ١١ - ٣٧ ، ٨٣ - ٨٥ ،وسورة الشعراء الآيات ١٠ - ١٧ ،وسورة النمل الآيات ٨ - ١٢ ،وسورة القصص الآيات ٣٠ - ٣٦ ،سورة النازعات الآيات ١٥ - ١٩.

يا آدم أنبئهم بأسمائهم " البقرة ٣٤ - وقوله :" وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما .." البقرة ٣٦ - ،وقوله :" فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك.. " طه ١١٧ ومابعدها ،وظاهر هذا أنه كان كفاحا بغير واسطة الملك (١). وفي حديث أبي ذر في عدد الأنبياء والرسل المتقدم ذكره أنه سأل النبي - صلى الله عليه وسلم عن آدم : أنبي مرسل هو ، فقال :" نعم نبي مكلم " (٢)

قال ابن عطية :" وقد تأول بعض الناس أن تكليم آدم كان في الجنة فعلى هذا تبقى خاصية موسى " (٣). وقد حمل بعضهم قوله سبحانه في سورة النجم " فأوحى إلى عبده ما أوحى " (٤) على أن الله أوحى الى محمد ليلة المعراج كفاحا بلا واسطة فيكون تكليما ،وحمله الآخرون على أن الله أوحى الى محمد بواسطة جبريل فلا يكون تكليما (٥) ،قال ابن كثير:" وكلا

---

(١) انظر أضواء البيان ١٩٤/١.

(٢) تقدم تخريجه والكلام عنه،في ص   وهو صحيح.

(٣) المحرر الوجيز ٢٧١/٢.

(٤) انظر تفسير الطبري ٢٨/٢٧ ،وزاد المسير ٦٧/٨ وتفسير ابن كثير ٢٥٠/٤ والدر المنثور ١٢٣/٦ - ١٢٤.

(٥) انظر المراجع السابقة وبقية كتب التفسير.

المعنيين صحيح " كأنه يرى أن الأمرين قد وقعا وهو قد قال في قوله سبحانه " منهم من كلم الله " في آية البقرة مانصه :" يعني موسى ومحمدا صلى الله عليهما وسلم وكذلك آدم "[2].[1]

وإن صح تكليم الله محمدا صلى الله عليه وسلم - ليلة المعراج قد يُتأول أنه وقع في السماء فتبقى خاصية موسى عليه السلام.

ومر من فضائله - عليه السلام - كونه في السماء السادسة، وقد آتاه الله عز وجل تسع آيات بينات إلى فرعون وقومه[3] ظهرت بهن حجته وقامت بينته أيده الله بهن قال سبحانه : " ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات " - الاسراء ١٠١ ،وقال عز وجل :" وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات الى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين "النمل ١٢ .

وأما عيسى عليه السلام فاختص من بين سائر الخلق بأنه ولد لأم من غير أب،وإنما نفخ جبريل في درع جيب مريم فحملت بعيسى عليه السلام وتكلم في المهد وآتاه الله

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٥٠/٤.

(٢) المرجع السابق ٣٠٥/١.

(٣) والآيات التسع هي : العصا واليد والسنين وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات .

من البينات مافضله به فى قوله :" تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس " البقرة ٢٥٣ - وقد حكى الله كلام عيسى فى المهد فكان مماقاله وتظهر فيه من فضائله عليه السلام غرر :" قال إنى عبد الله آتاني الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا أين ماكنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا.وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا . والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا " - مريم ٣٠ - ٣٣ . وقد قال سبحانه فى ذكر ولادة عيسى عليه السلام :" واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا. قالت إنى أعوذبالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا. قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا. فحملته فانتبذت به مكانا قصيا " الآيات مريم ١٦ - ٢٢.

وكان من الآيات التي آتاها الله عيسى عليه السلام ماذكره سبحانه في قوله :" إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكرنعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحرمبين" – المائدة ١١٠.

وقد رفعه الله عز وجل إليه، فهو حي في السماء وهو في الثانية كما في أحاديث الإسراء ،قال سبحانه في تكذيب اليهود في دعواهم قتله عليه السلام :" وماقتلوه يقينا . بل رفعه الله إليه " النساء ١٥٧ – ١٥٨ ،وهذا من خصائصه – صلى الله عليه وسلم – إذ ليس في الأنبياء حي إلا هو.

وسينزل عليه السلام في آخر الزمان كما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع، وهذا من خصائصه عليه السلام قال سبحانه :" وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا " النساء ١٥٩ .

وقد تواترت الأخبار عن النبي - صلى الله عليه وسلم - بنزول عيسى عليه السلام[1]، قال صلى الله عليه وسلم .: " والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا "[2] وقال - صلى الله عليه وسلم - :" كيف أنتم اذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم "[3] وأجمعت الأمة على نزوله عليه السلام آخر الزمان[4].

---

(١) انظر التنصيص على التواتر وبيانه في تفسير الطبري ٢٠٤/٣ ،وتفسير ابن كثير ٥٧٨/١ ومابعدها ،والنهاية ١٣٦/١ ومابعدها ،ونظم المتناثر ١٤٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه انظره مع الفتح ٤١٤/٤ ،ومسلم ١٣٥/١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، انظره مع الفتح ٤٩٠/٦ ،ومسلم ١٣٥/١

(٤) انظر البحر المحيط ٤٧٣/٢ ولوامع الأنوار البهية ٩٤/٢.

المسألة الثالثة : تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق :

محمد - صلى الله عليه وسلم - هو أفضل الأنبياء على الإطلاق بل هو خير الخلائق أجمعين صلوات الله وسلامه عليه، وقد جاءت في ذلك نصوص لاتحصى كثرة فيما أوحاه الله عز وجل في كتابه وعلى لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم - وفيما كتب وروي من أقوال الأئمة المهديين من السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين.

- قال سبحانه وتعالى :" تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات " البقرة ٢٥٣، والمعني بقوله " ورفع بعضهم درجات " محمد صلى الله عليه وسلم، قاله ابن عباس والشعبي ومجاهد وغيرهم (١)، قال الزمخشري في هذه الجملة من الآية :" أي ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم بدرجات كثيرة" قال : " والظاهر أنه أراد محمدا صلى الله عليه وسلم - لأنه هو المفضل عليهم حيث أوتي مالم يؤته أحد " الى أن قال :" وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره مالايخفى، لما فيه من

---

(١) انظر تفسير الطبرى ٢/٣ ،وتفسير البغوى ٢٣٦/١ ،وتفسير القرطبي ٢٦٤/٣، والدر المنثور ٣٢٢/١.

الشهادة على أنه العلم الذى لايشتبه والمتميز الذى لايلتبس، ويقال للرجل: من فعل هذا، فيقول: أحدكم أو بعضكم، يريد به الذى تعورف واشتهر بنحوه من الأفعال، فيكون أفخم من التصريح به وأنوه بصاحبه ".(1) وقد خص سبحانه فى الآية بالذكر من وجوه التفضيل، التفضيل بالآيات فقال: " منهم من كلم الله " وقال: " وآتينا عيسى ابن مريم البينات " قال الزمخشري: " وهذا دليل بيّن أن من زيد تفضيلا بالآيات منهم فقد فضل على غيره، ولما كان نبينا صلى الله عليه وسلم هو الذى أوتي منها مالم يؤت أحد فى كثرتها وعظمها، كان هو المشهود له بإحراز قصبات الفضل غير مدافع ".(1)

وذهب بعض المفسرين الى احتمال أن يراد بقوله " رفع بعضهم درجات" محمد وغيره على الإجمال إلا أنه (يتعين أن يكون المراد من البعض هنا واحدا من الرسل معينا لاطائفة) وتكون الدرجات مراتب من الفضيلة ثابتة لذلك الواحد، لأنه لو كان المراد من البعض جماعة من الرسل مجملا، ومن الدرجات درجات بينهم، لصار الكلام تكرارا مع قوله فضلنا بعضهم على بعض، ولأنه لو أُريد بعضٌ فُضِّل(2)

---

(1) الكشاف 1/151 - 152.

(2) انظر المحرر الوجيز 2/271، وزاد المسير 1/301 وغيرهما.

على بعض لقال ورفع بعضهم فوق بعض درجات كما قال في الآية الأخرى " ورفع بعضكم فوق بعض درجات ") بعد قوله[1] " وهو الذى جعلكم خلائف الأرض " الأنعام ١٦٥ .

- وقال سبحانه " ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا " الاسراء ٥٥ ذكر المفسرون أن الآية فى محاجة اليهود وأن المعنى : إنكم لم تنكروا تفضيل النبيين فكيف تنكرون فضل النبي صلى الله عليه وسلم[2] ،وقال الزمخشرى :" قوله (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) إشارة الى تفضيل رسول الله صلى الله عليه وسلم،وقوله (وآتينا داود زبورا)دلالة على وجه تفضيله،وهو أنه خاتم النبيين وأن أمته خير الأمم لأن ذلك مكتوب فى زبور داود وقال الله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) وهم محمد وأمته[3]".

- وقال - صلى الله عليه وسلم - " أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجدا

---

(١) مابين القوسين بنصه من تفسير التحرير والتنوير ٦/٣.

(٢) انظر تفسير البغوى ١٢٠/٣ وتفسير الرازى ٢٣/٢٠ ،وتفسير القرطبى ٢٧٨/١ وتيسير الكريم الرحمن ١٤٣/٤ .

(٣) الكشاف ٣٦٤/٢.

وطهورا ،فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ،وأحلت لي الغنائم وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس كافة وأعطيت الشفاعة ".(1)

- وفي رواية من حديث أبي هريرة :" فضلت على الأنبياء بست "(2) فذكر أربعا من الخمس المتقدمة إلا الشفاعة وزاد خصلتين هما :" أعطيت جوامع الكلم " و" ختم بي النبيون" فتحصل من الروايتين سبع خصال .

- ومن حديث حذيفة :" فضلنا على الناس بثلاث "(3) وفي روايات أن الخصائص أربع وروايات أنها اثنتين ، ويتحصل من مجموع الروايات جملة من خصائصه صلى الله عليه وسلم التي فضل بها على الأنبياء تزيد كثيرا على ماحدد في كل رواية من عدد،ذكر ابن حجر أنه ينتظم من الروايات سبع عشرة خصلة قال :" ويمكن أن يوجد أكثر من ذلك لمن أمعن التتبع " ونقل عن بعض أهل العلم أن عدد الذي اختص به نبينا - صلى الله عليه وسلم - عن الأنبياء ستون خصلة.(4)

---

(1) متفق عليه ،أنظر صحيح البخاري مع الفتح ٥٣٣/١ ، وصحيح مسلم ٣٧٠/١.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه ٣٧١/١.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه ٣٧١/١.

(4) فتح الباري ٤٣٩/١.

وأما اختلاف الروايات في تحديد العدد فإنه لاتعارض فيه

يقول ابن حجر في ذلك :" وطريق الجمع أن يقال : لعله اطلع أولا على بعض ما اختص به ثم اطلع على الباقي ،ومن لايرى مفهوم العدد حجة يدفع هذا الاشكال من أصله "[1].

- وفي أحاديث الشفاعة من بيان فضله صلى الله عليه وسلم على الأنبياء ماهو ظاهر ،وقد وصف النبي - صلى الله عليه وسلم - ذلك اليوم بأنه يوم يرغب اليه فيه الخلق كلهم حتى ابراهيم عليه الصلاة والسلام[2].

- وقال - صلى الله عليه وسلم - " آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ،فيقول : بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك "[3].

- وقال - صلى الله عليه وسلم - " أنا أكثر الأنبياء تبعا "[4] وقال : " لم يصدق نبي من الأنبياء ماصدقت وإن من الأنبياء نبيا مايصدقه من أمته إلا رجل واحد "[5].

---

(١) فتح الباري ٤٣٦/١.

(٢) انظر حديث أبي بن كعب عند مسلم في صحيحه ٥٦٢/١.

(٣) رواه مسلم في صحيحه ١٨٨/١.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحة ١٨٨/١.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحة ١٨٨/١.

ولقد قال - صلى الله عليه وسلم - "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفع ".(1)

وقال صلى الله عليه وسلم - " أنا سيد الناس يوم القيامة ".(2)

ومن حديث أبى بكر الصديق فى الشفاعة أن عيسى عليه السلام يقول للناس إذا أتوه يستشفعونه :" انطلقوا الى سيد ولد آدم "

وفيه أن النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول فى دعاء شفاعته :"رب خلقتنى سيد ولد آدم ولافخر".(3)

- وقال - صلى الله عليه وسلم - " أنا سيد ولد آدم ولافخر ".(4)

وفى معنى " ولافخر " قال ابن الجوزى :" قال ابن الأنبارى : المعنى لا أتبجح بهذه الأوصاف وإنما أقولها شكرا لربى ومنبها

---

(1) أخرجه مسلم فى صحيحة 1782/4.

(2) أخرجه البخارى انظر صحيحه مع الفتح 395/8 ومسلم 184/1.

(3) رواه أحمد فى المسند 5/1 ،والبزار انظر كشف الأستار 69/4 - 170 قال الهيثمى :"وأبويعلى وقال : ورجا لهم ثقات " المجمع 375/10.

(4) أخرجه أحمد فى المسند 281/1 ،2/3 ،وابن ماجه 1440/2،والترمذى 548/5 وانظر تحفة الأحوذى 382/10 (وعارضة الأحوذي 13/102-103) وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح ،ورمز السيوطى لحسنه فى الجامع 106/1 وصححه الألبانى فى صحيح الجامع 21/2.

أمتي على إنعامه علي ،وقال ابن عقيل (أ) : إنما نفى الفخر الذي هو الكبر الواقع في النفس المنهي عنه الذى قيل فيه " لايحب كل مختال فخور " لقمان ١٨ ، ولم ينف فخر التجمل بماذكره من النعم التي بمثلها يفتخر ،ومثله قوله :" لايحب الفرحين "القصص ٧٦ ،يعني الأشرين ،ولم يُرِدْ الفرح بنعمة الله تعالى " (١) وقد قال سبحانه :" قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون " يونس ٥٨ فأمر سبحانه بالفرح بفضله .

وظاهر من النصوص أوجه تفضيله صلى الله عليه وسلم على الأنبياء فبعثته الى الناس كافة ،وشريعته أكمل الشرائع ،وهو أعظم الناس أمة ،وختم الله به النبوات ،الى غير ذلك من معجزاته عليه الصلاة والسلام فهو أكثر الأنبياء آيات ،وقد ذكر أن آياته صلى الله عليه وسلم تبلغ ألف أوأكثر (٢) . وقدنحى بعض أهل العلم الى المفاضلة بين معجزاته - صلى الله عليه وسلم - ومعجزات

---

(١) صفة الصفوة ١٨٣/١ ،وانظر فيض القدير ٤٢/٣ .

(٢) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٥٠٠/٥ والكشاف ١٥١/١ .

(أ) هوعلي بن عقيل بن محمدبن عقيل البغدادى الظفرى ،أبوالوفاء، شيخ الحنابلة في عصره ،اشتغل بمذهب المعتزلة في حداثته وله كتب أعظمها "الفنون" ،ت ٥١٣ هـ.انظر طبقات الحنابلة - الذيل -١٤٢/٤ ولسان الميزان ٢٤٣/٤ .

الأنبياء مبينا فى كل معجزة لنبى أن نبينا أوتى خيرا منها[1] .

ولقد أجمعت الأمة على أنه - صلى الله عليه وسلم - أفضل الخلق[2] ، وهو فى كلام الأئمة سلفا وخلفا كثير، فمن ذلك مانقل من عقيدة الإمام أحمد امام أهل السنة أنه " كان يعتقد أن محمدا صلى الله عليه وسلم خير الرسل وخاتم الأنبياء والشهيد على الجميع "[3] . وأنه " كان يقول إن بعض النبيين أفضل من بعض ومحمد صلى الله عليه وسلم أفضلهم "[4] .

وعقد الإمام مسلم فى صحيحه بابا قال : " باب تفضيل نبينا - صلى الله عليه وسلم - على جميع الخلائق "[5] .

---

(١) كمافعل أبونعيم فى الدلائل من ص ٥٣٧ - ٥٦٤

(٢) انظر تفسير الرازى ١٩٥/٦ وتفسير ابن كثير ٤٧/٣ ، والشفا ٢٢٦/١ .

(٣) طبقات الحنابلة ٢٧٩/٢ .

(٤) طبقات الحنابلة ٣٠٦/٢ .

(٥) ١٧٨٢/٤ .

وعقد الآجري[أ] بابا في كتابه " الشريعة " فقال :" باب ذكر مافضل الله عز وجل به نبينا صلى الله عليه وسلم في الدنيا من الكرامات على جميع الأنبياء "[1] وقال الحافظ عبد الغني المقدسي[ب] في عقيدته :" فصل : ونعتقد أن محمد المصطفى خير الخلائق وأفضلهم وأكرمهم على الله عز وجل وأعلاهم درجة وأقربهم الى الله وسيلة"[2].

ومما ينبغي أن يعلم أن ما اختص به بعض الأنبياء من الفضائل كاختصاص موسى عليه السلام بالتكليم لايقتضي أفضليته على صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون - صلوات الله وسلامه عليه - ،فإن المفضول يجوز أن يختص بماليس للفاضل من غير

---

(١) الشريعة ٤٩٨.

(٢) عقيدة الحافظ المقدسي . ضمن المجموعة العلمية السعودية ص ٥٢.

(أ) هو محمد بن الحسين ، أبوبكر ،كان حافظا صنف كتبا في علوم الحديث ت ٣٦٠ هـ - انظر تاريخ بغداد ٢٤٣/٢.

(ب) هو عبدالغني بن عبد الواحد الجماعيلي المقدسي ،حدث وصنف في الحديث تصانيف حسنة كان عابدا ورعا متمسكا بالسنة ،ت ٦٠٠ هـ، انظر تذكرة الحفاظ ١٣٧٢/٤.

أن يفضله بما اختص به ،وقع وقع نحو هذا فى نبينا - صلى الله عليه وسلم - وبعض أتباعه من الصحابة رضوان الله عليهم وهم دون الأنبياء فى الفضل،فهذا عمر - رضى الله عنه أخبره النبى - صلى الله عليه وسلم أن الشيطان ينفر منه قال صلى الله عليه وسلم - " والذى نفسى بيده مالقيك الشيطان قط سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك" (1)، وعرض له - صلى الله عليه وسلم - الشيطان فى صلاته ولم ينفر منه كما فى حديث أبى هريرة (2) قال القرافى فى هذا :" وأين عمر من النبي عليه السلام ،غير أنه يجوز أن يحصل للمفضول مالايحصل للفاضل " قال :" ومن ذلك أن الأنبياء صلوات الله عليهم أفضل من الملائكة على الصحيح ،وقد حصل للملائكة المواظبة على العبادة مع جميع الأنفاس،يلهم أحدهم التسبيح كما يلهم أحدنا النفس الى غير ذلك من الفضائل والمزايا التى لم تحصل للبشر، ومع ذلك فالأنبياء أفضل منهم لأن المجموع الحاصل للأنبياء من المزايا والمحاسن أعظم من المجموع الحاصل للملائكة فمن استقرى هذا وجده كثيرا " الى أن قال : " فعلى هذه القاعدة تخرجت الإقامة والأذان وأن من خواصهما التى جعل الله تعالى

---

(1) أخرجه البخارى انظر الصحيح مع الفتح ٤١/٧ ومسلم ١٨٦٤/٤.

(2) انظره فى صحيح البخارى مع الفتح ٤٥٧/٦.

لهما ان الشيطان ينفر منهما دون الصلاة وان الصلاة أفضل منهما ولاتناقض فى ذلك بسبب أن المفضول يجوز أن يختص بما ليس للفاضل ".[1] فالحاصل أن نبينا صلى الله عليه وسلم أفضل الخلائق ولايلتفت الى غير هذا ، ولقد زعم قوم من منحولى النسبة الى الاسلام أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يكن أفضل من ابراهيم ولامن نوح ولامن آدم عليه السلام لأن الثلاثة آباؤه ، وامتنعوا من تفضيل الابن على الأب ، وفضلوه على كل نبي لم يكن آبا له.[2] قال البغدادى :" وقياسهم يقتضى أن لايكون أفضل من ادريس ولامن اسماعيل لأنهم آبواه "[3] ولم ينصوا عليهما ، فهم ينطقون عن جهل وسفه ، وكذا يقتضى قياسهم أن يكون الأب الكافر المخلد فى النار خيرمن الابن المؤمن المخلد فى الجنة كمن نزل فيهم قوله سبحانه :" لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ولوكانوا آباءهم أوابناءهم أواخوانهم أوعشيرتهم.." الآية - المجادلة ٢٢.

---

(١) الفروق ١٤٤/٢ - ١٤٦.

(٢) انظر أصول الدين ص ١٦٥.

(٣) نفس المرجع السابق .

المسألة الرابعة : في تفاضل أحوال النبي الفرد :

لاشك أن أحوال النبي الفرد متفاضلة ،فالنبي بعد النبوة خير منه قبل النبوة هذا في الجملة ،قال سبحانه لنبيه – صلى الله عليه وسلم – " ووجدك ضالا فهدى " الضحى ٧ ،أي أنه كان عليه الصلاة والسلام لايدرى القرآن والشريعة ولايعلم عن أمر النبوة حتى هداه الله إلى ذلك[1] كما قال سبحانه :" وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ،ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان" الشورى ٥٢ ، وكما قال :" نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين " يوسف – ٣–.

ثم أحوال النبي بعد النبوة متفاضلة ولاشك ،ومن شواهد ذلك أن الله قد ذكر في كتابه ذنوبا وقعت من بعض الأنبياء وذكر مع ذلك توبتهم صلوات الله وسلامه عليهم منها كما قال سبحانه في آدم " وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى " – طه ١٢١ – ١٢٢ ، ونحو ذلك مما ورد عن نوح وداود وغيرهم ولاشك أن حال التوبة والإنابة أفضل من الحال الأخرى كما ذكر ابن تيمية قول بعض السلف : كان داود عليه السلام بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة.[2] ومامن شك أن حال تلقي الوحي أشرف

---

(١) انظر تفسير البغوى ٤٩٩/٤ ،وتفسير القرطبى ٢٠ /٠٩٦ ومابعدها.

(٢) انظر الفتاوى ٢٩٤/١٠.

من غيرها من الأحوال ولذلك كان يعتريه - صلى الله عليه وسلم - فيها مالايعتريه في غيرها حتى قالت عائشة رضي الله عنها :" لقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا"(1). ولاشك أن حاله بعد تتابع الوحي واعتياده له أفضل من حاله في أوائل البعثة وقد رجف فؤاده - عليه الصلاة والسلام - ورعب من جبريل يوم نبيء عليه السلام ويوم أرسل (2).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال :" كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس ، وكان أجود مايكون في رمضان حين يلقاه جبريل "(3) فهذا نص في تفاضل أحواله صلى الله عليه وسلم حال النبوة.

---

(1) أخرجه البخاري في أول صحيحه انظره مع الفتح ١/١٨ ،ومالك في الموطأ ٢٠٣/١ ،وانظر صحيح مسلم ١٨١٦/٤.

(2) انظر صحيح البخاري مع الفتح ٢٢/١ و ٢٧ ،وصحيح مسلم ١٣٩/١ - ١٤٣.

(3) أخرجه البخاري انظر صحيحه مع الفتح ٣٠/١ ،ومسلم ١٨٠٣/٤.

المبحث الرابع : توجيه النهي الوارد في التفضيل بين الأنبياء :

تبين مما تقدم أنه لابد من اعتقاد التفاضل بين الأنبياء واعتقاد فضل الرسل على الأنبياء وفضل أولي العزم على بقية الرسل وفضل محمد - صلى الله عليه وسلم - على سائر الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليه، لقيام الأدلة الشرعية الصريحة الصحيحة على ذلك، وقد ثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - نهيه عن التفضيل بين الأنبياء، ونهيه عن تفضيله خاصة على بعض الأنبياء، وفي هذا إشكال يظهر لناظره ويزول لمتأمله، وقد خرج العلماء وجوها من القول في توجيه ذلك النهي .

أما ماورد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد قال صلى الله عليه وسلم . " لاتخيروا بين الأنبياء " وفي رواية " لاتفضلوا بين الأنبياء " وهو واقع في حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : بينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جالس جاء يهودي فقال : يا أبا القاسم، ضرب وجهي رجل من أصحابك، فقال : " من ؟ ". قال : رجل من الأنصار. قال : "ادعوه " فقال : " أضربته ؟" قال : سمعته بالسوق يحلف، والذي اصطفى موسى على البشر، قلت : أيْ خبيث، على محمد - صلى الله عليه وسلم -؟ فأخذتني غضبة، ضربت وجهه، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -

" لاتخيروا بين الأنبياء ... " الحديث[1] وفى رواية " لاتخيروني من بين الأنبياء " وفى رواية[2] " لاتفضلوا بين أنبياء الله "[3]

وروى القصة أبوهريرة بنحوه إلا أنه قال :" لاتخيروني على موسى ".[4] وفى حديث ثان قال صلى الله عليه وسلم - " لاينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى "[5] إلا أن النهي فى هذا الحديث يحتمل التأويل على وجهين :-

الأول : أن يكون المرادُ بقوله (أنا): رسولَ الله صلى الله عليه وسلم - نفسَه ، قال الخطابي[أ] :" وهذا أولى الوجهين وأشبههما بمعنى الحديث ، فقد جاء من غير هذا الطريق أنه صلى الله عليه وسلم قال :" ماينبغي لنبي أن يقول إني خير من يونس بن متى " فعم الأنبياء كلهم

---

(١) متفق عليه انظره فى البخارى مع الفتح ٧٠/٥، ومسلم ١٨٤٤/٤.

(٢) أخرجها البخارى انظر صحيحه مع الفتح ٣٠٢/٨ و٢٦٣/١٢

(٣) أخرجها البخارى انظر صحيحه مع الفتح ٤٥٠/٦، ومسلم ١٨٤٤/٤

(٤) متفق عليه انظره فى البخارى مع الصحيح ٧٠/٥، ومسلم ١٨٤٤/٤

(٥) متفق عليه من حديث ابن عباس انظر صحيح البخارى مع الفتح ٤٥٠/٦ ومسلم ١٨٤٦/٤.

- - - - - - - - - - - - - -

(أ) هو حمد بن محمد بن ابراهيم بن الخطاب البستى ، أبوسليمان ، فقيه محدث ، ولي القضاء فحمد فيه ، ت ٣٨٨هـ انظر سير أعلام النبلاء ٢٣/١٧ - ٢٨

فدخل هو فى جملتهم". [1]

الثانى : أن يكون إنما أراد صلى الله عليه وسلم بقوله " لاينبغى لعبد ": من سواه من الناس، أي لاينبغى للعبد القائل أن يقول ذلك . [2]

وقد دل على أن هذا هو الأولى فى معنى الحديث جملة من ألفاظ الحديث فى عدد من رواياته فى الصحيحين، ففى رواية : " لاأقول إن أحدا أفضل من يونس بن متى " [3]
وفى رواية :" من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب " [4]

---

(١) معالم السنن - بهامش المختصر - ٤٢/٧ ،والحديث بهذا اللفظ أخرجه أبوداود فى سننه ٢١٧/٤ من حديث عبد الله بن جعفر وفى سنده محمد بن اسحاق بن يسار وهو من المشهورين بكثرة التدليس (انظر تبيين المدلسين ص ٤٧ وتعريف أهل التقديس ص ١٢١)- فلايحتج الا بما صرح فيه بالسماع وقد روى هنا بالعنعنة فلا يحتج به ،وأخرج هذا اللفظ هذا اللفظ الطبرانى أيضا من حديث عبد الله بن جعفر كما فى فتح البارى ٤٥١/٦.

(٢) انظر معالم السنن ٤١/٧ ،وفتح البارى ٢٦٧/٨ ،وتحفة الأحوذى ٥٤٢/١و١١٩/٩

(٣) متفق عليها ،انظرها فى البخارى مع الفتح ٤٥١/٦، ومسلم ١٨٤٤/٤.

(٤) أخرجها البخارى انظر الصحيح مع الفتح ٢٦٧/٨و٥٤٣.

وفى رواية يقول صلى الله عليه وسلم :" قال - يعنى الله تبارك وتعالى - لاينبغى لعبدلى (وفى لفظ : لعبدى) أن يقول أنا خير من يونس بن متى "(1).

والحاصل أن فى الحديثين ينهى صلى الله عليه وسلم عن التفضيل بين الأنبياء ،وعن تفضيله على موسى ويونس خاصة - على حمل الحديث فى يونس على أن النبى صلى الله عليه وسلم هو المراد - وهو صلى الله عليه وسلم أفضل منهما ومن سائر الأنبياء وجميع الخلق قطعا كما تقدمت الدلائل عليه من الكتاب والسنة والإجماع ، وفى هذا إشكال ظاهر ،وقد وجه العلماء ذلك النهي لإزالة الإشكال فى أقوال متعددة ،منها :

1- أن النهي ورد قبل أن يعلم النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه سيد ولد آدم وأفضل الأنبياء فلما علم أخبره ،وأن النهي عن التفضيل منسوخ بالقرآن(2).

إلا أن فى هذا القول نظر كما يقول ابن كثير ،قال :" لأن هذا من رواية أبى سعيد وأبى هريرة(3)،وما هاجر أبو هريرة إلا عام حنين متأخرا،فيبعد أنه لم يعلم بهذا إلا بعد هذا والله أعلم(4) "،وهو كما قال ،بل والقول بالنسخ مردود ،فإن

---

(1) أخرجها مسلم فى صحيحه 1846/4.

(2) انظر الشفا 226/1 ،وتفسير القرطبى 262/3 ،وشرح النووى لمسلم 38/14 ،وفتاوى النووى ص196، وفتح البارى 452/6 وتفسير ابن كثير 305/1 .

(3) يعنى حديث قصة لطم الأنصارى لليهودى المتقدم ذكرها.

(4) البداية والنهاية 285/1.

التفاضل بين الأنبياء وفضل أولى العزم من الرسل منهم وتفضيله صلى الله عليه وسلم على يونس، كل ذلك قد ورد فى الآيات المكية فى سورة الإسراء والأحقاف والقلم وقصة حديث أبى سعيد وأبى هريرة وقعت فى المدينة، وكذلك الحديث الآخر فى يونس عليه السلام ورد من رواية أبى هريرة وابن عباس، وابن عباس من صغار الصحابة توفى النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة وقد ورد أيضا من رواية عبد الله بن مسعود.

٢- أن النهي من باب التواضع وهضم النفس ونفي الكبر والتعجب.[1]

قال القاضى عياض: " وهذا لا يسلم من الاعتراض "[2]. وهذا التوجيه لا يتناسب مع قوله صلى الله عليه وسلم " فقد كذب " فى رواية " من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب " إن حُمل الحديث على أن المراد بقوله (أنا) رسول الله صلى الله عليه وسلم[3]، فإذا حُمل على أن المراد به من سواه صلى الله عليه وسلم، فإن لهذا التوجيه وجهه، خاصة مع قوله - صلى الله عليه وسلم " إن الله

---

(١) انظر تأويل مختلف الحديث ص ٧٩، والشفا ٢٢٧/١، وشرح صحيح مسلم للنووى ٣٨/١٤، وتفسير القرطبى ٢٦٢/٣، وتفسير ابن كثير ٣٠٥/١ وفتح البارى ٤٥٢/٦، ومعالم السنن بهامش المختصر - ٤١/٧.

(٢) الشفا ٢٢٧/١.

(٣) انظر تحفة الأحوذى ١١٩/٩.

أوصى إلي أن تواضعوا حتى لايفخر أحد على أحد ولايبغى أحد على أحد"[1]. ويكون مناسب أيضا مع قوله " ولافخر " في حديث " أنا سيد ولدآدم ولافخر" المتقدم ذكره.

٣ - أن النهي عن تعيين المفضول، أما تفضيل بعضهم على بعض في الجملة دون تعيين المفضول فهو دلالة النصوص، قاله ابن عطية[2] واستشهد له بقول صلى الله عليه وسلم "أنا سيد ولد آدم " بإطلاق دون تعيين . ونقل القرطبي قول من قال: (إن النهي اقتضى منع إطلاق اللفظ لامنع اعتقاد ذلك المعنى، فإن الله أخبر بأن الرسل متفاضلون ، فلاتقول: نبينا خير من الأنبياء، ولا من فلان النبي، اجتنابا لمانهي عنه، وتأدبا به وعملا باعتقاد ماتضمنه القرآن من التفضيل "[3]

إلا أن في هذا التوجيه نظر فالله عز وجل لما أخبر أنه فضل بعض النبيين على بعض في آية الإسراء، وبعض الرسل على بعض في آية البقرة، جعل يُعيّن في الآيتين بعض المتفاضلين

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٢١٩٩/٤.

(٢) انظر المحرر الوجيز ٢٧٠/٢ ،وابن عطية هو عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن عطية المحاربي الغرناطي مفسر فقيه أندلسي ،ت ٥٤٢ هـ.
انظر الأعلام ٢٨٢/٣. ومعجم المؤلفين ٩٣/٥.

(٣) تفسير القرطبي ٢٦٢/٣.

ويذكر بعض الوجوه التى فضلوا بها، فعم ثم خص كما هو ظاهر من لفظ الآيتين وقد تقدم ذكرهما مرارا (1) .

وقد عيّن الله عز وجل أولى العزم بالذكر وفضلهم على بقية الأنبياء - كما تقدم -، والرسل أفضل من الأنبياء كما دل عليه الدليل واتفق عليه العلماء، فالرسول أفضل من النبي وفى هذا تعيين كما هو ظاهر، أما الإجمال فى قوله - صلى الله عليه وسلم - " أنا سيد ولد آدم " فهو دال على التعيين أيضا، إذ ثبوت كونه - صلى الله عليه وسلم - أفضل من الأنبياء جملة دليل كونه أفضل من كل واحد منهم مفصلا، هذا مع قيام دليل على التعيين فلقد استدل العلماء بقوله تعالى " ولاتكن كصاحب الحوت " على أن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من يونس، وهذا شاهد على التعيين، فالمراد بالنهي اذا غير هذا الوجه.

٤ - أن المراد بالنهي المنع من التفضيل من جهة النبوة التى هى خصلة واحدة لاتفاضل فيها فهم متساوون فيها وإنما التفاضل بالخصائص والمنح ونحوها. قال القرطبى :" وهذا قول حسن فإنه جمع بين الآي والأحاديث من غير نسخ (2) (3) ".

---

(1) انظر تفسير القرطبى ٣/٢٦٤.

(2) انظر الشفا ١/٢٢٧ وتفسير القرطبى ٣/٢٦٢، وشرح النووى لمسلم ١٤/٣٨ وفتاوى النووى ١٩٦ وعون المعبود ١٢/٤٢٥.

(3) تفسير القرطبى ٣/٢٦٢.

وقال ابن قتيبة فى حديث " لاينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى " : " ويجوز أن يريد لاتفضلونى عليه فى العمل فلعله أكثر عملا منى ولافى البلوى والامتحان فإنه أعظم منى محنة ".(1)

٥ - أن المراد بالنهي منع التفضيل من عند أنفسنا لأن مقام التفضيل إنما هو إلى الله.(2) وروى عن أحمد بن حنبل - رحمه الله - أنه كان يمنع من المفاضلة بين الأنبياء مع قوله بأن بعضهم أفضل من بعض وأن محمدا أفضلهم لكنه يقول ليس تعيين التفضيل الى أحد منا.(3)

٦ - أن المراد بالنهى منع التفضيل بمجرد الآراء والعصبية.(4) وهذا قد يؤول إلى سابقه .

٧ - أن المراد بالنهى منع التفضيل الذى يؤدى الى الخصومة والتشاجر(5) وذلك فى مثل الحال التى تحاكم فيها اليهودى مع الأنصارى عند النبى صلى الله عليه وسلم كما فى حديث أبي

---

(1) تأويل مختلف الحديث ٧٩.

(2) انظر تفسير ابن كثير ٣٠٥/١ وعون المعبود ٤٢٤/١٢.

(3) انظر طبقات الحنابلة ٣٠٦/٢.

(4) تفسير ابن كثير ٣٠٥/١.

(5) انظر شرح النووى لمسلم ٣٨/١٤ وفتاوى النووى ١٩٦.وتفسير ابن كثير ٣٠٥/١.

سعيد وأبي هريرة فهذا التوجيه ملائم لسبب ورود الحديث .

٨ - أن المراد بالنهي منع التفضيل الذى يؤدى الى توهم النقص فى المفضول أو الغض منه والإزراء به [(١)] .

قال الخطابى فى النهي الوارد :" معنى هذا ترك التخيير بينهم على وجه الإزراء ببعضهم ،فإنه ربما أدى ذلك إلى فساد الاعتقاد فيهم والإخلال بالواجب من حقوقهم وبفرض الإيمان بهم ،وليس معناه أن يعتقد التسوية بينهم فى درجاتهم فإن الله سبحانه قد أخبر أنه قد فاضل بينهم" [(٢)] وممن قال بهذا التوجيه ابن تيمية رحمه الله وعليه حمل حديث أبى سعيد وأبى هريرة المذكور [(٣)]، وهو لائق بحديث:" ماينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى ".

فقد ذكر أهل العلم أنه إنما خص يونس عليه السلام بالذكر لما يخشى على من سمع ماقصه الله علينا من شأنه وماكان من قلة صبره ،ونهي نبينا - عليهما الصلاة والسلام - عن أن يكون مثله، من أن يقع فى نفسه تنقيص له، فبالغ - صلى الله عليه وسلم - فى ذكر فضل يونس عليه السلام لسد

---

(١) انظر الشفا ٢٢٧/١ ،وتفسير القرطبى ٢٦٢/٣ ،وشرح مسلم للنووى ٣٨/١٤ وفتاوى النووى ١٩٦.

(٢) معالم السنن - بهامش مختصر سنن أبى داود - ٣٨/٧ - ٣٩.

(٣) انظر الفتاوى ٤٣٦/١٤.

(1)
هذه الذريعة. إلا أن هناك من خرج بهذه العلة للنهي عن حدها فأطلق حكم النهي لمطلق هذه العلة، فجعل النهي مطلقا لهذه العلة، فقال كما نقل القرطبي: " لا يقال: النبي أفضل من الأنبياء كلهم ولا من فلان، ولا خير، كما هو ظاهر النهي، لما يتوهم من النقص فى المفضول، لأن النهي اقتضى منع إطلاق اللفظ لا منع اعتقاد ذلك المعنى، فإن الله تعالى لما أخبر بأن الرسل متفاضلون فلا تقول: نبينا خير من الأنبياء، ولا من فلان النبي، اجتنابا لما نهي عنه وتأدبا به وعملا باعتقاد ما تضمنه القرآن من التفضيل "(2).

وظاهر هذا الكلام أن المراد من النهي - عند قائله - هو منع تعيين المفضول، لا تفضيل بعض النبيين على بعض فى الجملة كما فى آخر النقل، وهذا مرده الى القول الذى ذكرناه برقم (3)، ثم جعل العلة من عدم تعيين المفضول هى دفع توهم نقص المفضول كما فى أول النقل، وظاهر هذا جعل تعيين المفضول موهما نقصه، هكذا بهذا الإطلاق وهو خطأ، ويكفى فى الجواب عن القول بألا يقال النبي أفضل من الأنبياء أن يورد حديث أبى هريرة فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: " فضلت على الأنبياء بست " الحديث(3). والله أعلم.

---

(1) انظر الشفا 227/1، ومعالم السنن - بهامش المختصر- 41/7، وفتح الباري 452/6.

(2) تفسير القرطبى 262/3.

(3) سبق تخريجه وهو فى صحيح مسلم.

الفصل الثاني

المفاضلة بين الأنبياء وبقية البشر

الفصل الثاني : المفاضلة بين الأنبياء وبقية البشر :

المبحث الأول : منزلة الأنبياء في البشر قبل نبواتهم :

لقدكان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم خيار أقوامهم وأفضلهم ، لهم فيهم المنزلة الأثيرة، والدرجة الرفيعة من قبل نبواتهم ، اذ قد عصمهم الله عن القبائح والرذائل وعما يزيل الحشمة والوقار ويوجب الإزراء والتعيير ، ولذلك لم يحك الله عن المشركين المعادين للأنبياء أنهم عيروا أنبياءهم المبعوثين فيهم بمسبة ، أوازدروهم بقبيح أونسبوهم الى نقيصة ، مع شدة ماكانوا عليه من الحرص على النيل من الأنبياء والسخرية بهم ، وشدة حرصهم على تطلب مايبرر رد نبواتهم ، بل لقد ذكر الله في كتابه أن قوم شعيب قالوا له عليه السلام :" أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا مانشاء ، إنك لأنت الحليم الرشيد " هود ٨٧ ، فاعترفوا له بالرشد والحلم وقالوا: أنت حليم رشيد، فلم تنهانا أن نفعل في أموالنا مانشاء ؟ (١)

وحكى سبحانه قول قوم صالح :" ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا " هود ٦٢ أي كنا نرجو أن تكون فينا سيدا قبل

---

(١) انظر زاد المسير ١٥٠/٤ ، وتفسير القرطبي ٨٧/٩ ، وذكر القرطبي أن هذا ـ الذي ذكرته ـ هو أحسن ماقيل في تفسير الآية .

النبوة،وذكر أنهم كانوا أرادوا تنصيبه ملكا عليهم ، (1)

ولايسوّدوه وفيه مايقدح .

وكان مما قالوه أيضا لصالح عليه السلام كما حكى الله عنهم:

" إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء " هو ٥٤ ومعنى

اعتراك: ألمّ بك بعد إذ لم يكن فيك ،فبرّؤوه أن يكون فيه

قبل ذلك سوء فى عقله ،فهو وصف منهم له بالرشد وكمال

العقل ،وهكذا الأنبياء كانوا فى تمام عقل وكمال رشد من

قبل نبواتهم ،وقد قال سبحانه وتعالى فى ابراهيم عليه السلام:

" ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنابه عالمين " الأنبياء

٥١ قال القرطبي :" أى من قبل النبوة " قال :وعليه أكثر أهل

التفسير ،قال :" (وكنابه عالمين) أى إنه أهل لإيتاء الرشد

وصالح للنبوة " (2) وقال ابن كثير :" يخبر تعالى عن خليله ابراهيم

عليه السلام أنه آتاه رشده من قبل) أى من صغره ألهمه الحق

والحجة على قومه" (3) وقال ابن سعدى فى الآية ايضا :" أى أعطيناه

رشده واختصصناه بالرسالة والخلة واصطفيناه فى الدنيا والآخرة

---

(1) انظر تفسير الطبرى ٣٨/١٢ ،وتفسير القرطبى ٥٩/٩.

(2) تفسير القرطبى ٢٩٦/١١.

(3) تفسير ابن كثير ١٨٢/٣.

لعلمنا أنه أهل لذلك وكفء له لزكائه وذكائه "[1]

وقال سبحانه في ابراهيم والأنبياء من ذريته عليهم السلام

" وجعلنا لهم لسان صدق عليا " مريم ٥٠ أى رزقناهم الثناء

الحسن والذكر الجميل من الناس .[2] ونحو هذا قوله سبحانه :

"واذكر عبادنا ابراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار،

إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار " ص ٤٥ - ٤٦ قيل في معنى

قوله " إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار" :" إن المراد بالدار:

الدنيا ،والمعنى : لتخلص لهم بالثناء الحسن عليهم".[3]

وقال سبحانه :" واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار

ص ٤٨ - قال ابن سعدى :" يقول الذين لهم كل خلق كريم

وعمل مستقيم "[4] . وهذا عام مطلق شامل لحالهم قبل النبوة وبعدها ،

وقال صلى الله عليه وسلم عن نفسه :" ماهممت بقبيح مما كان أهل

الجاهلية يعملون به إلا مرتين من الدهر كلتاهما عصمني الله

فيهما ،قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاية غنم

أهلنا ،فقلت لصاحبي : أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر

فيها كما يسمر الفتيان ،فقال : بلى ،قال : فدخلت حتى

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١١٩/٥ .

(٢) تفسير الطبرى ٧٠/١٦ .

(٣) تفسير القرطبى ٢١٨/١٥ .

(٤) تيسير الكريم الرحمن ١٤/٧ .

إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفا بالغرابيل والمزامير، فقلت : ماهذا ؟ فقيل : تزوج فلان فلانة ،فجلست أنظر، وضرب الله تعالى على أذني ،فوالله ما أيقظني إلامس الشمس فرجعت الى صاحبي ،فقال : مافعلت ؟ قلت : مافعلت شيئا ، ثم أخبرته بالذي رأيت ،ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكة ،ففعل فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة ،فسألت ،فقيل: فلان نكح فلانة ،فجلست أنظر وضرب الله على أذني ،فوالله ما أيقظني إلامس الشمس " قال صلى الله عليه وسلم: "فوالله ماهممت بعدهما بسوء مما يعمله أهل الجاهلية حتى أكرمني الله بنبوته"(1).

وفي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينقل الحجارة مع قومه للكعبة وعليه إزاره فقال له العباس يا ابن أخي لوحللت إزارك فجعلته على منكبيك دون الحجارة - وكان القوم يفعلون ذلك - ،فحلّ صلى الله عليه وسلم إزاره فجعله على منكبيه) فسقط مغشيا عليه، فما رئي بعد ذلك عريانا صلى الله عليه

(1) أخرجه ابن حبان في صحيحه ، انظر الإحسان ٥٦/٨ ،والبزار ، انظر كشف الأستار ١٢٩/٣ وقال الهيثمي " رجاله ثقات " مجمع الزوائد ٢٢٦/٨،وكذا أخرجه أبونعيم في الدلائل ص ١٨٦ ،والبيهقي في الدلائل ٣٣/٢،وقال ابن حجر: " هوحديث حسن متصل ورجاله ثقات " المطالب العالية ١٧٨/٤ وانظر الخصائص الكبرى ٨٨/١.

وسلم.(١)

فالله عز وجل قد عصم أنبياءه من قبل النبوة عما يُصَغِّر أقدارهم، ولذا كانت لهم في أقوامهم المنزلة السامية، ولهم فيهم الذكر الحسن والثناء الجميل.

ولا غرو، فإن الله صنعهم على عينه، واصطنعهم لنفسه، كما قال سبحانه في موسى عليه السلام: "ولتصنع على عيني" طه ٣٩، وقال: "واصطنعتك لنفسي" طه ٤١، وهذا وإن كان في موسى إلا أن النبوة جنس واحد.

ولقد أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن في أهل الجاهلية خيارا وقال: "الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا"(٢) قال النووي: "معناه أن أصحاب المروءات ومكارم الخلائق في الجاهلية اذا أسلموا وفقهوا فهم خيار الناس"(٣) فإذا كان في الجاهلية قبل ظهور النبوة خيار، فلاريب أن الأنبياء خير الناس قبل نبواتهم لايوازيهم في خيريتهم أحد منهم ذلك أن الله قد اصطفاهم من بين سائر الناس للنبوة، وقد قال سبحانه: "الله أعلم حيث يجعل رسالته" الأنعام ١٢٤، والله لايجعل

---

(١) انظر صحيح البخاري مع الفتح ٤٧٤/١ و٤٣٩/٣ و١٤٥/٧، وصحيح مسلم ٢٦٨/١

(٢) أخرجه البخاري انظر صحيحه مع الفتح ٥٢٥/٦ وانظر ٣٨٧/٦ و ٤١٤ و٣٦٢/٨، وصحيح مسلم ١٨٤٧/٤.

(٣) شرح النووي لمسلم ١٣٥/١٥.

رسالته إلا فى المواضع الشريفة ،ولاينيطها الا بالأطهار،قال أبونعيم :" إن الأحسن فى سير الملوك ،والأحمد فى حكمهم،أنهم لايرسلون مبلغا عنهم إلا الأفضل ،المستقل بأثقال الرسالة، قد ثقفته خدمته وخرجته أيامه ،والعقول تشهد أن مثله مقيضا مرتادا عند المرسل لمثله فى الإبلاغ والتأدية عنه ،فالله الحكيم القدير لايختار للرسالة إلا المتقدم على المبعوث إليهم ،المزين بكل المناقب ،ولهذا لم يوجد نبي قط به عاهة فى بدنه أو اختلاط فى عقله ،أودناءة فى نسبه ،أورداءة فى خلقه ،وإليه رجع قوله عز وجل "الله أعلم حيث يجعل رسالته ") وقال ابن القيم: (1)

" فالله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالاته أصلا وميراثا (2) ،فهو أعلم بمن يصلح لتحمل رسالته فيؤديها إلى عباده بالأمانة والنصيحة وتعظيم المرسل والقيام بحقه والصبرعلى أوامره والشكر لنعمه والتقرب إليه ومن لاصلح لذلك ". (3)

فالأنبياء هم خيار الناس من قبل نبواتهم.

---

(1) دلائل النبوة ص ٣٤ – ٣٥ .

(2) يقصد بالميراث وراثة الرسل والقيام بحمل مابلغوه عن ربهم وخلافتهم فيه .

(3) طريق الهجرتين ص ٩٧.

المبحث الثانى : حقيقة النبوة :

النبوة منزلة سامية لاتبلغها فى فضلها منزلة مما يهبه الله لعباده ،فإنها إنباء عن الله وواسطة بينه وبين خلقه فى تبليغهم مراده وشرعه،وحقيقة النبوة أنها نعمة من الله يمن الله بها على من يشاء من عباده باختياره سبحانه واصطفائه ،قال تعالى :" أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا " مريم ٥٨ ،وقال تعالى : " الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس " الحج ٧٥ ، وقال تعالى : " وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار" ص ٤٧، وقال سبحانه فى ابراهيم عليه السلام : " ولقد اصطفيناه فى الدنيا" البقرة ١٣٠ وقال فى موسى عليه السلام :" انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى " ـالأعراف ١٤٤ ،وقال تعالى :" إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين" آل عمران ٣٣ ،وقال تعالى لموسى عليه السلام :" وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى " طه ١٣.

فالنبوة اختيار من الله واصطفاء واجتباء وهبة منه سبحانه يهبها من يشاء " الله أعلم حيث يجعل رسالته " الأنعام ١٢٤.

فلا يبلغها أحد باكتساب ولابكشف ولابرياضات ،ولاترجع الى جسم النبي ولا الى صفة من صفاته (1)بل ولاإلى علمه بكونه نبيا، قال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم :" وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان" - الشورى ٥٢ ،فالنبي يجهل كونه نبيا حتى يطلعه الله على ذلك . بل إن النبي لايطمع قبل النبوة أن يكون نبيا ،قال سبحانه :" وماكنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك " القصص ٨٦، فلا تُبْلغ النبوة بطمَع فيها) بل هى رحمة من الله بمن اختاره لها ،وفوق ذلك فإن النبي لايضمن بقاء الوحي محفوظا لديه بعد النبوة) قال سبحانه :" ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لاتجد لك به علينا وكيلا، الا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيرا " الاسراء ٨٦-٨٧ ،يقول ابن جرير فى تفسيرها :" يقول تعالى ذكره :ولئن شئنا لنذهبن يامحمد بالذى أوحينا إليك ولكنه لايشاء ذلك رحمة من ربك وتفضلا منه عليك إن فضله كان عليك كبيرا باصطفائه إياك لرسالته وإنزاله عليك كتابه وسائرنعمه

---

(1) انظر فتح البارى ٦/٣٦١.

التى لاتحصى "[1]. والنبوة كذلك ليست تجارة يتاجر بها من شاء

ولذلك نفى الله عن أنبيائه طلب الأجر على الدعوة فى نحو

قوله :" وماتسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين"

يوسف ١٠٤ ،وكان كل نبي يقول لقومه :" ما أسألكم عليه

من أجر"[2]. فالنبوة اذا محض اختيار من الله واصطفاء

واجتباء ،ولذلك رد الله زعم المشركين أن النبوة

لاتليق إلا برجل عظيم من الأثرياء حين قالوا - فيما حكاه

الله عنهم - :" لو لانُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين

عظيم " الزخرف ٣١ رد عليهم سبحانه قائلا :" أهم يقسمون

رحمة ربك ،نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا

ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات " الزخرف ٣٢. يقول ابن كثير

فى تفسيرها :" أى ليس الأمر مردودا إليهم بل إلى الله

عز وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فإنه لاينزلها إلا على

---

(١) تفسير الطبرى ١٥/١٠٦.

(٢) انظر الآيات رقم ١٠٩ ،١٢٧ ،١٤٥ ،١٦٤ ،١٨٠ من سورة الشعراء، والآية ٩٠ من سورة الأنعام ،والآية ٧٢ من سورة يونس ،والآية ٥١ من سورة هود ،والآية ٥٧ من سورة الفرقان ،والآية ٢٣ من سورة الشورى والآية ٤٦ من سورة القلم.

أزكى الخلق قلبا ونفسا وأشرفهم بيتا وأطهرهم أصلا"(1)

فبيّن سبحانه في رده زعمهم: أن النبوة رحمة منه يخص بها من يشاء من عباده، وأنها منزلة رفيعة يرفع الله بها عبده فوق خلقه درجات.

ثم إن النبوة قد انقطعت بعد محمد صلى الله عليه وسلم فلا نبي بعده البتة، قال تعالى: "ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين" الأحزاب ٤٠ وقال صلى الله عليه وسلم: "بي ختم النبيون"(٢) وقال صلى الله عليه وسلم "أنا خاتم النبيين"(٣) وقال صلى الله عليه وسلم "إنه لانبي بعدي"(٤) وفي الجملة فإن كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأنه لانبي بعده ثابت بالتواتر من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم(٥). كما هو ثابت بالقرآن أيضا. فلا مطمع لأحد في هذه المنزلة بعده صلى الله عليه وسلم، ولم يبلغها من البشر إلا هو ومن تقدمه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فلا يبلغها غيرهم الى قيام الساعة

(١) تفسير ابن كثير ١٢٨/٤

(٢) متفق عليه، وقد تقدم.

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة - انظر البخاري مع الفتح ٥٥٨/٦ وصحيح مسلم ١٧٩١/٤.

(٤) أخرجه البخاري انظر صحيحه مع الفتح ٤٩٥/٦.

(٥) انظر نظم المتناثر ص ١٣٢.

المبحث الثالث : الأنبياء أفضل البشر :

الأنبياء هم أفضل البشر على الإطلاق ،هذه هي دلالة الكتاب والسنة والإجماع والنظر الصحيح.

أما الكتاب :

فقد قال سبحانه وتعالى مبينا مراتب أوليائه :" ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا" النساء٦٩.

فالله قدرتب عباده السعداء المنعم عليهم أربع مراتب وبدأ بالأعلى منهم وهم النبيون[١]، وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أن بعض الصحابة رضوان الله عليهم قد شق عليهم أن النبي صلى الله عليه وسلم - في الجنة يرفع مع النبيين في الدرجات العلا فتكون منزلتهم دون منزلته فلا يصلون إليه ولايرونه ولايجالسونه[٢]،فنزلت الآية مبينة أن من أطاع الله ورسوله يكون من نعيمه في الجنة أن يتمكن من مجالسة الأنبياء ورؤيتهم وزيارتهم ، فلا يفوته

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٢٧٣/٥ والفتاوى ٢٢١/١١.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٠٤/٥ ،وحلية الأولياء ٢٤٠/٤ و١٢٥/٨ وأسباب النزول للواحدي ٩٤و ٩٥ ،وانظر الدرالمنثور ١٨٢/٢ ،ولباب النقول - بهامش الجلالين - ١٧٤.

ذلك ولذلك قال سبحانه :" مع الذين أنعم الله عليهم " وقال " وحسن أولئك رفيقا " وهذه المعية والرفقة لاتعني تساويهم في الدرجة ،بل هم متفاوتون،لكنهم يتزاورون ويتجالسون ويأنسون بقربهم كما كانوا في الدنيا،وهذا بفضل الله لاتباعهم الأنبياء واقتدائهم بهم.(١)

فالآية نص في تفضيل الأنبياء على البشر فهم أفضل أولياء الله وأرفعهم درجة على الإطلاق .

- وذكر سبحانه جملة من الأنبياء في آيات من سورة الأنعام ثم قال في آخرها " وكلا فضلنا على العالمين " الأنعام ٨٦ ، قال ابن سعدي في تفسير الآية : " وكلا من هؤلاء الأنبياء والمرسلين فضلنا على العالمين ،لأن درجات الفضائل أربع وهي التي ذكرها الله بقوله :(ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) فهؤلاء من الدرجة العليا ".(٢)

- وقال سبحانه وتعالى :" إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين " آل عمران ٣٣. قال

---

(١) انظر تفسير الرازي ١٧١/١٠ ،وتفسير القرطبي ٢٧٢/٥،وتفسير الخازن ٥٥٧/١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٢٠٠/٢.

الرازي مبينا وجه الترابط بين هذه الآية والآيات قبلها :" إعلم أنه تعالى لما بين أن محبته لاتتم إلا بمتابعة الرسل بيّن علو درجات الرسل وشرف مناصبهم"[1] وقال فى معرض تفسيره للآية :" بين تعالى أنه اصطفى آدم وأولاده من الأنبياء على كل العالمين ".[2]

فالآية فى ذكر الأنبياء خاصة وإن قيل فى تفسير لفظ " الآل " فيها بأن المقصود به سائر المؤمنين من ذرية ابراهيم وعمران أنبياء وغير أنبياء ،ويشهد لتخصيصها الأنبياء فقط وأنهم هم المعنيون بتفضيلهم على العالمين دون غيرهم أمور:

١ - قوله سبحانه " إن الله اصطفى " والمراد الاصطفاء بالنبوة كما قاله الحسن وغيره[3] ، وكذا قد ورد الاصطفاء مرادا به الاصطفاء بالنبوة فى عدد من آيات الكتاب عند ذكر النبيين ،كقوله سبحانه " الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس" الحج ٧٥ ،وقوله فى موسى:

---

(١) تفسير الرازي ١٩/٨.

(٢) تفسير الرازي ٢٠/٨.

(٣) انظر تفسير الطبري ١٥٧/٣.

" إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى" الأعراف ١٤٤،

وقوله " وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار" .

٢- أنه قد أطلق سبحانه وتعالى وصف الاصطفاء وعنى به الرسل خاصة فى قوله " قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى " النمل ٥٩ ،والرسل هم المصطفون من عباد الله الذين سلم عليهم فى العالمين كما بينه سبحانه فى كتابه جملة وتفصيلا كقوله سبحانه :" وسلام على المرسلين والحمدلله رب العالمين " الصافات ١٨١ - ١٨٢ فقوله " سلام على المرسلين " كقوله : " سلام على عباده الذين اصطفى " - وقال سبحانه :" سلام على نوح فى العالمين" - الصافات ٧٩ وقال :" وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على ابراهيم " الصافات ١٠٨ - ١٠٩ ،وقال :" وتركنا عليهما فى الآخرين . سلام على موسى وهارون " الصافات ١١٩ - ١٢٠.

فكما أطلق سبحانه الاصطفاء فى آية النمل وهو مقيد فى الاصطفاء بالنبوة فكذا فى آية آل عمران هذه .

٣- أن الله قد ذكر فى الآية النبيين آدم ونوحا ثم ذكر آل ابراهيم وآل عمران وفيه اشارة الى أن المراد بالآل

الأنبياء خاصة من ذرية ابراهيم وذرية عمران لاعامة المؤمنين.

٤- أن الله قدذكر آل ابراهيم وآل عمران لأن الأنبياء بعد ابراهيم لم يكونوا الا من ذريتهما،فجمع ذكرهم فى لفظ الآل ،وهو سبحانه قد ذكر آل ابراهيم وآل عمران فقط، ويكون فى المؤمنين من ليس من ذريتهم،ممايشهد بأن الآية خاصة بالنبيين.

٥- أن الله قد خص آل عمران بالذكر مع كونهم من ذرية ابراهيم فيشملهم ذكر آل ابراهيم ،وذلك لأن النبوة أكثر ماوقعت وأكثر ماكان الأنبياء من آل عمران خاصة من ذرية ابراهيم،ولم يكن من الأنبياء من ذرية ابراهيم من سوى آل عمران إلا اسماعيل واسحاق ويعقوب ويوسف ومحمد عليهم الصلاة والسلام،فى حين كان من ذرية عمران موسى وسائرأنبياء بنى اسرائيل الى عيسى عليهم السلام وهم كثرة كاثرة كماهو معلوم من دلالات الكتاب والسنة فتخصيص آل عمران بالذكر فيه تنبيه الى أن المراد بالآية الأنبياء من ذرية ابراهيم دون غيرهم من سائرالمؤمنين.

٦- أن قوله سبحانه " على العالمين " شاهد علىأن المرادبالآية

الأنبياء من بين سائر المؤمنين ،ذلك أن اصطفاء المؤمنين

وتفضيلهم على الكافرين أمر ظاهر ظهورا يُستغنى

به عن الذكر، فكيف بتفضيل النبيين واصطفائهم على

الكافرين، والنبيون معنيون فى الآية بلاخلاف ، فأن يكون المراد

اصطفاء النبيين وتفضيلهم على سائر المؤمنين أولى ،والله أعلم.

هذا ،وقد قال بعض المفسرين بأن المراد بآل ابراهيم وآل عمران

الأنبياء منهم ،وقال بعضهم المراد بآل ابراهيم - ابراهيم

نفسه (1).

والحاصل فإن الآية نص فى تفضيل الأنبياء على البشر سواء

كانت فى الأنبياء خاصة وهو الأظهر ،أوكانت فيهم وفى أتباعهم

من المؤمنين عامة، فإنه اذا كان المؤمنون أفضل البشر قد

اصطفاهم الله على العالمين فالأنبياء هم الأفضل إطلاقا بطريق

الأولى .

أما السنة : فمن أدلتها على أن الأنبياء أفضل البشر :

- قوله صلى الله عليه وسلم لماسئل عن أشد الناس بلاء قال:

---

(1) انظر زاد المسير 1/374.

" الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل " [1] وهذا صريح فيأن الأنبياء أمثل البشر.

- وقال صلىالله عليهوسلم فيأبي بكر وعمر :" هذان سيدا كهول أهل الجنة منالأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين " [2]، وفي هذا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٧٢/١ وقال أحمدشاكر في ترتيبه ٤٥/٣ ، "إسناده صحيح " وأخرجه الدارمي ٣٢٠/٢ وابن ماجة ١٤٣٤/٢ ، والترمذي ٥٢٠/٤ وقال الترمذي " هذا حديث حسن صحيح " والطيالسي ص ٣٠ ،والحاكم ٤١/١ وقال الحاكم :" وهذا حديث صحيح على شرط الشيخين " ،وانظر صحيح الجامعالصغير ٤٨/٢ والفتح الرباني١٢٨/٩.

(٢) أخرجه ابنأبي شيبة في مصنفه ١١/١٢ ،وابن ماجة ٣٦/١و٣٨والترمذي ٥٧٠/٥ -٥٧١، وعبدالله بنأحمد في فضائل الصحابة ١٢٣/١ ، و ١٨٩ ٣٧٧،وفي زيادات المسند ٨٠/١ وقال أحمد شاكر في ترتيبه ٣٧/٢: " إسناده صحيح " ،وأخرجه الدولابي في الكنى ١٢٠/١و٩٩/٢ وابن حبان في صحيحه انظرالإحسان ٢٥/٩ وموارد الظمآن ٥٣٨، وانظر مجمع الزوائد ٥٣/٩ ،والحديث له طرق منها الحسن لذاته ومنها الضعيف قال الألباني فيه: " وجملة القولان الحديث بمجموع طرقه صحيح بلاريب ،الامن بعض طرقه حسن لذاته كما رأيت وبعضه يستشهد به " سلسلة الصحيحة ٤٩٢/٢. وانظر الفردوس ٥٣٠/١.

الاستثناء الدليل على أن الأنبياء أفضل الأولين والآخرين.

- ورُوي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :"إن الله اختار أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين "(1).

- واستدل ابن تيمية رحمه الله على فضل الأنبياء على سائر الناس بحديث :" ماطلعت الشمس ولاغربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبي بكر الصديق "(2).

أما الإجماع ،

فقد قال ابن تيمية رحمه الله :" وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أولياء الله تعالى على أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء "(3).

وقال :" الأنبياء أفضل الخلق باتفاق المسلمين وبعدهم الصديقون والشهداء والصالحون "(4) وذكر رحمه الله أن تفضيل بعض الفرق غير النبي على النبي مخالف لإجماع الأمة (5).

(1) أخرجه البزار - كشف الأستار ٢٨٨/٣ ،وقال الهيثمي في المجمع ١٦/١٠: رجاله ثقات وفي بعضهم خلاف .

(2) الفتاوى ٣٣٩/٤ ،و٢٢١/١١ ،والحديث أخرجه أبونعيم في الحلية ٣٢٥/٣ وقال أبونعيم:" غريب من حديث عطاء عن أبي الدرداء تفرد به عنه ابن جريج" .وأخرجه البغدادي في التاريخ ٤٣٨/١٢وفيه ابن جريج وعطاء يد لسان وقد روياه بالعنعنة ، انظر التقريب ٥٢٠/١و ٢٣/٢ وتعريف أهل التقديس ٩٥،ولاريب أن الحديث صحيح المعنى.

(3) الفتاوى ٢٢١/١١.

(4) منهاج السنة ٤١٧/٢.

(5) انظر الفتاوى ٣٦٤/١١.

أمـــا النظـر الصحيـــح :

فإن العقـل يقضـى بكون الأنبيـاء خيـر الخلق وأفضلهـم، لأنهـم رسـل اللـه والواسطـة بينه وبين خلقـه فى تبليغهم شرعـه ومراده من عبـاده ، وشـرف الرسول من شـرف المرسل وشـرف الرسالة ، وهم المصطفـون من عباد الله اصطفاهـم الله واختارهم واجتباهـم ولا يختـار سبحانه من الخلـق إلا أكرمهـم عليـه وأفضلهـم عنده وأكملهـم لديه ، قال ابن القيم رحمـه اللـه :" ويكفـى فى فضلهـم وشرفهـم أن اللـه سبحانه وتعالـى اختصهـم بوحيـه ، وجعلهـم أمناء علـى رسالتـه ، وواسطة بينـه وبين عبـاده ، وخصهـم بأنواع كراماتـه فمنهم من اتخـذه خليـلا ، ومنهـم من كلمـه تكليمـا ، ومنهـم من رفعـه مكانا عليـا على سائرهم درجات ، ولم يجعل لعبـاده وصولا اليه الا من طريقهم ، ولا دخـولا الى جنتـه إلا خلفهـم ، ولـم يكرم أحـدا منهـم بكرامـة الاعلـى أيديهـم فهـم أقـرب الخلـق اليه وسيلـة وأرفعهـم عنده درجة وأحبهـم إليـه وأكرمهـم عليه ، وبالجملـة فخيـر الدنيا والآخرة انما نالـه العبـاد على أيديهـم وبهم عرف اللـه وبهـم عبد وأطيـع وبهـم حصلـت محابـه تعالى فى الأرض ".(١)

---

(١) طريق الهجرتين ٣٥٠.

وأعلى منازل الخلق،في تحقيق العبودية لله عز وجل،

ولقد حقق الأنبياء عبوديتهم لله فكانوا عباد الله المخلصين الذين

بين سبحانه أنهم هم الذين ينجون من السيئات التي يزينها

الشيطان ،قال الشيطان × "رب بما أغويتني لأزينن لهم في

الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين " الحجر

٣٩ – ٤٠ وقال :" فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم

المخلصين " ص ٨٢ – ٨٣ ،وقد قال الله في حق يوسف عليه

السلام " كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا

المخلصين " يوسف ٢٤ ، فالأنبياء من المخلصين الذين أخلصهم

الله واصطفاهم من خلقه فحققوا العبودية له سبحانه

ولذلك نعتهم الله بالعبودية التي حققوها فكانوا خير

الخلق فيها وبها ،قال سبحانه :" واذكر عبادنا إبراهيم

وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار إنا أخلصناهم بخالصة

ذكرى الدار وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار " ص ٤٥ – ٤٧ ،

وقال سبحانه :" واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب " ص ١٧،

وقال عن سليمان : " نعم العبد إنه أواب " ص ٣٠ ، وعن أيوب

"إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب " ص ٤٤، وعن

نوح :" إنه كان عبدا شكورا " الاسراء ٣٠ ونعت سبحانه

خير خلقه بالعبودية في المقامات الشريفة فقال في الاسراء

" سبحان الذى أسرى بعبده " الاسراء ،وقال فى الدعوة

" وأنه لما قام عبدالله يدعوه " الجن ٩ وقال فى الوحى

" فأوحى إلى عبده ما أوحى " النجم ١٠ ،ولقد قام صلى

الله عليه وسلم يصلى لله حتى تورمت قدماه ، وتفطرتا ،

فقيل له : يارسول الله أتصنع هذا وقد غفرلك ماتقدم

من ذنبك وماتأخر؟ قال صلى الله عليه وسلم :" أفلا أكون

عبدا شكورا " (١) فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد حققوا

العبودية لله فهم أتم الخلق عبودية لله ولذلك فهم أكمل

الخلق وأفضلهم.

وقد اتضح فى المبحثين السابقين أمران ظاهرا الدلالة

على أفضلية الأنبياء على البشر وهما :

أولا .. أن الأنبياء كانوا خيار أقوامهم قبل نبواتهم فقد

عصمهم الله عما يصغر أقدارهم.

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة والمغيره بن شعبة ، انظر صحيح البخارى

مع الفتح ١٤/٣ ،٥٨٤/٨، وصحيح مسلم ٢١٧١/٤ و ٢١٧٢.

ثانيا .. أن النبوة اختيار من الله واصطفاء لاتبلغ بكسب ولابغيره . فجمع الله للأنبياء الفضل من أطرافه ميزهم على خلقه من قبل النبوة ثم زادهم فضلا عليهم بالنبوة ،فلا يبلغ أحد منزلتهم .

وبينت أيضا أن النبوة قد انقطعت وختمت بمحمد صلى الله عليه وسلم فلاتكون فضيلة النبوة ومنزلة الأنبياء لأحد بعده البتة ،وعليه فمنزلة النبوة وفضلها مخصوص فى عدد محصور من الخلق وهم الأنبياء ،لايشاركهم فيه أحد .

المبحث الرابع : عرض المقالات الباطلة في هذا الباب :

١: القول بجواز أن يكون في البشر من يوازي الأنبياء، وجواز أن يكون فيهم من هو أفضل من الأنبياء :

حكى ابن حزم القول بجواز أن يكون في البشر من يوازي الأنبياء عن الجبائي، وحكى القول بجواز أن يكون فيهم من هو أفضل من الأنبياء عن الباقلاني فقال :" إن الجبائي (أ) قال: جائز إن طال عمر امرىء أن يعمل مايوازي عمل نبي من الأنبياء، وقال الباقلاني (ب) : جائز أن يكون في الناس من هو أفضل من رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث بعث بالنبوة إلى أن مات ".(١)

---

(١) الفصل ١١٤/٤ ،ولم أجد فيمابين يدي من مراجع قول الجبائي ولاأستبعده منه فإن له شنعا أشد من مثل هذا كثيرة ،وكذا لم أقف على قول الباقلاني هذا في مابين يدي من كتبه أومن المراجع غيرها ،وانما نقل ابن حزم كلامه بواسطة ولم يقف عليه كماصرح به في ١٦٤/٤ و ٢٢٥ في الفصل .

- - - - - - - - - - - - - - -

(أ) هو محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي ، أحد أئمة المعتزلة ،ورأس الطائفة الجبائية ،ت ٣٠٣هـ - انظر البداية والنهاية ١٢٥/١١.

(ب) هو محمد بن الطيب ، أبوبكر القاضي ،رئيس الأشاعرة في عصره ،كان ذكيا حسن الجواب ،ت ٤٠٣هـ. انظر تاريخ بغداد ٣٧٩/٥

وهذا قول مرذول مردود على من قال به ، وليس مورد المفاضلة بين الأنبياء والبشر ماذكر، فإنه ان وقع أن عاش أحد أكثر من النبي وعمل عملا أكثر منه فى مجموع حياته، فأنّى له أن يدرك فضل النبوة ومنزلتها ،وكذا إن كان عمله أكثر فى صورته فأنّى له أن يدرك فضل أصل عمل النبي ،فعمل النبي طاعة لله وتشريع لأمته، وعمل غيره طاعة لله ومتابعة للنبي ،ثم إن ركعة من نبي، بل ومع نبي، خير من ركعة من غيره أومع غيره ،فأنّى لعامل أن يدرك فضل عمل النبي وقد قال صلى الله عليه وسلم لصحابته :" قدعلمتم أني أتقاكم لله وأصدقكم وأبركم"[1].

وقال :" أما والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له"[2]

وقال :" إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا"[3] فالنبي أعلم بالله من سواه وأتقى لله وأخشى له وأصدق وأبر،وما أساس

---

(١) متفق عليه من حديث جابر ، البخارى مع الفتح ٣٣٧/١٣،ومسلم ٨٨٣/٢.

(٢) أخرجه البخارى عن أنس انظره مع الفتح ١٠٤/٩،ومسلم عن عمر بن سلمة ٧٧٩/٢.

(٣) أخرجه البخارى ، انظر الصحيح مع الفتح ٧٠/١.

التفاضل فى الأعمال إلا هذا لامجرد صورة العمل ،وإذا كان سعيد بن زيد ـ رضى الله عنه ـ وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقسم فقال لأهل الكوفة فى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم :" والله لمشهد شهده الرجل منهم يوما واحدا فى سبيل الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من عمل أحدكم ولو عمر عمر نوح "(1) فهذا قول من يعتد بقوله ويؤخذ به فى العمل مع النبي فكيف بالعمل من النبي نفسه . وقال ابن تيمية رحمة الله الله :" قال غير واحد من الأئمة :إن من صحب النبى صلى الله عليه وسلم أفضل ممن لم يصحبه مطلقا ،وعينوا ذلك فى مثل معاوية وعمر بن عبدالعزيز مع أنهم معترفون بأن سيرة عمر بن عبدالعزيز أعدل من سير معاوية ،قالوا : لكن ماحصل لهم بالصحبة من الدرجة أمر لايساويه ماحصل لغيرهم بعلمه "(2) فهذا فيمن صحب النبي فكيف بالنبي نفسه . وذلك التجويز من أولئك المتكلمين وأمثالهم إنما

---

(1) أخرجه بن شيبة فى المصنف ١٣/١٢ ،وأحمد فى المسند ١٨٧/١،وقال أحمد شاكر فى ترتيبه ١٠٨/٣ " إسناده صحيح " ،وأبوداود فى السنن ٢١٢/٤ ،وقال المنذر " فى مختصر سنن أبى داود ٢٩/٧ :" وأخرجه النسائى وابن ماجة ")وأخرجه أبونعيم فى الحلية ٩٥/١.

(٢) الفتاوى ٥٢٧/٤

مبناه عندهم الجواز العقلي لا الشرعي، بناء على ما أصلوه من أن الله يجوز أن يفعل كل ممكن، وإلا فهم متفقون على أن الأنبياء أفضل الخلق لكن يقولون : هذا لم يعلم بالعقل بل علم بالسمع[1] .

٢ : مقالة تفضيل الولي على النبي :

لقد كان أول من تكلم بهذه المقالة غالطا ،الحكيم الترمذي أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن أحد الأئمة الحفاظ المحدثين ،فقد كان يفضل الولاية على النبوة فأنكر عليه ذلك وأخرج من ترمذ ، وشهدوا عليه بالكفر[2] ، وإنما أُتي -غفر الله له - فيما يبدو، من جهة الاستنباط الخاطئ وسوء الفهم ،فقد قال في قوله صلى الله عليه وسلم في المتحابين في الله :" يغبطهم النبيون والشهداء " في رواية بزيادة :" بمكانهم من الله " ،وفي رواية :" يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون"

---

(١) انظر منهاج السنة النبوية ٤١٩/٢.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ٤٤١/١٣ ،وتذكرة الحفاظ ٦٤٥/٢ وطبقات الشافعية الكبرى ٢٠/٢ ،ولسان الميزان ٣٠٨/٥ ، الصفدية ٢٤٨/١.

وفى رواية " ليسوا بأنبياء ولاشهداء "(1).

قال الحكيم الترمذى :" لو لم يكونوا أفضل منهم لم يغبطوهم "(2)

وهذا بُعْدُ فهم، ووهم فى الاستنباط، فإنه لايلزم من غبطة الأنبياء

---

(1) انظر روايات هذا الحديث عن معاذبن جبل وعبادة بن الصامت وأبوهريرة وأبومالك الأشعرى، أخرجه عن معاذ: الترمذي فى سننه ٥١٦/٤ وقال :" هذا حديث حسن صحيح "، والحاكم فى مستدركه ٤٢٠/٤ وقال : " هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه " وقال الذهبى :" صحيح "، وأخرجه عن معاذ وعبادة أحمد فى المسنده/ ٢٢٩و ٢٣٩ و٣٢٨ وقال الهيثمي فى المجمع ٢٧٩/١٠:" رجاله رجال الصحيح " وابن حبان فى صحيحه انظرالإحسان ٣٩٢/١ وموارد الظمآن ٦٢٢، وأخرج حديث أبى هريرة : ابن حبان فى صحيحه، انظرالإحسان ٣٩٠/١ وموارد الظمآن ٦٢١، وقال المنذري فى الترغيب ٢٠/٤ " رواه النسائى " ولم أعثرعليه فى السنن، والبزار انظر كشف الأستار٢٢٨/٤، وأخرج حديث أبى مالك :أحمد فى المسنده/٣٤١، ٣٤٢ ٣٤٣، وقال الهيثمي فى المجمع ٢٧٧/١٠ " رواه أبويعلى ورجاله رجال الصحيح غير حوشب وقد وثقه غيرواحد ".

(2) انظر المراجع فى الإحالة قبل السابقة.

والصديقين والشهداء لهم أن يكونوا أفضل منهم ،فإنه قد يقع للمفضول من الفضل مالايكون للفاضل ، كماتقرر فيما سبق وبينته ،فإذا غَبَطَ الفاضلُ للمفضول تلك الفضيلة، فلا يُنقص ذلك من منزلته، بل هو دال على تمام فضله ،وهذا الشهيد قد كتب الله له من النعيم، ماخصه به دون سائر المؤمنين وفيهم من هو أفضل منه وهم الأنبياء والصديقون، وقد قال صلى الله عليه وسلم " مامن عبد يموت له عند الله خير يسره أن يرجع الى الدنيا وأنّ له الدنيا ومافيها إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة ، فإنه يسره أن يرجع الى الدنيا فيقتل مرة أخرى "(1)

وفى رواية أخرى قال صلى الله عليه وسلم :" ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع الى الدنيا وله ماعلى الأرض من شيء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة "(2)

ففى حصر النبى صلى الله عليه وسلم هذا التمنى فى الشهداء

---

(1) متفق عليه أنظر البخارى مع الفتح ١٥/٦ وصحيح مسلم ١٤٩٨/٣.

(2) متفق عليه أنظر البخارى مع الفتح ٢٢/٦ وصحيح مسلم ١٤٩٨/٣.

من بين سائر الموتى من المؤمنين[1] دليل مجمل على اختصاص الشهيد ببعض النعيم مع أن فيهم من هو أفضل منه ،

ولقد تمنى النبي صلى الله عليه وسلم - الشهادة فقال :" والذى نفسى بيده لوددت أنى أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ،ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل "[2]

ومن ذا يقول أن الشهيد أفضل من النبي صلى الله عليه وسلم لأن النبي تمنى الشهادة ؟!!. والحكيم الترمذي كان قد صنف مصنفا غلط فيه فى مواضع كما قال ابن تيمية[3]، وهو كتابه

---

(1) وقد وردت أحاديث فيها شىء من التفصيل لبعض ما اختص به الشهيد كالحديث الصحيح الذى فيه أن أرواح الشهداء فى جوف طير خضر وأن لها قناديل معلقة بالعرش تسرح فى الجنة حيث شاءت ثم تأوى الى تلك القناديل وفى الحديث الصحح الآخر أن نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة ،فخص الشهيد بأن روحه فى جوف طير فى حين أن أرواح سائر المؤمنين تطير بأنفسها .

(2) متفق عليه انظر البخارى مع الفتح ١٦/٦ وصحيح مسلم ١٤٩٦/٣-١٤٩٧.

(3) انظر الفتاوى ٢٢٣/١١.

" ختم الولاية " الذى نُفي من ترمذ وأخرج منها وشهد عليه أهلها بالكفر بسبب تصنيفه (1) وقد قال الترمذى الحكيم عن نفسه :

" ماصنفت شيئا عن تدبير ولا لأن ينسب اليّ شيء منه ولكن كان إذا أشتد على وقتى كنت أتسلى بمصنفاتى " (2) وهذا كاف فى توهين مقالاته فى هذه المسألة وأنها منه نزغة اصطادها قلمه عن

---

(1) انظر سير أعلام النبلاء ٤٤١/١٣ ،وتذكرة الحفاظ ٦٤٥/٢ وطبقات الشافعية الكبرى ٢٠/٢ ولسان الميزان ٣٠٨/٥ ،وكتاب ختم الولاية أو الأولياء لايوجد منه سوى عناوين فصوله وشرح لبعض فصوله كتبه مجهول ـ كما فى تاريخ الأدب العربى ٧٠/٤ وقال محقق الجزء ١٣ من كتاب سير أعلام النبلاء ص ٤٤١ " لم يصل الينا مستقلا إلاأن ابن عربي الحاتمي حفظ لنا صورة عنه فى كتابه الفتوحات المكية فى مجموعة المائة والخمس والخمسين سؤالا" ،ولكن ابن عربى لم ينص على كتاب الحكيم هذا بل قال :" اعلم أن الدعاوى لما استطال لسانها فى هذا الطريق من غير المحققين قديما وحديثا جرد الامام صاحب الذوق التام محمد بن على الترمذى الحكيم مسائل تمحيص واختبار وعددها مائة وخمسة وخمسون سؤالا لايعرف الجواب عنها الا من علمها ذوقا وشربا "الى ان قام :" فجعلت هذا الباب مجلاها " وسرد الأسئلة وأجاب عنها فى مائة صفحة الفتوحات المكية ٣٩/٢ ـ ١٣٩.وزعم الشعرانى كما فى بغية المستفيد ص ١٩٣ أن الحكيم ألقى كتابيه فى الختم وفى علل الشريعة لما شنعوا عليه بما فيهما من تفضيل الولاية على النبوة ألقاهما فى البحر فابتلعتهما سمكة ثم لفظتهما وانتفع بهما "

(2) سير أعلام النبلاء ٤٤١/١٣ ـ ٤٤٢ ولسان الميزان ٣٠٨/٥.

غير فقه ولاتدبر ،وقد زعم فى كتابه ذلك أن للأولياء

خاتم كما أن للأنبياء خاتم ،ولم يتكلم آحد من المشايخ المتقدمين

بمثل ماتكلم به ،قال ابن تيمية - رحمه الله - :" وخاتم الأولياء

كلمة لاحقيقة لفضلها ومرتبتها وإنما تكلم أبوعبدالله الترمذى

بشىء من ذلك غلطا لم يسبق إليه ولم يتابع عليه ولم يستند

فيه الى شىء " [(١)] قال رحمه الله :" وهو من غلطاته فإن الغالب

على كلامه الصحة " [(٢)]. وكما قال ابن تيمية رحمه الله لم يتابع

الترمذي الحكيم على مقالتيه ،فانتهتا حيث ابتدأتا ،كلمات

فى مصنف تسلى بها صاحبه ،ماكانت عن تدبير، ولايريد هو أن ينسب

إليه شىء منها ،حتى جاءت طائفة من المتأخرين منتحلى التصوف

فطاروا بالمقالتين ،وسعوا بهما فى الناس بخيلهم ورجلهم،

نادوا بها ودعوا إليها وصنفوا فيها ،فصارتفضيل الولي

على النبي ،ودعوى أن للأولياء خاتم هوأفضلهم كما أن للأنبياء

خاتم هو أفضلهم ،صار ذلك عقيدة عند طائفة من المتصوفة

وبخاصة غلاتهم أهل وحدة الوجود ،وكان ممن تولى كبر هذه

العقيدة ابن عربى الحاتمى أحد رؤوس الاتحادية ،وقد صرح فى

مواضع من كتبه بأن الولاية أعظم من النبوة ،ثم النبوة أعظم

---

(١) بغية المرتاد ص٣٩٢.

(٢) الفتاوى ٣٦٣/١١ وانظر الصفدية ٢٤٨/١.

من الرسالة ،فجعل الولي أفضل من الرسول والنبي ،وفضله على الرسول أعظم من فضله على النبي ،وكان مماقاله في ذلك:

(١)
سماء النبوة في برزخ .. فويق الرسول ودون الولي

ولذلك قدم في فتوحاته الكلام في معرفة مقام الولاية ثم مقام النبوة ثم مقام الرسالة (٢) ،وقال في مقام الولاية:

من صورة الحق لنا من ولايته .. جميعها فلنا في الحرب إقدام
لنا الخلافة في الدنيا محققه .. ومالها في جنان الخلد أحكام (٣)

فالأولياء عنده – وقد جعل نفسه منهم – نالوا جميع ولاية الله ولهم الخلافة على الخلق محققة ،وقال :" فالحق لأصحاب المقامات من الأولياء مطيع ،ولكلامهم سميع ،لهم جميع المقامات والأحوال وهم ذكران الرجال لايلحقهم عيب ولايقوم بهم فيماهم فيه ريب،لهم الأخرة مخلصة كماهي لله،ولهم الدنيا ممتزجة كماهي لسيدهم،فهم بصفات الحق ظاهرون ولذلك جُهلوا " (٤) وقال :" للأولياء التفريع والإقبال ولهم الستور والحجاب،إذا قرّبهم صانهم وسترهم وخباهم فجُهلوا،وإذا عاقبهم وليسوا بأنبياء أظهر عليهم خرق العوائد فعُرفوا ،فحجبوا الخلق عن الله (٤) "فعقاب الله للأولياء عنده بأن يجري لهم الخوارق ، وغمز الأنبياء

---

(١) لطائف الأسرار ص ٤٩.

(٢) الفتوحات المكية ٢٤٨/٢ – ٢٥٢ – ٢٥٦ .

(٣) الفتوحات المكية ٢٤٨/٢.

(٤) الفتوحات المكية ٢٤٩/٢.

والولي اسم باق لله "[1]. فمن حماقات هؤلاء الاتحادية أن الولاية أفضل من النبوة لأنها لاتنقطع كالنبوة ولأن الله سمّى نفسه "الولي" ولم يسم نفسه "النبي"، فهي شنع مفتراة وجرأة على الله ورسوله.

ولما كانت الولاية أفضل من النبوة عند هؤلاء كانت ولاية النبي عندهم أفضل من نبوته، يقول ابن عربي: "ان الرسول من حيث هو ولي أتم من حيث هو نبي ورسول"[2].

ثم الولاية عندهم متفاضلة، وأفضلها: منزلة خاتم الأولياء، فإن للأولياء في اعتقادهم خاتما كما أن للأنبياء خاتما، ولايقدح عندهم في مقام خاتم الأولياء كونه تابعا لخاتم الرسل في التشريع، يقول ابن عربي: "وإن كان خاتم الأولياء تابعا في الحكم لماجاء به خاتم الرسل من التشريع فذلك لايقدح في مقامه ولايناقض ماذهبنا إليه، فإنه من وجه يكون أنزل كما أنه من وجه يكون أعلى"[3] وعلق على حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي مثّل فيه

---

(١) فصوص الحاكم بشرح القاشاني ص ٢٠٤.

(٢) فصوص الحاكم بشرح القاشاني ص ٢٠٤.

(٣) الفصوص بشرح القاشاني ص ٤٢.

بقوله " وليسوا بأنبياء " فهذا عقاب خاص للأولياء عنده لايدركه الأنبياء ،ثم لما تكلم بعد مقام الولاية عن مقام النبوة افتتح بقوله :

بين الولاية والرسالة برزخ . . فيه النبوة حكمها لايجهل .(1)

فصرح بأن النبوة منزلة متوسطة بين الولاية قبلها والرسالة بعدها.

ويقول ابن عربي في فصوصه "اعلم أن الولاية هى الفلك المحيط العالم، ولهذا لم تنقطع ،ولها الإنباء العام وأما التشريع والرسالة فمنقطعة "(2). ويقول عن إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بأنه لانبي بعده :" وهذا الحديث قصم ظهور أولياء الله لأنه يتضمن انقطاع ذوق العبودية الكاملة التامة فلا ينطلق عليها اسمها الخاص بها "(2).

يقول :" والله لم يتسم بنبي ولارسول وتسمى بالولي واتصف بهذا الاسم فقال " الله ولي الذين آمنوا " وقال: " وهو الولي الحميد "(2) ويقول معقبا على كون الرسالة منقطعة : " والولاية ليست كذلك، إذ لو انقطعت من حيث هى كما انقطعت الرسالة من حيث هى، وإذا انقطعت من حيث هى لم يبق لها اسم،

---

(1) الفتوحات المكية ٢/٢٥٢.

(2) فصوص الحكم بشرح القاشاني ص ٢٠٣.

حاله مع الأنبياء بالقصر الذى تُرك فيه موضعُ لبنة فكان هو صلى الله عليه وسلم تلك اللبنة فقال ابن عربي :" ولما مثّل النبي صلى الله عليه وسلم بالحائط من اللبن وقد كمل سوى موضع لبنة فكان صلى الله عليه وسلم تلك اللبنة ، غير أنه صلى الله عليه وسلم لايراها إلا كما قال لبنة واحدة، وأما خاتم الأولياء فلابد له من هذه الرؤيا، فيرى مامثله به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويرى فى الحائط موضع لبنتين، واللبن من ذهب وفضه، فيرى اللبنتين اللتين ينقص الحائط عنهما ويكمل بهما لبنة فضة ولبنة ذهب، فلابد أن يرى نفسه تنطبع فى موضع تينك اللبنتين فيكون خاتم الأولياء تيك اللبنتين فيكمل الحائط بهما " (١) وهذا صريح فى رد إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بانقطاع الوحى وإكمال الرسالات به صلى الله عليه وسلم ، ولقد غمز ابن عربى فى مقام النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : "غير أنه لايراها إلا كما قال لبنة واحدة ،وأما خاتم الأولياء فيراها لبنتين»،فأي فجور بعد هذا فلكأنه يصرح بأن قول النبي صلى الله عليه وسلم بحسب علمه ورؤيته المحدودة ليست كرؤية خاتم الأولياء وعلمه فنعوذ بالله من الزيغ والشنائع ،وزاد ابن عربى الأمر إيضاحا مبينا وجه كون خاتم الأولياء يراها

---

(٢) الفصوص بشرح القاشانى ص ٤٣ .

لبنتين وزاعما أن متابعة خاتم الأولياء لخاتم الرسل في التشريع إنما هي في الظاهر فقط فيقول :" والسبب الموجب لكونه رآها لبنتين أنه تابع لشرع خاتم الرسل في الظاهر وهو موضع اللبنة الفضية ،وهو ظاهره وما يتبعه فيه من الأحكام ،كما هو آخذ عن الله في السر ما هو بالصورة الظاهرة متبع فيه ،لأنه يرى الأمر على ما هو عليه فلابد أن يراه هكذا ،وهو اللبنة الذهبية في الباطن فإنه آخذ من المعدن الذي يأخذ منه المَلَك الذي يوحى به الى الرسل "(1).

فخاتم الأولياء عند هؤلاء الاتحادية تابع للنبي صلى الله عليه وسلم في الظاهر فقط ولكنه في الباطن وعلى التحقيق يأخذ من ذات المصدر الذي يأخذ منه النبي صلى الله عليه وسلم فهو مستغن عنه بل هو أفضل منه - تنزه صلى الله عليه وسلم عما يقوله الكافرون - فإن النبي يأخذ عن الملك ،أما الولي فيأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك ،أي عن الله مباشرة - تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا - ويقول ابن عربي:" الولي لا يأخذ النبوة من النبي إلا بعد أن يرثها الحق منهم ثم يلقيها الى الولي ليكون ذلك أتم في حقه حتى ينتسب في ذلك الى الله لا إلى غيره "(2).

---

(1) الفصوص بشرح القاشاني ص ٤٣.

(2) الفتوحات المكية ٢٥٣/٢.

وأهل وحدة الوجود عندما يتكلمون بخاتم الأولياء ويفضلونه على الأنبياء ويدعون أنه يأخذ عن الله بغير واسطة الملك إنما يريدون بذلك تمرير مذهبهم في وحدة الوجود واتخاذ الوسيلة لدفع الناس للإيمان بوحدة الوجود، ولذلك يقول ابن عربي في الولي ومذهب وحدة الوجود :" وهذا هو أعلى عالم بالله وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء ، وما يراه أحد من الأنبياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولي الخاتم (1) " بل يزعم أن الرسل إنما تأخذ العلم بالله ومعرفته سبحانه من مشكاة الولي فيقول :" حتى أن الرسل لا يرونه متى رأوه إلا من مشكاة خاتم الأولياء " ويعلل ذلك فيقول :" فإن الرسالة والنبوة أعني نبوة التشريع ورسالته تنقطعان والولاية لا تنقطع أبدا ، فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرون ماذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء فكيف من دونهم من الأولياء (1) ". بل وخاتم الرسل أيضا يأخذ عن خاتم الأولياء عندهم لأن نسبته إليه نسبة الأنبياء يقول ابن عربي :" فخاتم الرسل من حيث ولايته نسبته مع الخاتم للولاية نسبة الأنبياء والرسل معه فإنه الولي والرسول النبي، وخاتم الأولياء الولي الوارث الآخذ عن الأصل المشاهد للمراتب (2) ".

---

(1) الفصوص بشرح القاشاني ص ٤٢.

(2) الفصوص بشرح القاشاني ص ٤٤ وانظر الشرح.

فإذا استقر فى عقيدة شخص أن الأنبياء والرسل يأخذون معرفة الله من مشكاة خاتم الأولياء سلّم نفسه ومعتقده لهذا الخاتم يأخذ عنه مايقوله فى الله، فإذا قال له أن الله هو كل شىء تقع عليك عنك ويدركه حسك - تعالى الله عمايقول الظالمون علوا كبير - آمن وسلّم فإن هذا كلام المشكاة التى يأخذمنها الأنبياء فكيف لايأخذ به هو، وهكذا يدرك أهل وحدة الوجود غايتهم ليجد مذهبهم فى الناس قبولا إذ بغير هذا قد استيقنت أنفسهم سفالة مذهبهم عند الناس وأنه غيرمقبول ولامسموع.

ولقدأدعى جماعة من هؤلاء الاتحادية القائلين بوحدة الوجود كل واحد منهم أنه هو خاتم الأولياء، يقول أحد هؤلاء الصوفية صاحب بغية المستفيد (1): " وقد ادعى هذا المقام أعنى مقام الختم الأكبر جماعة من الصادقين فى الأحوال قاله الشعرانى رضى الله عنه، وممن ادعاه وظن أنه له حين

---

(1) هو (سيدى محمدالعربى السائح الشرقى العمرى التيجانى) وكتابه هذا شرح لمنظومة " منية المريد" فى معتقد التيجانية وإثبات أن التيجانى هو القطب الأكبر. وهو صاحب منزلة خاتم الأولياء، وهذا المؤلف كان شيخ الطريقة التيجانية، انظر ترجمته فى الأعلام ٢٦٥/٦.

رآه الشيخ محي الدين[1] رضي الله عنه وادعاه له أيضا

بعد وفاته جماعة لما رأوا له نثرا ونظما من الكلام الحائم

حول ذلك المقام" قال :" وممن أدعاها أيضا الأستاذ سيدي

علي وفا لوالده الأستاذ سيدي محمد وفا رضي الله عنهما حسبما

نقله الشعراني رضي الله عنه" قال :" وادعاها أيضا الإمام

الجليل سيدي محمد بن سليمان الجزولي مؤلف دلائل الخيرات وكذلك

الشيخ العارف بالله الصفي القشاشي حسبما حكاه في

الرحلة العياشية " ثم قال :" وقد تقدم لنا مما في

طي رمز أول الكلام على أبيات هذه المنظومة أن الخاتم الأكبر

المحمدي هو شيخنا وسيدنا وأستاذنا وإمامنا الشيخ الكامل

والقطب الشامل مولدنا أبو العباس التجاني رضي الله عنه

فقد ثبت عنه رضي الله عنه من طريق الأثبات من ملازميه

وخاصته أنه أخبر تصريحاً على الوجه الذي لا يحتمل التأويل

أن سيد الوجود صلى الله عليه وسلم أخبره يقظة

بأنه هو الخاتم المحمدي المعروف عند جميع الأقطاب والصديقين

---

(١) يعني ابن عربي .

وبأن مقامه لامقام فوقه في بساط المعرفة بالله ".[1]

ولما ذكر ابن تيمية رحمه الله تكلم طائفة من الصوفية في "خاتم الأولياء" وتعظيمهم أمره قال رحمه الله :" وادعى جماعة كل واحد أنه هو كابن عربي " قال ابن تيمية :" وربما قيده بأنه ختم الولاية المحمدية أوالكاملة أونحو ذلك لئلا يلزمه أن لايخلق بعده لله ولي ".[2]

والحاصل أن غلط الحكيم الترمذي كان مقدمة لضلال هؤلاء الصوفية وفتح لهم الكلام في تفضيل الولي على النبي وفي خاتم الأولياء فتعلقوا به واستندوا إليه[3]، وأتوا - كما يقول ابن تيمية - بالعظائم التي لم يسبق اليها الترمذي ولاغيره[4] ولكن متكلمة الصوفية هؤلاء كابن عربي وغيره وإن اعتمدوا

---

(١) بغية المستفيد ص ١٩٣ - ١٩٤. واذا علمت أن ابن عربي توفي سنة ٦٣٨هـ وأن التجاني توفي سنة ١٢٣٠هـ عرفت فشو هذه العقيدة وتداولها في طبقات الصوفية باتصال . انظر ترجمة التجاني واسمه أحمد بن محمد في الأعلام ٢٤٥/١.

(٢) الفتاوى ٣٦٣/١١ وانظر ص ٤٤٤ .

(٣) انظر بغية المستفيد ص ١٩٢ - ١٩٣.

(٤) الصفدية ٢٤٨/١.

على كلام الترمذي فى الظاهر إلا أنهم فى الحقيقة سلكوا مسلك ملاحدة الفلاسفة ووافقوهم فى قولهم بتفضيل الفيلسوف الكبير على النبي .(1)

وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله أن طائفة من السعدية يفضلون الولي على النبي أيضا.(2)

قال ابن تيمية رحمه فى رد هذه الضلالات :" فأما الغلو فى ولي غير النبي حتى يفضل على النبي سواء سُميّ وليا أو إماما أوفيلسوفا، وانتظارهم للمنتظر الذى هو محمد ابن الحسن أوإسماعيل بن جعفر ،نظير ارتباط الصوفية على الغوث وعلى خاتم الأولياء ،فبطلانه ظاهر بماعلم من نصوص الكتاب والسنة وماعليه إجماع الأمة فإن الله جعل الذين أنعم عليهم أربعة :

النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ،

فغاية من بعد النبي أن يكون صديقا كماكان خير هذه الأمة بعد نبيها صديقا ،ولهذا كانت غاية مريم ذلك فى قوله :(ماالمسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة)".(3)

---

(1) انظر الفتاوى ٢٢٧/١١ و٣٦٣ ،والصفدية ٢٤٩/١

(2) انظر الفتاوى ٣٦٤/١١ ،ولم أجد لهذه الطائفة بهذا الاسم ذكر فى كتب المقالات .

(3) الفتاوى ٣٦٤/١١ ،والآية من سورة المائدة رقمها ٧٥.

ورد رحمه الله على دعوى (خاتم الأولياء) قائلا :" هذه تسمية باطلة لا أصل لها فى كتاب ولا سنة ولا كلام مأثور عمن هو مقبول عند الأمة قبولا عاما ،لكن يعلم من حيث الجملة أن آخر من بقي من المؤمنين المتقين فى العالم فهو آخر أولياء الله "(1).

وأجاب رحمه الله على دعواهم أن خاتم الأولياء أفضل الأولياء، فقال :" وليس آخر الأولياء أفضلهم كما أن آخر الأنبياء أفضلهم فإن فضل محمد صلى الله عليه وسلم ثبت بالنصوص الدالة على ذلك "(2) وقال رحمه الله :" إن آخر الأولياء أو خاتمهم سواء كان المحقق أو فرض مقدر، ليس يجب أن يكون أفضل من غيره من الأولياء فضلا عن أن يكون أفضلهم ،وإنما نشأ هذا من مجرد القياس على خاتم الأنبياء ،لما رأوا خاتم الأنبياء هو سيدهم توهموا من ذلك قياسا بمجرد الاشتراك فى لفظ خاتم فقالوا: خاتم الأولياء أفضلهم وهذا خطأ فى الاستدلال ،فإن فضل خاتم الأنبياء عليهم لم يكن لمجرد كونه خاتما بل لأدلة أخرى دلت على ذلك ،ثم نقول : بل أول الأولياء فى هذه الأمة وسابقهم

---

(1) الفتاوى ٣٦٥/١١.

(2) الفتاوى ٢٢٤/١١.

هو أفضلهم، فإن أفضل الأمة خاتم الأنبياء وأفضل الأولياء سابقهم إلى خاتم الأنبياء، وذلك لأن الولي مستفيد من النبي وتابع له، فكلما قرب من النبي كان أفضل وكلما بعد عنه كان بالعكس، بخلاف خاتم الأنبياء فإن استفادته إنما هي من الله، فليس في تأخره زمانا مايوجب تأخر مرتبته بل قد يجمع الله له مافرقه في غيره من الأنبياء، فهذا الأمر الذى ذكرناه من أن السابقين من الأولياء هم خيرهم هو الذى دل عليه الكتاب والسنه المتواترة وإجماع السلف ".(1)

وذكر رحمه الله شبههم العقلية والذوقية والنقلية وفندها بالتفصيل بما لامزيد عليه.(2)

وأجاب رحمه الله على دعواهم أن الرسل يأخذون من مشكاة خاتم الأولياء، فقال: " هذا مناقض للعقل والدين كما يقال فى قول القائل: " فخر عليهم السقف من تحتهم ": لا عقل ولا قرآن، فإنه من المعلوم بالعقل أن المتأخر يستفيد من المتقدم دون العكس ومن المعلوم فى الدين أن أفضل الأولياء يستفيدون من الأنبياء ".(3)

---

(1) الفتاوى ٣٦٥/١١ – ٣٦٦.
(2) انظر الفتاوى ٣٦٦/١١ – ٣٧٢
(3) الصفدية ٢٤٧/١.

وأجاب رحمه الله عن دعواهم أن خاتم الأولياء يأخذ عن

الله من غير حاجة للنبي فقال :" ومن ادعى أن من الأولياء

الذين بلغتهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم من له

طريق إلى الله لايحتاج فيه إلى محمد، فهذا كافر

ملحد ،وإذا قال أنا محتاج الى محمد في علم الظاهر

دون علم الباطن أوفي علم الشريعة دون علم الحقيقة

فهو شرمن اليهود والنصارى الذين قالوا :إن محمدا رسول إلى

الأميين دون أهل الكتاب ،فإن أولئك آمنوا ببعض وكفروا

ببعض فكانوا كفارا بذلك، وكذلك هذا الذي يقول إن محمدا

بعث بعلم الظاهر دون علم الباطن آمن ببعض ماجاء به وكفر

ببعض فهو كافر ،وهو أكفر من أولئك لأن علم الباطن الذي

هو علم إيمان القلوب ومعارفها وأحوالها هو علم بحقائق

الإيمان الباطنة ،وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال

الإسلام الظاهرة) فإذا ادعى المدعي أن محمدا صلى

الله عليه وسلم إنما علم هذه الأمور الظاهرة دون حقائق الإيمان

وأنه لايأخذ هذه الحقائق عن الكتاب والسنة فقد ادعى

أن بعض الذى آمن به مما جاء به الرسول دون البعض الآخر

وهذا شر ممن يقول: أومن ببعض وأكفر ببعض ولايدعى

أن هذا البعض الذى آمن به أدنى القسمين" (١).

٣- مقالة الرافضة فى تفضيل أئمتهم على الأنبياء :

للرافضة فى أئمتهم ثلاثة أقوال :

١- أن الأئمة يساوون الأنبياء فى المنزلة.

٢- أن الأئمة أفضل من الأنبياء إلا أولى العزم.

٣- أن الأئمة أفضل من جميع الأنبياء أولى العزم وغيرهم.

هذه أقوالهم فى الأنبياء عدا نبينا محمد صلى الله عليهم وسلم

فهم متفقون على أفضليته على سائر الخلق لأنه جد الأئمة،

فقولهم فيه صلى الله عليه وسلم تبع لقولهم فى الأئمة. والثالث هو

الذى عليه المتأخرون من الرافضة وكأن المذهب استقر عليه،

يقول صاحب الأنوار النعمانية الرافضي (٢): " أعلم أنه لاخلاف بين

أصحابنا رضوان الله عليهم فى أشرفية نبينا صلى الله عليه وسلم

---

(١) الفتاوى ١١/٢٢٥ - ٢٢٦.

(٢) "الأنوار النعمانية " أحد كتب الروافض ومؤلفه من أكابر علماء الشيعة ومحدثى الإماميه ،له عدد من المصنفات فى مذهب الرافضة وهو نعمة الله بن عبد الله الجزائرى يزعمون أنه من ولد موسى الكاظم توفى سنة ١١١٢هـ - انظر مقدمة كتابه هذا ١/د - ل ،ونسبته الى جزائر البصرة - انظر هدية العارفين ٢/٤٩٧ ومعجم المؤلفين ١٣/١١٠ والأعلام ٨/٣٩.

على سائر الأنبياء عليهم السلام للأخبار المتواترة ، وإنما الخلاف بينهم في أفضلية أمير المؤمنين والأئمة الطاهرين عليهم السلام على الأنبياء ماعدا جدهم صلى الله عليه وسلم ، فذهب جماعة إلى أنهم أفضل باقي الأنبياء ماخلا أولي العزم فإنهم أفضل من الأئمة ،وبعضهم إلى المساواة ،وأكثر المتأخرين إلى أفضلية الأئمة عليهم السلام على أولي العزم وغيرهم " قال :" وهو الصواب "(1) ثم ذهب يسرد جملة من الأخبار الموضوعة والأكاذيب المفتراة ليدلل على أن ذلك هو الصواب .

فالرافضة لم يفضلوا الأنبياء على الأئمة في أحد أقوالهم البتة إلا أولي العزم في قول المتقدمين ،ولقد صنف أحد أئمتهم وهو المرتضى(أ) رسالة سماها " الرسالة الباهرة في فضل العترة الطاهرة " احتج فيه - قال الطبرسي(ب) :"بطريقة لم يسبقه

---

(1) الأنوار النعمانية ٢٠/١ -٢١.

(أ) هو أبو القاسم علي بن الحسين ،من أحفاد الحسين بن علي رضي الله عنهما واضع كتاب نهج البلاغة المكذوب على الإمام علي ،وكان يقول بالاعتزال ،ت ٤٣٦ هـ. انظر تاريخ بغداد ٤٠٢/١١ وميزان الاعتدال ١٢٤/٣.

(ب) هو أحمد بن علي بن أبي طالب ،أحد فقهاء الرافضة في القرن السادس، انظر هدية العارفين ٩١/١ ومعجم المؤلفين ١٠/٢.

إليها أحد" - لتفضيل الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم (1) على جميع الخلق (2) .

وقد عقد المجلسي (آ) بابا في كتاب الإمامة من كتابه الضخم "بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار" قال: "باب تفضيلهم عليهم السلام على الأنبياء وعلى جميع الخلق وأخذ ميثاقهم عنهم وعن الملائكة وعن سائر الخلق، وأن أولي العزم إنما صاروا أولي عزم بحبهم صلوات الله عليهم" ثم ذكر تحته ثمان وثمانين رواية من شنائع الأكاذيب الموضوعة المفتراة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الأئمة (3) .

---

(1) الاحتجاج، 2/506

(2) انظر الاحتجاج 2/506 - 509، وبحار الأنوار 27/332 - 337

(3) بحار الأنوار 25/267 - 319.

(آ) هو محمد باقر بن محمد تقي، علامة الرافضة بل هو عندهم ولي مشيخة الإسلام، ت 1111 هـ .

انظر: معجم المؤلفين 9/91 والأعلام 6/48.

وعقد في ذات الكتاب بابا قال :" باب أنهم أعلم من الأنبياء عليهم السلام" وأورد تحته ثلاث عشرة رواية من أكاذيبهم[(1)].

وتروى الرافضة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :" قال لى جبريل : يامحمد ، علي بن أبى طالب خير البشر ومن أبى فقد كفر"[(2)]. وهكذا لم تكتف الرافضة باختلاق الشنائع حتى نسبتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو منها ومنهم براء.

ولقد قال الخمينى زعيم الرافضة فى العصر الحالى وقد مات قريبا - :" إن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاما لايبلغه ملك مقرب ولانبي مرسل "[(3)].

فمن ضروريات مذهب الرافضة كما يقول الخمينى أن الأئمة أفضل مقاما من الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين هكذا بهذا الإطلاق من غير استثناء.

والرافضة تعتقد أن التفاضل بين الأنبياء إنما هو فى حمل نور الأئمة فمن حمل نور الأئمة من الأنبياء كان أفضل ممن لم يحمله ،

---

(1) بحار الأنوار ١٩٣/٢٥ - ٢٠٠.

(2) أمالى الصدوق ص ٧١ ،وبحار الأنوار ٣٠٦/٢٥

(3) الحكومة الاسلامية ٥٢ ،وانظر كتابه "كشف الأسرار " ص ١٧٣.

ولذلك فإن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى عليه السلام عندهم لأن موسى كان خاليا من نور الأئمة ولذلك خاف واضطرب لما رأى الحبال والعصى تسعى ، أما ابراهيم فلم يخف وكان مطمئنا حين وضع فى المنجنيق وقذف به فى النار لأنه مستند إلى مافى صلبه من أنوار حجج الله ولذا فـ" إن من جعله الله من الطبقة العليا يعنى الأنبياء حامل أنوار محمد وآل محمد جعله أقوى طاقة وأفضل من الذى لم يجعله حامل أنوارهم من الأنبياء ".(1)

وثمة مقياس آخر للتفاضل بين الأنبياء عند هؤلاء الرافضة ألا وهو حب آل البيت وولايتهم ، وفى الترجمة التى عقدها المجلسى لباب فى كتابه التى ذكرتها بنصها قريبا :" وأن أولى العزم إنما صاروا أولى العزم بحبهم صلوات الله عليهم " ومن الروايات الموضوعة التى ذكرها فى ذلك الباب :

" مانبىء نبي قط إلا بمعرفة حقنا وتفضيلنا على من سوانا "(2) ، ورواية عندهم وقعت فى حديث الإسراء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :" فإذا ملك قد أتانى فقال : يامحمد

---

(1) انظر " نبوة أبى طالب " لمزمل حسين ص ١٤٨.

(2) بحار الأنوار ٢٨١/٢٥ و ٣٠٣.

واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا: على ما بعثوا؟، فقلت:

معاشر الرسل والنبيين على ما بعثكم الله قبلي؟ قالوا:

على ولايتك وولاية علي بن أبي طالب، وهو قوله تعالى:

واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا"[1]. هذه عقيدة الرافضة أن

الأنبياء بعثوا بولاية الأئمة والله يقول:" واسأل من أرسلنا

من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون " الزخرف

٤٥، فالله ورسوله أخبرا أن الأنبياء بعثوا بالتوحيد، توحيد

الله في العبادة، والرافضة تعتقد أنهم بعثوا بولاية

الأئمة، وتنحل هذا الاعتقاد محمداً صلى الله عليه وسلم، ولقد

أخبر الله أن الحكمة من خلق الخلق هي توحيد الله:

" وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " الذاريات ٥٦ والرافضة

تقول:" لولا وجود الأئمة لما كان في خلقة البشر حكمة ولما ظهرت

الفضائل "[2] وينحلون النبي صلى الله عليهم وسلم أنه قال:" يا علي

لولا نحن ما خلق الله آدم ولا حواء ولا الجنة ولا النار ولا السماء

ولا الأرض "[3]

---

(١) بحار الأنوار ٣٠٧/٢٥ و ٣١٨.

(٢) اثبات الإمامة للنيسابوري ص ٤١.

(٣) عيون أخبار الرضا ٢٦٢/١، وغاية المرام وحجة الخصام ص ٩.

فلا غرو إذاً - وهذه عقيدتهم في الأئمة أن الخلق خلقوا لأجل ولايتهم وأنه لولا وجودهم لم تظهر الفضائل - لا غرو أن يعتقدوا أن الأئمة خير من الأنبياء.

والرافضة أكذب خلق الله، يقول ابن تيمية رحمه الله: " وقد اتفق أهل العلم بالنقل والرواية والإسناد على أن الرافضة أكذب الطوائف والكذب فيهم قديم ولهذا كان أئمة الإسلام يعلمون امتيازهم بكثرة الكذب "[1]. وذكر رحمه الله جملة من الآثار الثابتة عن الأئمة في تكذيبهم، عن مالك والشافعي والأعمش وأبوحنيفة، ذكر قول الشافعي: " لم أر أحدا أشهد بالزور من الرافضة ".

وقول الأعمش: " أدركت الناس ومايسمونهم إلا الكذابين " وقول شريك: " أحمل العلم عن كل من لقيت إلا الرافضة فإنهم يضعون الحديث ويتخذونه دينا " قال ابن تيمية: " وشريك هذا هو شريك بن عبد الله القاضي، قاضي الكوفة، من أقران الثوري

---

(1) منهاج السنة ٥٩/١.

وأبى حنيفة ،وهو من الشيعة الذى يقول بلسانه : أنا من الشيعة ،وهذه شهادته فيهم "(1) وذكر رحمه الله أن أصحاب الصحيح كالبخارى وغيره لم يرووا عن خيار الشيعة القدماء مع أنهم خيار الشيعة لاتفاق العلماء على أن الكذب فى الشيعة أظهر منه فى جميع الطوائف وأكثر.(2) وذكر رحمه الله أن البدع متنوعة وأن الخوارج على مروقهم من الدين إنما كانت بدعتهم عن جهل وضلال فى معرفة معانى الكتاب قال رحمه الله :" وأما الرافضة فاصل بدعتهم عن زندقة وإلحاد،وتعمد الكذب كثير فيهم ،وهم يقرون بذلك حيث يقولون : ديننا التقية وهو أن يقول أحدهم بلسانه خلاف مافى قلبه ،وهذا هو الكذب والنفاق ،ويدعون مع هذا أنهم هم المؤمنون دون غيرهم من أهل الملة ويصفون السابقين الأولين بالردة والنفاق،فهم فى ذلك كما قيل : رمتنى بدائها وانسلت(3) إذ ليس فى المظهرين للإسلام أقرب إلى النفاق

---

(1) منهاج السنة ٦١/١ وانظر ترجمة شريك فى : سير أعلام النبلاء ٢٠٠/٨ ،وتهذيب التهذيب ٣٣٣/٤.

(2) منهاج السنة ٦٦/١ - ٦٧.

(3) هذا مثل تضربه العرب فيمن يعيّر غيره بمافيه هو ،انظر قصة هذا المثل فى مجمع الأمثال ١٠٢/١ و ٢٨٦.

والـــــردة منهـــم ،ولايوجـــد المرتدون والمنافقـــون فى طائفــــة

أكثـر مما يوجد فيهـــم ،واعتبـــر ذلك بالغاليـــة من النصيريـــــة

وغيرهـــم ،وبالملاحـــدة الإسماعيلـة وأمثالهـــم " قال :" وعمدتهـــم

فى الشرعيات مانقـــل لهم عن بعـض أهـل البيـت ،وذلك النقـــــل

منه ماهو صـــدق ومنه ماهـــو كـذب عمـــدا أوخطـــأ وليســـــوا

أهـل معرفـة بصحيــح المنقـول وضعيفـــه كأهـل المعرفة بالحديث "(1).

---

(1) منهـاج السنة ١/٦٨ – ٦٩.

الفصل الثالث

فضل الصحابة والمفاضلة بينهم

الفصل الثالث :(فضل الصحابة والمفاضلة بينهم)٠

المبحث الأول : تعريف الصحبة وبيان فضلها وتفاضلها٠

الصحبة فى اللغة :

الصحبة مشتقة من الفعل صحب وهو أصل فى اللغة يدل على مقارنة شىء ومقاربته (١) ، فيشتق من هذا الأصل لكل أمر فيه معنى المقارنة والمقاربة ،ومنه قولهم: أصحب الرجل إذا انقاد ،وكل شىء لاءم شيئا فقداستصحبه (٢) ٠

والصاحب المعاشر (٣) وفيه معنى المقارنة ،وقال سبحانه : " فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم " الذاريات ٥٩٠ يعنى ،بالذين ظلموا مشركى مكة وبأصحابهم الذين أُهلِكُوا المذكورين فى الآيات قبلها قوم لوط وفرعون وقومه وعاد وثمود وقوم نوح (٤) ، فسماهم أصحابا مع بعد مابينهم فى الزمن لمقاربتهم لهم فى الحال ٠ ففى اطلاق اسم الصحبة فى أصل اللغة توسيع إذ تطلق على أدنى ملابسة ٠ والصحبة ، إماجمع صاحب ـ أواسم جمع له ـ (٥) بمعنى الأصحاب فتقول : هؤلاء صحبة

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة ٣٣٥/٣٠

(٢) انظر المرجع السابق وتهذيب اللغة ٢٦٢/٤ والصحاح ١٦٢/٢٠

(٣) لسان العرب ٥١٩/١٠

(٤) انظر زاد المسير /٤٤٠

(٥) انظراللسان ٥٢٠/١ والصحاح ٢٦١/٤٠

فلان يعنى أصحابه أومصدر قولك صحب يصحب .[1]

في (الكفاية) للخطيب البغدادى[أ] أن الباقلاني قال :" لاخلاف بين أهل اللغة فيأن القول (صحابي) مشتق من الصحبة ،وأنه ليس بمشتق من قدرمنها مخصوص بل هو جار على كل من صحب غيره قليلا كان أوكثيرا ،كما أن القول مُكلّم ومخاطب وضارب مشتق من المكالمة والمخاطبة والضرب وجار على كل من وقع منه ذلك قليلا كان أوكثيرا ،وكذلك جميع الأسماء المشتقة من الأفعال ،وكذلك يقال صحبت فلا ناحولا، ودهرا ،وسنة ،وشهرا ،ويوما ،وساعة ،فيوقع اسم المصاحبة بقليل مايقع منها وكثيره ،وذلك يوجب في حكم اللغة إجراء هذا على من صحب النبي صلى الله عليه وسلم ولو ساعة من نهار ،وهذا هو الأصل في اشتقاق الاسم".[2]

---

(١) تهذيب اللغة ٢٦٢/٤.

(٢) الكفاية .. (وانظر تدريب الراوى ٢١١/٢).

- - - - - - - - - - - - - - - - -

(أ) هو أحمد بن على بن ثابت البغدادى " أبو بكر " أحد الحفاظ المحدثين المؤرخين ،له تصانيف مبتكرة في مصطلح الحديث ،ت ٤٦٣هـ.
انظر سير أعلام النبلاء ٢٧٠/١٨ ،وطبقات الشافعية ١٢/٣.

الصحبة في الاصطلاح:

الصحبة في الاصطلاح هي: " لقيا النبي صلى الله عليه وسلم مع الإيمان به والموت على الإسلام سواء طالت مجالسة من لقيه أو قصرت أو رآه من غير مجالسة أو لم يره أصلا لعارض كالعمى وسواء روى عنه أو لم يرو أو غزى معه أو لم يغز " هذا أصح ما قيل في تعريف الصحبة، كما يقول حجر (1)، وقال: " هذا التعريف مبني على الأصح المختار عند المحققين كالبخاري وشيخه أحمد بن حنبل ومن تبعهما (2) ". وهذا التعريف هو قول جمهور العلماء سلفا وخلفا، كما يقول ابن كثير (3)، وهو المعروف من طريقة أهل الحديث، كما يقول ابن الصلاح، وقال: "بلغنا عن أبي المظفر السمعاني المروزي أنه قال: أصحاب الحديث يطلقون اسم الصحابة على كل من روى عنه

---

(1) الإصابة 7/1.
(2) الإصابة 8/1، وانظر قول الإمام أحمد في الكفاية ص99 وقول البخاري في صحيحه مع الفتح 3/7.
(3) اختصار علوم الحديث - مع الباعث الحثيث - 155.

(أ) هو عثمان بن عبدالرحمن الكردي، من فقهاء الشافعية ومن فضلاء عصره في الحديث ورجاله وعلومه، يقول ابن العماد: " وإذا أطلق الشيخ في علماء الحديث فالمراد به هو "، ت 643هـ. انظر سير أعلام النبلاء 140/23 وشذرات الذهب 221/5.

حديثا أوكلمة)ويتوسعون حتى يعدون من رآه رؤية من الصحابة "، قال ابن حجر في اسم الصحبة :" ويطلق[1] أيضا على من رآه رؤية ولوعلى بعد " قال ابن كثير[2]: " قد نص على أن مجرد الرؤية كاف في إطلاق الصحبة: البخاري وأبوزرعة وغير واحد ممن صنف في أسماء الصحابة كابن عبد البر[3] وابن منده وأبوموسى المديني وابن الأثير[4] " قال الامام احمد : " كل من صحبه - (يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم) - سنة أوشهرا أويوما أوساعة أورآه فهو من أصحابه له من الصحبة على قدر ماصحبه وكانت سابقته معه وسمع منه ونظر اليه نظرة[5]» وكذا قال على بن المديني رحمه الله[6] وقال مالك نحو ذلك[7].

---

(١) مقدمة ابن الصلاح ١٤٦.

(٢) فتح الباري ٣/٧.

(٣) انظر الاستيعاب - بهامش الإصابة - ١٣/١.

(٤) اختصار علوم الحديث - مع الباعث الحثيث - ٥١ - ١٥٢.

(٥) رواه عن أحمد بسنده اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد ١٦٠/١.

(٦) انظر المرجع السابق ١٦٧/١.

(٧) انظر الفتاوى ٢٩٨/٢٠.

قال ابن حجر: " القول بالتعميم هو الذي صرح به الجمهور

وهو المعتبر، والله سبحانه وتعالى أعلم، وقد كان تعظيم الصحابة

ولو كان اجتماعهم به صلى الله عليه وآله وسلم قليلا مقررا عند

الخلفاء الراشدين وغيرهم ،فمن ذلك ما قرأت فى كتاب أخبار

الخوارج تأليف محمد بن قدامة المروزى بخط بعض من سمعه

منه فى سنة سبع وأربعين ومائة" ونقل ابن حجر سند المؤلف

حتى قوله :" عن نبيح العنزى عن أبى سعيد الخدرى قال : كنا

عنده وهو متكىء،فذكرنا عليا ومعاوية ،فتناول رجل معاوية

فاستوى أبوسعيد الخدرى جالسا ثم قال:كنا ننزل رفاقا مع رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم فكنا فى رفقة فيها أبوبكر فنزلنا

على أهل أبيات وفيهم امرأة حبلى ومعنا رجل من أهل

البادية فقال للمرأة الحامل: أيسرك أن تلدى غلاما؟،قالت :

نعم ،قال : إن أعطيتنى شاة ولدتِ غلاما ،فأعطته ،فسجع لها

أسجاعا،ثم عمد إلى الشاة فذبحها وطبخها،وجلسنا نأكل منها

ومعنا أبوبكر،فلما علم بالقصة قام فتقيأ كل شىء أكله ،

قال : ثم رأيت ذلك البدوي أُتِيَ به عمر بن الخطاب وقدهجا

الأنصار،فقال لهم عمر : لولا أن له صحبة من رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم ما أدرى ما نال فيها لكفيتكموه ولكن له

صحبة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم " قال ابن حجر: " رجال هذا الحديث ثقات " (١).

قال الخطيب البغدادي :" قال ابن عمرو : رأيت أهل العلم يقولون :كل من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أدرك الحلم وأسلم وعقل أمر الدين ورضيه فهو عندنا ممن صحب النبي صلى الله عليه وسلم ولو ساعة من نهار ولكن أصحابه على طبقاتهم وتقدمهم في الإسلام " (٢).

وقال ابن تيمية :" الصحبة اسم جنس تقع على من صحب النبي صلى الله عليه وسلم قليلا كان أو كثيرا ،لكن كل منهم له من الصحبة بقدر ذلك ،فمن صحبه سنه أو شهرا أو يوما أو ساعة أو رآه

---

(١) الإصابة ١/١١ - ١٢.

(٢) الكفاية ٩٩ ،وفي هذا اشتراط التمييز فيمن رأى النبي صلى الله عليه وسلم لصحة الصحبة وثبوتها ،وقد قال ابن حجر في الفتح ٧/٣ - ٤ :" هل يشترط في الرائي أن يكون بحيث يميز ما رآه أو يكتفي بمجرد حصول الرؤية ؟ محل نظر ،وعمل من صنف في الصحابة يدل على الثاني ،فإنهم ذكروا مثل محمد ابن أبي بكر الصديق وإنما ولد قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشهر وأيام كما ثبت في الصحيح أن أمه أسماء =

مؤمنا فله من الصحبة بقدر ذلك "(1)

= بنت عميس ولدته فى حجة الوداع قبل أن يدخلوا مكة وذلك فى أواخر ذى القعدة سنة عشر من الهجرة " ،وقد اختار رحمه الله فى الإصابة ٨/١ حمل إطلاق العلماء أن من رأى النبي صلى الله عليه وسلم فهو صحابى على اشتراط التمييز، لأنه لاتصح نسبة الرؤية الى غير المميز ،الا أنه استثنى من غير المميزين من رآه النبي صلى الله عليه وسلم فقال بثبوت صحبته لرؤية النبي صلى الله عليه وسلم له لا لرؤيته هو النبي،واعتبره تابعيا من حيث الرواية ، ونص عبارته فى الإصابة :" وأطلق جماعة أن من رأى النبي صلى الله عليه وسلم فهو صحابي وهو محمول على من بلغ سن التمييز اذ من لم يميز لاتصح نسبة الرؤية إليه ،نعم يصدق أن النبي صلى الله عليه وسلم رآه فيكون صحابيا من هذه الحيثية ومن حيث الرواية يكون تابعيا " فيكون بهذا قد أثبت رحمه الله لمن حاله ماذكر اسم الصحبة دون مايتبع الاسم من حكم، لأن التابعي حكمه البحث عن عدالته عند الرواية أما الصحابى فعدل لايبحث عن عدالته ـ كماسيأتى بيانه ـ ،والظاهر والله أعلم رجحان اشتراط التمييز فى صحة الصحبة مطلقا . أما اشتراط بلوغ الحلم فى صحة الصحبة فقدعده ابن حجر فى الإصابة ٨/١ قولا شاذا.

وقال ابن حجر فى الفتح ٤/٧ :" هذا كله فيمن رآه وهو فى قيد الحياة الدنيوية أمامن رآه بعدموته وقبل دفنه فالراجح أنه ليس بصحابى وإلا لعد من اتفق أن يرى جسده المكرم وهو فى قبره المعظم ولو فى هذه الأعصار"

(1) الفتاوى ٤٦٤/٤.

وقول الجمهور هو المتعين الذى لاينبغى العدول عنه لقيام النص عليه ،فلقد قال صلى الله عليه وسلم :" يأتى على الناس زمان يغزو فئام من الناس فيقال لهم : فيكم من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فيقولون : نعم ، فيفتح لهم ،ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم : فيكم من رأى من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم" الحديث[1] ،وهذا نص صريح باعتبار الصحبة بمجرد الرؤية فقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه يقال للفئام الذين يغزون :" فيكم من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ")هكذا " رأى "،ثم أنه يقال لمن بعدهم :" فيكم من رأى من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم" هكذا "صحب" والمعنى به المقول فيهم سابقا " من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم".

فالصحابي من رأى النبى صلى الله عليه وسلم مؤمنا به وإن قلت صحبته.

قال ابن حجر رحمه الله بعد أن ذكر التعريف المتقدم فى صدر هذه المسألة وأنه مبني على الأصح المختار عند المحققين قال :" ووراء ذلك أقوال أخرى شاذة كقول من قال لايعد

---

(١) متفق عليه من حديث أبى سعيدالخدرى واللفظ لمسلم ، البخارى مع الفتح ٨٨/٦ و٦٤١و٣/٧،ومسلم ١٩٦٢/٤.
(٢) انظر الفتاوى ٢٩٨/٢٠.

صحابيا إلا من وصف بأحد أوصاف أربعة: من طالت مجالسته

أوحفظت روايته،أوضبط أنه غزا معه،أواستشهد بين يديه

وكذا من اشترط فى صحة الصحبة: بلوغ الحلم، أوالمجالسة ولو قصرت[1] "

وذكر رحمه الله من الاعتراضات على من اشترط الملازمة أوالغزو

أونحو ذلك أنه يخرج كثيرا من المشهورين بالصحبة والرواية

عن الحكم بالعدالة، كوائل بن حجر ومالك بن الحويرث وعثمان

بن أبى العاص وغيرهم ممن وفد عليه صلى الله عليه وسلم

ولم يقم عنده إلا قليلا وانصرف، وكذلك من لم يعرف إلا برواية

الحديث الواحد ولم يعرف مقدار إقامته من أعراب القبائل[2] .

ونقل السيوطى فى "التدريب" من "النكت" :" ولايشترط البلوغ

على الصحيح، وإلا لخرج من أجمع على عده فى الصحابة كالحسن

والحسين وابن الزبير ونحوهم"[3] .

هذا ،وينبغى أن يعلم أن لفظ " الصحبة" فيه عموم وخصوص

فعمومها يندرج فيه كل من رآه مؤمنا به صلى الله عليه وسلم

وقد يختص بعض الصحابة بما يتميز به فى الصحبة عن غيره ،ولذلك

لما كان لأبى بكر رضى الله عنه من الصحبة ما تميز به على جميع الصحابة

---

(١) الاصابة ٨/١ وانظر تدريب الراوى ٢١٢/٢ .

(٢) انظر الإصابة ١١/١ وتدريب الراوى ٢١٦/٢ .

(٣) تدريب الراوى ٢١٠/٢ .

خصه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله :" هل أنتم تاركوا لى صاحبى ؟ هل أنتم تاركوا لى صاحبى "[1] فى خبر المحاورة التى وقعت بين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وكذا لما كان لعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه من الصحبة ما امتاز به هو ومن شاركه فيه من السبق والإنفاق قبل الفتح خصهم النبى صلى الله عليه وسلم باسم الصحبة فى قوله لخالد بن الوليد رضى الله عنه - وكان ممن أسلم بعد الفتح - " لاتسبوا أصحابى "[2].

فضل الصحبة وتفاضلها :

إن للصحبة شرفا عظيما وفضلا فاضلا ولو لم تقع إلا بمجرد الرؤية ، فإن رؤيته صلى الله عليه وسلم شرف لمن آمن به ، ولقد قال صلى الله عليه وسلم :" يأتى على الناس زمان يغزو فئام من الناس فيقال لهم : فيكم من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : نعم ، فيفتح لهم ، ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم : فيكم من رأى من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : نعم ، فيفتح لهم ، ثم يغزو فئام

---

(١) أخرجه البخارى انظر الصحيح مع الفتح ٣٠٣/٨.

(٢) متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدرى ، البخارى مع الفتح ٢١/٧ ومسلم ١٩٦٧/٤ - ١٩٦٨. وانظر الفتاوى ٢٥/ ٥٩-٦٢.

من الناس ،فيقال لهم : هل فيكم من رآى من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون : نعم ،فيفتح لهم ".[1]

فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم فتح الله على المسلمين بسبب من رآه مؤمنا به ،وكفى به دلالة على شرف رؤيته صلى الله عليه وسلم وعظيم فضلها،قال ابن تيمية رحمه الله فى هذا " وهذه خاصية لاتثبت لأحد غير الصحابة ولو كانت أعمالهم أكثر من أعمال الواحد من أصحابه صلى الله عليه وسلم".[2] وقد قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه فى صحابته :" لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولانصيفه"[3] وهذا لفضل الصحبة ،قال النووى :" معناه لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا مابلغ ثوابه فى ذلك ثواب نفقة أحد أصحابى مدا ولانصف مد " قال :" وفضيلة الصحبة ولو لحظة لايوازيها عمل ولاتنال درجتها بشىء ".[4] ولقد رأينا فى الحديث الذى نقله ابن حجر عن كتاب أخبار الخوارج - وتقدم قريبا - كيف كان تعظيم الصحابة ولو كان اجتماعهم بالنبي صلى الله عليه وسلم قليلا متقرراً

---

(١) تقدم تخريجه تقريبا.

(٢) الفتاوى ٤/٤٦٥.

(٣) متفق عليه ، البخارى مع الفتح ٧/٢١ ،ومسلم ٤/١٩٦٧.

(٤) شرح مسلم ١٦/٩٣.

عند الخلفاء الراشدين وغيرهم حتى قال عمر رضي الله عنه في الرجل صاحب السجع :" لولا أن له صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أدرى ما نال منها لكفيتكموه ، ولكن له صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم " قال ابن حجر رحمه الله : " وفي ذلك أبين شاهد على أنهم كانوا يعتقدون أن شأن الصحبة لايعدله شيء"(1) وعلى هذا جرى اعتقاد الأئمة رحمهم الله ، وفي عقيدة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان لايتبرأ من عين رأت رسول الله صلى الله عليه وسلم(2) وقال رحمه الله :" فأدناهم صحبة هو أفضل من القرن الذين لم يروه ولو لقوا الله بجميع الأعمال، كان هؤلاء الذين صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم ورأوه وسمعوا منه ومن رآه بعينه وآمن به ولو ساعة أفضل بصحبته من التابعين ولو عملوا كل أعمال الخير"(3) وسبق نقل قول ابن تيمية رحمه الله :" قال غير واحد من الأئمة : إن كل من صحب النبي صلى الله عليه وسلم أفضل ممن لم يصحبه مطلقا ، وعينوا ذلك في مثل معاوية وعمر بن عبدالعزيز ، مع أنهم معترفون أن سيرة عمر بن عبدالعزيز أعدل من سيرة معاوية ، قالوا : لكن ماحصل لهم بالصحبة من الدرجة أمر لايساويه مايحصل لغيرهم بعلمه "(4).

---

(1) الإصابة ٢/١

(2) انظر طبقات الحنابلة ٣٠٣/٢.

(3) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١٦٠/١.

(4) الفتاوى ٥٢٧/٤.

والأدلة الشرعية الناطقة بفضل الصحابة التى سنورد طرفا منها فى المبحث القادم إن شاءالله فيها البيان الواضح لفضل الصحبة وعظيم قدرها ، إلا أن الصحابة متفاضلون فى الصحبة، اذ لكل منهم من فضلها القدر الذى أدركه منها ،وكما سلف قريبا أن الصحبة فيها خصوص وعموم فهى وإن عمت جميع من رأى النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن فيهم من اختص من الصحبة بما استحق به التفضيل على غيره فامتاز به ،قال ابن حجر : "لاخفاء برجحان رتبة من لازمه صلى الله عليه وآله وسلم وقاتل معه أوقتل تحت رايته على من لم يلازمه أولم يحضر معه مشهدا، وعلى من كلمه يسيرا أوماشاه قليلا أورآه على بعد أوفى حال الطفولة ،وإن كان شرف الصحبة حاصلا للجميع ومن ليس له منهم سماع منه فحديثه مرسل من حيث الرواية وهم مع ذلك معدودون فى الصحابة لما نالوه من شرف الرؤية".(1)

قال السفارينى :" وقسم الإمام ابن الجوزى الصحبة الى ثلاث مراتب:

الأولى : من كثرت معاشرته ومخالطته للنبي صلى الله عليه وسلم بحيث لايعرف صاحبها الا بها فيقال هذا صاحب فلان وخادمه لمن تكررت خدمته لا لمن خدمه مرة واحدة أوساعة أويوما .

الثانية: من اجتمع به صلى الله عليه وسلم مؤمنا ولو مرة واحدة لأنه يصدق عليه أنه صحبه وان لم ينته الى الاشتهار به .

---

(1) شرح نخبة الفكر ص٥٦.

الثالثة : من رآه صلى الله عليه وسلم رؤية ولم يجالسه ولم يماشه[1].

فالصحبة متفاضلة في ذاتها ولذلك يتفاضل الصحابة فيها ، وهو أمر ظاهر ويزيد في بيان ظهوره ما سيرد في المباحث القادمة من أدلة تفاضل الصحابة ، وقد رأى القرطبي - رحمه الله - أن الصحابة مشتركون في الصحبة بلا تباين ولا تفاضل وإنما وقع تباينهم في الفضائل بما منحهم الله من المواهب والوسائل[2].

وهو رأي لا أجد له وجهاً ، إلا أن يكون مراده استواؤهم في القدر الذي تحصل به الصحبة ، وهو مجرد اللقاء اليسير القليل ، والله أعلم.

---

(1) لوامع الأنوار البهية ٥٢/١.

(2) انظر تفسير القرطبي ٢٦٤/٣.

المبحث الثاني : فضل الصحابة وتفضيلهم على الأمة :

لقد تظافرت الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وصحيح النظر على إثبات فضل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أن فضلهم لا يدركه أحد ممن بعدهم فهم أفضل الأمة ،

وأطرق هنا أربعة مطالب لبيان فضل الصحابة :

الأول - في عدالتهم ،
الثاني - في تفضيلهم على الأمة .
الثالث - في تفضيلهم على سائر المؤمنين أتباع الأنبياء مطلقا .
الرابع - في الحقوق الواجبة لهم على المؤمنين.

المطلب الأول : عدالة الصحابة رضوان الله عليهم:

الصحابة رضوان الله عليهم كلهم عدول عدالتهم ثابتة معلومة بتعديل الله ورسوله لهم وثناء الله ورسوله عليهم فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله لهم وهو المطلع على بواطنهم الى تعديل أحد من الخلق ،والأدلة الشرعية ناطقة بعدالتهم من كتاب الله وسنة رسوله واجماع أهل الاجماع وصحيح النظر.

فأدلة الكتاب : الآيات الكثيرة في الثناء عليهم والإخبار عن صدق إيمانهم ومنها :

قوله سبحانه :" محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا

سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة

ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى

على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ،وعد الله الذين

آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما" الفتح ٢٩

ففى هذه الآية أمور :

١- شهادة الله سبحانه للصحابة بمعية رسوله صلى الله عليه

وسلم فقال واصفا لهم " والذين معه " ولهذه المعية من

الفضل الواسع ما لمعناها من المنزلة ،

٢- ثناء الله عز وجل عليهم وإخباره بصفاتهم التى يرتضيها

وشهادته لهم بأنهم أشداء على الكفار وأنهم رحماء بينهم

فهم أعداء أعداء الله/أولياء أولياء الله ،وهم يتعبدون

الله ركعا سجدا يبتغون فضل الله ورضوانه.

٣- إخباره سبحانه أنه مدحهم فى كتبه السابقة التوراة والانجيل

وضرب لهم خير الأمثلة وأدلها على فضلهم ،وجعلهم مثلا

يقتدى بهم.

٤- وعده سبحانه لهم بالمغفرة والأجر العظيم.

فأي فضل بعد ذلك ،وأي شهادة بعد شهادة الله وأي ثناء بعد

ثنائه سبحانه؟ فرضوان الله عليهم ما أتم فضلهم وعدالتهم.

* وقال سبحانه :" يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين " الأنفال ٦٤ ففى الآية شهادة من الله لهم باتباع نبيه صلى الله عليه وسلم ،وإخبار منه سبحانه بأنهم يكفون نبيه ،وقد عطف كفايتهم على كفايته هو سبحانه ،فأى ثناء بعد هذا وأى تعديل .

* وقال سبحانه بعد أن ذم المنافقين وأخبر أنه طبع على قلوبهم: " لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون ، أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم" التوبة ٨٨ - ٨٩. ففى الآيتين شهادة من الله لهم بالإيمان وأنهم مع رسوله وأنهم جاهدوا بأموالهم وأنفسهم)ووعدلهم بالفوز العظيم دلالة على صدق إيمانهم وجهادهم وقبول الله له ،فأى تزكية بعد هذه .

* وقال سبحانه :" والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم» التوبة ١٠٠ ، ففى هذه الآية ثناء وتنويه بشأن كافة الصحابة بجميع فئاتهم السابقون من المهاجرين والأنصار

ومن اتبعهم وإخبار من الله أنه رضي عنهم ورضوا عنه

ووعد لهم بالفوز العظيم، فأي تزكية وأي تعديل بعد هذا.

* ومثل هذه الآية في الدلالة قوله سبحانه :" للفقراء المهاجرين

الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا

وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون،والذين تبوؤا

الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولايجدون

في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم

خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون.والذين جاءوا

من بعدهم يقولون ربنا اغفرلنا ولإخواننا الذين سبقونا

بالإيمان ولاتجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك

رؤوف رحيم " الحشر ٨ ،٩، ١٠ ففيها ثناء من الله لجميع

الصحابة على تفاوت فئاتهم.

وغير تلك من الآيات كثير جدا، يُزكّي الله عز وجل فيها صحابة

رسوله ويشهد لهم بصحة بواطنهم وطهارة ضمائرهم وصلاح

سرائرهم ،ويخبر برضاه عنهم وبما أعده لهم من النعيم.

<u>وفي السنة :</u> أدلة كثيرة لاتحصى في تعديل الصحابة وتزكيتهم

فمن ذلك :

* قوله صلى الله عليه وسلم :" لاتسبو أصحابي ،لاتسبوا أصحابي، فوالذى نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولانصيفه "(1). فهذه تزكية وتعديل من النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته اقترنت بيمينه صلى الله عليه وسلم، ففيها أشد التأكيد على عدالتهم.

* وقال صلى الله عليه وسلم :" خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم..." الحديث(2). فهذا إثبات لخيرية الصحابة وتزكيتهم وتفضيلهم على من بعدهم.

* وقال صلى الله عليه وسلم :" أصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي مايوعدون "(3) فهذه شهادة منه صلى الله عليه وسلم أن أصحابه أمان لأمته من ظهور البدع واختلاف القلوب والفتن

---

(1) تقدم تخريجه وهو متفق عليه، وهو وإن كان وروده فيمن أسلم قبل الفتح وقاتل - كماتقدم بيانه - الا أنه جرى فى كلام أهل العلم قاطبة على الأخذ بعموم لفظه من غير نظر الى خصوص سببه، واتفقوا على إيراده فى ذكر فضل الصحابة جملة ،والخطاب في الحديث وان كان للصحابة فإنه يتناول غيرهم من باب أولى لأن نهيه صلى الله عليه وسلم صحابته عن سب بعضهم بعضا نهي لغيرهم أن يسبهم ،وفيه تعديل لهم وتزكية، رضوان الله عليهم.

(2) متفق عليه ، البخارى مع الفتح ٣/٧ ،ومسلم ١٩٦١/٤.

(3) أخرجه مسلم ١٩٦١/٤.

ونحو ذلك .[1]

وغير ذلك من أدلة السنة فى الصحابة جملة ،وقد ورد فى خصوص أفراد من الصحابة وطوائف منهم آيات وأحاديث سيأتى بعضها فى المبحث الثالث ان شاء الله .

وأما الإجماع : فإن الأمة مجمعة على عدالتهم لم يخالف إلا من لا يعتد بخلافه من شذوذ المبتدعة الذين لايقدح شذوذهم فى استقرار الإجماع وصحته ،ولقد تكاثر نقل الإجماع فى العلماء فقد نقله جمع كبير منهم ،كابن عبدالبر[2] ،والخطيب البغدادى[3]، وابن الصلاح[4]،والنووى[5] ،وابن كثير[6] ،وابن حجر[7] وغيرهم.

وهو إجماع منقول على عدالتهم وأنهم ليسوا بحاجة الى تعديل وأنه لايسأل عن حالهم ولاينظر فى أحوالهم بحثا عن عدالتهم فهم عدول قطعا وجزما رضى الله عنهم .

---

(١) انظر شرح مسلم للنووى ٨٣/١٦.

(٢) انظر الاستيعاب ـ بهامش الاصابة ـ ٩/١.

(٣) انظر الكفاية ٩٦.

(٤) انظر مقدمته ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٥) انظر شرح مسلم ١٤٩/١٥ ،والتقريب مع شرح السيوطى ٢١٤/٢.

(٦) انظر اختصار علوم الحديث ـ مع الباعث الحثيث ـ ١٥٤.

(٧) انظر الإصابة ٩/١.

وأما دلالة النظر الصحيح: على عدالتهم فكما قال الخطيب البغدادي: " على أنه لو لم يَرِدْ من الله عز وجل ورسوله فيهم شيء مما ذكرناه لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد والنصرة وبذل المهج والأموال وقتل الآباء والأولاد والمناصحة في الدين وقوة الإيمان واليقين القطع على عدالتهم والاعتقاد لنزاهتهم وأنهم أفضل من جميع المعدلين والمزكين الذين يجيئون من بعدهم أبد الآبدين ".(1)

وكما قال ابن عبد البر: " ولا أعدل ممن ارتضاه الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ونصرته، ولا تزكية أفضل من ذلك ولا تعديل أكمل منها".(2)

---

(1) الكفاية ٩٦.

(2) الاستيعاب - بهامش الاصابة - ٢/١.

المطلب الثاني : تفضيل الصحابة على سائر الأمة :

الصحابة رضوان الله عليهم هم أفضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وما ذكر من الأدلة في المطلب الأول دليل على ذلك، فليس أفضل ممن زكاهم الله وعدلهم وأثنى عليهم ورضي عنهم، وقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنهم أمان لأمته ما بقي منهم فيها أحد فإن هم ذهبوا أتى الأمة ما توعد ، وأقسم صلى الله عليه وسلم أن أحد من الأمة إن أنفق مثل أحد ذهبا لا يبلغ بذلك مد أحدهم ولا نصيفه، ولقد صرح صلى الله عليه وسلم بأنهم رضوان الله عليهم خير أمته فقال :" خير أمتي القرن الذين بعثت فيهم " (1) وقال صلى الله عليه وسلم :" خير هذه الأمة القرن الذين بعثت فيهم" (2).

قال الإمام أحمد رحمه الله :" فأدناهم صحبة هو أفضل من القرن الذين لم يروه صلى الله عليه وسلم ولو لقوا الله بجميع

---

(1) أخرجه مسلم عن أبي هريرة ١٩٦٣/٤.

(2) أخرجه مسلم عن عمران بن حصين ١٩٦٥/٤، واتفق عليه البخاري ومسلم عن عمران بلفظ " خيركم قرني " .
صحيح البخاري مع الفتح ٢٥٨/٥ ومسلم ١٩٦٤/٤.

الأعمال ،كان هؤلاء الذين صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم ورآوه وسمعوا منه ومن رآه بعينه وآمن به ولوساعة أفضل بصحبته من التابعين ولوعملوا كل أعمال الخير" (1) وقال ذلك على ابن المديني أيضا. (2)

المطلب الثالث : تفضيل الصحابة على سائر البشر بعد الأنبياء.

الصحابة أفضل أتباع الأنبياء على الاطلاق دل على ذلك كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ،قال الله تعالى:"كنتم خير أمة أخرجت للناس" آل عمران ١١٠ ، وقال سبحانه : " وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا " البقرة ١٤٣.

وفسر لفظ الأمة فى الآيتين بأن المراد به الصحابة فهو عام مخصوص وقيل بل هو وارد فى الصحابة دون غيرهم (3) أى أنه لاعموم فى اللفظ ،وعليه فاللفظ ظاهر الدلالة على أن الصحابة أفضل الناس بعد الأنبياء.

وفسر اللفظ بأن المراد به أمة محمد صلى الله عليه وسلم عامة (4) ،وهو

---

(1) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١٦٠/٢ وطبقات الحنابلة ٢٤٣/١ - ٢٤٤.
(2) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١٦٧/٢.
(3) انظر الكفاية ٩٣ ،وزاد المسير ٤٣٨/١.
(4) انظر زاد المسير ٤٣٨/١.

دال على ماذكر أيضا لأن أصل الخطاب لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان عاما فى أمته فهم المخاطبون أصلا به وهم يدخلون فى عموم اللفظ دخولا أوليا ،وقد ثبت كونهم أفضل الأمة فهم أفضل الأمة التى هى خير الأمم ،فهم أفضل الأمم على الإطلاق .

وقال صلى الله عليه وسلم : " خير الناس قرنى "(١) ،وسأله رجل: أى الناس خير ؟ قال صلى الله عليه وسلم :" القرن الذى أنا فيه "(٢).

وقال صلى الله عليه وسلم " بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذى كنت منه "(٣).

فهذا دال على أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أفضل أصحاب الأنبياء ، أفضل بنى آدم بعد الأنبياء ،رضى الله عنهم وأرضاهم.

---

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود ، انظر البخارى مع الصحيح ٢٥٩/٥.

(٢) أخرجه مسلم ١٩٦٥/٤.

(٣) أخرجه البخارى - الصحيح مع الفتح ٥٦٦/٦.

وقال صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى " كنتم خير أمة أخرجت للناس " :" إنكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله " (1) وهذا ظاهر الدلالة على ماذكرنا.

قال ابن تيمية رحمه الله :" ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة ومامن الله عليهم به من الفضائل علم يقينا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء ،لاكان ولايكون مثلهم ،وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله (2).

---

(1) أخرجه أحمد في المسند ٤٤٧/٤ و ٣/٥ ، ٥ ،والدرامي في سننه ٣١٣/٢، وابن ماجة في سننه ١٤٣٣/٢،والترمذي وحسنه ٢١١/٥ ،والحاكم في المستدرك ٨٤/٤،وقال الحاكم :" هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه " ووافقه الذهبي ،قال الألباني في تخريج المشكاة ١٧٧٢/٣ : "إسناده حسن ".

(2) العقيدة الواسطية - ضمن المجموعة العلمية السعودية - ص ٨٩.

المطلب الرابع : الحقوق الواجبة لهم على الأمة :

يجب لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أوجبته النصوص وأجمع عليه المسلمون من حبهم والترضى عنهم والاستغفار لهم، وسلامة الصدور والألسن لهم، قال الطحاوى : " ونحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولانفرط فى حب أحد منهم ولانتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم ولانذكرهم إلا بخير وحبهم دين وإيمان وإحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان "(1).

وعقد اللالكائى(أ) عنوانا فقال : " سياق ماروى فى أن معرفة فضائل الصحابة من السنة "(2) وأسند تحته عددا من الروايات عن الصحابة والتابعين والأئمة فيها تصريحهم بأن حب الصحابة سنة وكذا معرفة فضائلهم، وعقد عنوانا آخر فقال : " سياق ماروى عن النبي صلى الله عليه وسلم فى الحث على

---

(1) العقيدة الطحاوية ـ ضمن المجموعة العلمية السعودية ـ ص ٢٧.

(2) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١٢٣٧/٧.

- - - - - - - - - - - - - - -

(أ) هو هبة الله بن الحسن بن منصور الطبرى الرازى، أبوالقاسم اللالكائى، من حفاظ الحديث وفقهاء الشافعية له مصنفات فى العقيدة. ت ٤١٨ هـ.

انظر : تاريخ بغداد ٧٠/١٤ وتذكرة الحفاظ ١٠٨٣/٣.

حب الصحابة وذكر محاسنهم والترحم عليهم والاستغفار لهم والكف عن مساوئهم "[1] وأسند عددا من الروايات عنه صلى الله عليه وسلم فى ذلك منها قوله صلى الله عليه وسلم :

"الأنصار لايحبهم إلا مؤمن ولايبغضهم إلا منافق فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله "[2] ،وعقد عنوانا فقال:

" سياق ماروى عن النبي صلى الله عليه وسلم من النهي عن الغلو فى الحب والبغض فى تفضيل الصحابة والاستغراق فى الإطراء والذم لهم "[3].

وقال أبونعيم :" فالواجب على المسلمين فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إظهار مامدحهم الله تعالى به وشكرهم عليه من جميل أفعالهم وجميل سوابقهم وأن يغضوا عما كان منهم فى حال الغضب والإغفال وفرط منهم عند استزلال الشيطان إياهم، ونأخذ فى ذ كرهم بما أخبر الله تعالى به فقال تعالى :" والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١٢٤١/٧.

(٢) أخرجه البخارى انظر الصحيح مع الفتح ١١٣/٧.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١٣٩٤/٧.

بالإيمان " الآية فإن الهفوة والزلل والغضب والإفراط لايخلو منه أحد ،وهو لهم غفور ،ولايوجب ذلك البراءة منهم ولا العداوة لهم ولكن يحسب على السابقة الحميدة ويتولى للمنقبة الشريفة".[1] وقال ابن قدامة :" ومن السنة تولى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبتهم وذكر محاسنهم والترحم عليهم والاستغفار لهم والكف عن ذكر مساوئهم وماشجربينهم واعتقاد فضلهم ومعرفة سابقتهم"[2]

قال ابن تيمية رحمه الله :" ومن أصول أهل السنة والجماعة : سلامة قلوبهم وألسنتهم لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما وصفهم الله فى قوله :(والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم)، وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله :(لاتسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لوأن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا مابلغ مد أحدهم ولانصيفه)، ويقبلون ماجاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم"

---

(١) الإمامة ٣٤١ – ٣٤٢.

(٢) لمعة الاعتقاد ٤٠.

قال رحمه الله :" ويتبرأون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم ومن طريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أوعمل " إلى أن قال : " وهم مع ذلك لايتعقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره ".(1)

ذلك هو الواجب لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاغلو ولاتقصير.

ولقد قام تعظيم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفوس السلف الصالح رضوان الله عليهم حتى قد ورد فى عقيدة الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله أنه كان يسلم احاديث فضائل الصحابة ولاينصب عليها المعيار وينكر على من يقول :ان هذه الفضيلة لأبى بكر باطلة ،وهذه الفضيلة لعلي باطلة لأن القوم أفضل من ذلك .(2)

---

(1) العقيدة الواسطية ـ ضمن المجموعة العلمية السعودية ـ ص ٨٥ـ٨٨

(2) طبقات الحنابلة ٢/٣٠٣.

المطلب الخامس : الواجب فيما شجر بينهم :

الواجب على المسلم فيما شجر بين الصحابة رضوان الله عليهم من النزاع في موقعة الجمل وموقعة صفين الإمساك عن ذلك والكف عن ذكره وذكرهم رضوان الله عليهم بسوء واعتقاد أن ما شجر بينهم غير قادح في عدالتهم، فالله قد عدلهم وهو أعلم بما سيقع منهم، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذكرهم بسوء فقال :" لاتسبوا أصحابي " وهو نهي عام مطلق لايقيده شيء عن السب ومافى حكمه ،فالنيل من واحد منهم لماشجر بينهم داخل في هذا النهي ، قال الإمام أحمد رحمه الله :" النبي عليه السلام قد نهى عن ذكر أصحابه وأن ينتقص أحدمنهم وقدعلم النبي صلى الله عليه وسلم مايكون بعده من أصحابه ،كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبأ بذلك ،فالاقتداء برسول الله والكف عن ذكر أصحابه فيما شجر بينهم والترحم عليهم ،ونقدم من قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ،نرضى بمن رضي به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد موته"(1).

---

(1) السنة للخلال ص ٤٨١.

فالنبي صلى الله عليه وسلم قد نهى عن سبهم، وأثنى عليهم وعدلهم مع إخباره عما سيقع بينهم من الشجار[1]، روي عن ابن عباس قوله: " لاتسبوا أصحاب محمد فإن الله قد أمر بالاستغفار لهم وهو يعلم أنهم سيقتتلون "[2].

---

(١) قال صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه: " انه سيكون بينك وبين عائشة أمر، قال: أنا يارسول الله؟ قال: نعم " الحديث أخرجه أحمد في المسند ٣٩٣/٦، والبزار، انظر كشف الأستار ٩٣/٤، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٣٤/٧: " رواه أحمد، والبزار والطبراني ورجاله ثقات "، وحسن ابن حجر الحديث في الفتح ٥٥/١٣.

فهذا إخبار عن موقعة الجمل.

وقال صلى الله عليه وسلم: " لاتقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة " أخرجه البخاري انظر صحيحه مع الفتح ٨١/١٣ ومسلم، والمراد بالفئتين طائفة علي وطائفة معاوية - انظر فتح الباري ٣٠٣/١٢ و ٨٥/١٣، فهذا إخبار عن موقعة صفين.

(٢) الحديث أخرجه أحمد في فضائل الصحابة ٥٩/١ و ٩١٠/٢، وقال ابن تيمية في المنهاج ٢٢/٢: " وروى ابن بطة بالإسناد الصحيح" وذكر الحديث بسنده.

قد قال سبحانه :" والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم " الحشر ١٠.

قال ابن بطة (أ) رحمه الله :" نكف عما شجر بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد شهدوا المشاهد معه وسبقوا الناس بالفضل فقد غفر الله لهم، وأمرك بالاستغفار لهم والتقرب إليه بمحبتهم وفرض ذلك على لسان نبيه وهو يعلم ماسيكون منهم وأنهم سيقتتلون، وإنما فضلوا على سائر الخلق لأن الخطأ والعمد قد وضع عنهم وكل ما شجر بينهم مغفور لهم، ولاينظر فى كتاب صفين والجمل ووقعة الدار وسائر المنازعات التى جرت بينهم، ولاتكتبه لنفسك ولالغيرك، ولاترووه عن أحد ولاتقرأه على غيرك ولاتسمعه ممن يرويه، فعلى ذلك اتفق سادات علماء هذه الأمة من النهي عما وصفناه، منهم : حماد بن زيد ويونس بن عبيد، وسفيان الثورى، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن ادريس، ومالك بن أنس، وابن أبى ذئب، وابن المنكدر،

(أ) هو عبد الله بن محمد بن محمد بن حمدان، أبو عبد الله العكبرى، من كبار الحنابلة فى عصره وأحد علماء الحديث، رحل فى طلب الحديث، ثم لزم بيته أربعين سنة صنف فيها كتبا كثيرة تزيد على مائة، ت ٣٨٧هـ
انظر : سير أعلام النبلاء ٥٢٩/١٦ وطبقات الحنابلة ١٤٤/٢.

وابن المبارك ، وشعيب بن حرب ، وأبواسحاق الفزارى ، ويوسف بن أسباط ، وأحمد بن حنبل ، وبشر بن الحارث ، وعبدالوهاب الوراق كل هؤلاء قدرأوا النهي عنها والنظر فيها والاستماع إليها وحذروا من طلبها والاهتمام بجمعها ، وقد روي عنهم فيمن فعل ذلك أشياء كثيرة بألفاظ مختلفة متفقة المعانى على كراهية ذلك والإنكار على من رواها واستمع إليها "[1].

وخير مايقال فيما شجر بين الصحابة ماقاله الإمام أحمد لما سئل عن ذلك فقرأ :" تلك أمة قدخلت لها ماكسبت ولكم ماكسبتم ولاتسألون عما كانوا يعملون " البقرة ١٤١ ، قال ابن كثير بعد ذكره جواب أحمد هذا :" وكذا قال غير واحد من السلف "[2] وقد قال عمربن عبدالعزيز لما ذكروا اختلاف أصحاب محمدعنده :" أمر أخرج الله أيديكم منه ماتعلمون ألسنتكم فيه "[3] ، وقال :" تلك دماء طهر الله منها يدى فلا أحب أن أخضب بها لسانى "[4].

---

(١) الشرح والإبانة ص ٢٦٨ - ٢٦٩.
(٢) البداية والنهاية ٨/١٣٠.
(٣) الطبقات الكبرى ٥/٣٨٢.
(٤) منهاج السنة ٦/٢٥٤.

وإن من أصول أهل السنة كما نقل ابن تيمية : أنهم " يتبرءون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم ومن طريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أوعمل ، ويمسكون عما شجر بين الصحابة ، ويقولون : إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ماهو كذب ، ومنها ماقد زيد فيها ونقص وغُيّر عن وجهه ، والصحيح منه هم فيه معذورون : إما مجتهدون مصيبون واما مجتهدون مخطئون ، وهم مع ذلك لايعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره ، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة ، ولهم من السوابق والفضائل مايوجب مغفرة مايصدر منهم إن صدر ، حتى إنه يغفر لهم من السيئات مالايغفر لمن بعدهم وقد ثبت بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنهم خير القرون ، وان المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ممن بعدهم ، ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه ، أو أتى بحسنات تمحوه ، أوغفر له بفضل سابقته ، أوبشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم الذى هم أحق الناس بشفاعته ، أو ابتلى ببلاء فى الدنيا كفر به عنه ، فإذا كان هذا فى الأمور المحققة فكيف بالأمور التى كانوا فيها مجتهدين إن أصابوا

فلهم أجران وان أخطأوا فلهم أجر واحد والخطأ مغفور

لهم ، ثم القدر الذى ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغمور

فى جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله

والجهاد فى سبيله .

والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح "(١). ولعل الشأن

فيهم رضى الله عنهم كما قال صلى الله عليه وسلم فى أهل بدر

" ومايدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر ،فقال:

أعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم "(٢) ، ولقد كان فى الشجار الذى

وقع بينهم رضوان الله عليهم جماعة من أهل بدر.

---

(١) العقيدة الواسطية ـ ضمن المجموعة العلمية السعودية ص ٨٧ – ٨٩.

(٢) متفق عليه من حديث على رضى الله عنه ،

انظر البخارى مع الفتح ١٤٣/٦،وصحيح مسلم ١٩٤١/٤.

المبحث الثالث : تفاضل الصحابة :

المطلب الأول : أدلة وقوع التفاضل بين الصحابة :

لقد دلت أدلة الشرع من نصوص الكتابة والسنة على وقوع التفاضل بين الصحابة رضوان الله عليهم ،

فمن أدلة الكتاب : قوله تعالى :" لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ،وكلا وعد الله الحسنى " الحديد ١٠ ،ففى الآية تفضيل طائفة من الصحابة وهم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا على طائفة منهم وهم الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا مع اثبات الفضل للجميع والتنبيه على أن تفضيل بعضهم على بعض لايفضى الى تنقيص المفضول اذ " كلا وعد الله الحسنى "٠

وقال سبحانه :" والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه " الآية ـ التوبة ١٠٠، ففى الآية الثناء على الصحابة أجمعين مع تخصيص السابقين الأولين بالذكر وهذا التخصيص ثم التعميم دليل على تفضيل المخصصين بالذكر على العموم٠

وقال سبحانه وتعالى :" يانساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن " الأحزاب ٣٢٠

قال ابن عباس : " يريد : ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات أنتن أكرم عليّ وثوابكن أعظم"[1] ففي الآية دلالة على تفضيل نساء النبي صلى الله عليه من الصحابيات على سائرهن.

ومن السنة : ما أتفق عليه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه - قال :قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لاتسبوا أصحابي ،فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ،مابلغ مد أحدهم ولانصيفه "[2] وجاء في رواية لمسلم بيان سبب ورود الحديث :أنه كان بين خالد بن الوليد وبين عبدالرحمن بن عوف شيء فسبه خالد، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك . وفيه دليل على تفضيل بعض الصحابة على بعض إذ فيه تفضيل عبدالرحمن وطبقته ممن أسلم قبل الفتح وقاتل على خالد وطبقته ممن أسلم بعد الفتح وقاتل . كما تقدم ذكره-

* وقال ابن عمر - رضي الله عنهما - :" كنا نخير بين الناس في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فنخير أبابكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان "[3].

---

(١) زاد المسير ٣٧٨/٦ ،وتفسير البغوي ٥٢٧/٣.

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، انظره مع الفتح ١٦/٧.

وفي رواية :" كنا نقول ورسول الله حي : أفضل أمة النبي صلى الله عليه وسلم أبوبكر ثم عمر ثم عثمان "(1) زاد في رواية: " فيسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فلا ينكره "(2)

فهذا إقرار رسول الله صلى الله عليه وسلم التفاضل بين الصحابة ، وفيه تفضيل آحاد بأعيانهم على من سواهم وتفضيل واحد بعينه على صاحبه وهو تفضيل أبي بكر على عمر وعمر على عثمان، وقد قال ابن عبدالبر : " فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من أصحابه بفضائل خص كل واحد منهم بفضيلة وسمه بها وذكره فيها " قال :" ولم يأت عنه عليه الصلاة والسلام أنه فضل منهم واحدا على صاحبه بعينه من وجه يصح " قلت : لعله يريد أنه لم يصح ذلك عنه صلى الله عليه وسلم من قوله لا من إقراره وإلا فحديث ابن عمر صحيح ،ثم قال ابن عبدالبر : " ولكنه ذكر من فضائلهم ما يستدل به على مواضعهم ومنازلهم من الفضل والدين والعلم وكان صلى الله عليه وسلم أحلم وأكرم معاشرة وأعلم

---

(1) أخرجه أبوداود في سننه ٢٠٦/٤.

(2) أخرجه الطبراني كما قال الهيثمي في المجمع ٥٨/٩ وابن حجر في الفتح ١٦/٧ ،قال الهيثمي :" في الأوسط " وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة ٥٦٨/٢ وصححه الألباني وأخرجه اللالكائي في الشرح ١٣٦٥/٧.

بمحاسن الأخلاق من أن يواجه فاضلا منهم بأن غيره أفضل منه فيجد من ذلك فى نفسه ،بل فضل السابقين منهم وأهل الاختصاص به على من لم ينل منازلهم فقال لهم :" لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا مابلغ مد أحدهم ولانصيفه ،وهو من معنى قول الله تعالى :" لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا " ،ومحال أن يستوى من قاتله صلى الله عليه وسلم مع من قاتل عنه ،وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض من لم يشهد بدرا وقد رآه يمشى بين يدى أبى بكر :" تمشى بين يدى من هو خيرك منك "(1) وهذا لأنه كان أعلمنا ذلك فى الجملة لمن شهد

---

(1) روى عن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه قال : رآنى النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أمشى أمام أبى بكر فقال :" أتمشى أمام أبى بكر ؟ ماطلعت الشمس ولاغربت بعد النبيين والمرسلين على أحد أفضل من أبى بكر " أخرجه أبونعيم فى الحلية ٣٢٥/٣ البغدادى فى تاريخ بغداد ٤٣٨/١٢ بلفظ :" ياأبا الدرداء ،أتمشى أمام من هو خير منك فى الدنيا والآخرة ؟ ماطلعت الشمس .." ،وقد تقدم الكلام فيه ص٤٩٧ فى الهامش وأن فيه مدلسين رووا بالعنعنة ، والحديث أخرجه الطبرانى أيضا بسندين فى أحدهما كذاب وفى الآخر مدلس ،ذلك ذلك الهيثمى فى المجمع ٤٤/٩ .

بدرا والحديبية ،ولكل طبقة منهم منزلة معروفة وحال موصوفة"[1].

قلت : ثبوت تفضيل طائفة موصوفة من الصحابة على طائفة بالكتاب والسنة دليل قوى للقطع بتفضيل واحد بعينه من الطائفة الفاضلة على واحد بعينه من الطائفة المفضولة ،وحديث أبى سعيد دليل لصحة هذا المأخذ فإن سبب وروده نزاع بين واحد بعينه من طائفة فاضلة وهو عبدالرحمن بن عوف ممن أسلم قبل الفتح وقاتل،وآخر بعينه من طائفة مفضولة وهو خالد بن الوليد ممن أسلم من بعد وقاتل،فقال صلى الله عليه وسلم ماقال مما يدل على تفضيله عبدالرحمن على خالد، والله أعلم.وهذا الحديث وإن لم يذكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم الصحابيين باسميهما إلا أنه كالتنصيص منه صلى الله عليه وسلم بتفضيل واحد بعينه على صاحبه، لدلالة سبب الورود على ذلك ولكنه صلى الله عليه وسلم - كما قال ابن عبدالبر - أكرم وأحلم وأتم خلقا وأحسن معاشرة من أن يسمى الفاضل والمفضول تسمية صريحة فى مثل هذه الحال ،والله أعلم.

---

(١) الاستيعاب - بهامش الإصابة - ٩/١.

وهنا **مسألة** : وهي : التفاضل ثابت بين الصحابة رضوان الله عليهم فهل نفاضل بينهم ؟.

روى البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : " كنا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لانعدل بأبي بكر أحدا ،ثم عمر ثم عثمان ،ثم نترك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لانفاضل بينهم "(1) ففي هذا اللفظ حصر المفاضلة في الثلاثة دون غيرهم ،ولكن قد ثبت بالكتاب والسنة تفضيل بعض الصحابة على بعض ـ كما تقدم طرف منه وكما سيأتي بيانه ـ ولابد من تفضيل من فضله الله واعتقاد ذلك ،ولذا قال ابن حجر :" قد اتفق العلماء على تأويل كلام ابن عمر هذا لما تقرر عند أهل السنة قاطبة من تقديم علي بعد عثمان ومن تقديم بقية العشرة المبشرة على غيرهم ومن تقديم أهل بدر على من لم يشهدها وغير ذلك فالظاهر أن ابن عمر إنما أراد بهذا النفي أنهم كانوا يجتهدون في التفضيل فيظهر لهم فضائل الثلاثة ظهورا بينا فيجزمون به ولم يكونوا حينئذ أطلعوا على التنصيص "(2).

---

(1) البخاري مع الفتح ٥٤/٧.

(2) فتح الباري ٥٨/٧.

فمذهب أهل السنة والجماعة تفضيل الصحابة بعضهم على بعض بمقتضى دلالات النصوص.

المطلب الثاني: أوجه التفاضل بين الصحابة:

لقد دل الكتاب والسنة على أوجه حكما بها في المفاضلة بين الصحابة، وجماع هذه الأوجه هو ما سلف من كل واحد منهم من أعمال البر والطاعات التي تتفاضل منزلتها عند الله.

* فمن أوجه التفاضل بينهم: السبق الى الإسلام فالسابق إلى الإسلام أفضل من المسبوق، أفاده قوله سبحانه: " والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار .." الآية ١٠٠ التوبة.

* ومن أوجه التفاضل بينهم: الإنفاق والجهاد قبل الفتح فمن أنفق من قبل الفتح وقاتل أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، أفادته آية سورة الحديد.

* ومن أوجه التفاضل بينهم: شهود بدر كما أفاده قول صلى الله عليه وسلم " لعل الله أن يكون اطلع على أهل بدر فقال: أعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم"(١)

---

(١) سبق تخريجه وهو متفق عليه.

* ومن أوجه التفاضل بينهم: شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة فمن شهد له بها أفضل ـ كما سيأتي بيانه.

* ومن أوجه التفاضل بينهم شهود بيعة الرضوان فمن شهدها أفضل كما سيأتي بيانه.

* ومن أوجه التفاضل بينهم تخصيص الرسول صلى الله عليه وسلم أحدهم بمنقبة.

وغير ذلك من وجود التفاضل بينهم رضوان الله عليهم، وينبغي الانتباه الى ماسبق أن بينته في الباب الأول من كون المفضول قد يختص بفضيلة لاتوجد في الفاضل إلا أن ذلك لايقتضي تفضيله بها مطلقا، فعثمان بن عفان رضي الله عنه لم يحضر بدرا،(١) ولكنه أفضل بعد أبي بكر وعمر من جميع الصحابة من حضر بدرا ومن لم يحضر.

---

(١) انظر المغازي ١/١٥٤، والسيرة النبوية ٢/٧٢٠.

المطلب الثالث : فضل الشيخين أبي بكر وعمر :

لقد دلت الأدلة الشرعية على تقديم أبي بكر الصديق في الفضل على سائر الصحابة، ثم من بعده عمر رضي الله عنهما، واختص هذان الشيخان رضي الله عنهما بفضل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم - لايشاركهما فيه أحد فهما أفضل الأمة بعد نبيها وهما أفضل الخلق بعد الأنبياء.

* قال تعالى :" إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا " التوبة ٤٠

" إذ يقول لصاحبه " يعني النبي صلى الله عليه وسلم يقول لصاحبه أبي بكر ،ففي حديث أبي بكر قال رضي الله عنه :" قلت للنبي صلى الله عليه وسلم وأنا في الغار لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا ،فقال :(ماظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما " (١) فذكر أبي بكر رضي الله عنه بوصف الصحبة في القرآن دليل على أنه تميز في صحبته على جميع الصحابة،

---

(١) متفق عليه ، البخاري مع الفتح ٨/٧،
ومسلم ١٨٥٤/٤.

وكذا خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بوصف الصحبة

كما في حديث أبي الدرداء قال :" كانت بين أبي بكر وعمر محاورة فأغضب أبوبكر عمر فانصرف عنه عمر مغضبا فاتبعه أبوبكر يسأله أن يستغفر له فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه ،فأقبل أبوبكر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال أبو الدرداء : ونحن عنده - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما صاحبكم فقد غامر ، قال:وندم عمر على ماكان منه ،فأقبل حتى سلم وجلس الى النبي صلى الله عليه وسلم وقص على رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر ،فقال أبو الدرداء : وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم،وجعل أبوبكر يقول : والله يارسول الله لأنا كنت أظلم ،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أنتم تاركوا لي صاحبي ،هل أنتم تاركوا لي صاحبي ؟ إني قلت: ياأيها الناس اني رسول الله إليكم جميعا ،فقلتم كذبت وقال أبوبكر : صدقت "(1)

ففي هذا الحديث من الدلائل الظاهرة على فضل أبي بكر وتفضيله على عمر وسائر الصحابة مالاتحتاج معه الى بيان.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه وقال :" غامر:سبق بالخير"

الصحيح مع الفتح ٣٠٣/٨.

* وقال صلى الله عليه وسلم :" ان من آمن الناس عليّ في صحبته وماله أبابكر ولو كنت متخذا خليلا من أمتي لاتخذت أبي بكر، إلا خلة الإسلام ،لايبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر "(1).

* ومن حديث جبير بن مطعم قال : أتت امرأة النبي صلى الله عليه وسلم فأمرها أن ترجع إليه ،قالت :أرأيت إن جئت ولم أجدك؟ كأنها تقول الموت ،قال عليه السلام :" إن لم تجديني فأتي أبابكر"(2).

* ومن حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه على جيش ذات السلاسل فأتيته فقلت :أي الناس أحب إليك ؟ قال :" عائشة " فقلت :من الرجال ؟ قال :"أبوها" قلت : ثم من ؟ قال :" عمر بن الخطاب " فعد رجالا(3). فهذا بين الدلالة على تفضيل أبي بكر ثم عمر على جميع الصحابة.

* ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح ثم أقبل على الناس ،فقال :" بينا

---

(1) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ،البخاري مع الفتح ٢٢٧/٧، ومسلم ١٨٥٤/٤ – ١٨٥٥.

(2) متفق عليه ،البخاري مع الفتح ١٧/٧ ،ومسلم ١٨٥٦/٤ – ١٨٥٧.

(3) متفق عليه ،البخاري مع الفتح ١٨/٧ ،ومسلم ١٨٥٦/٤.

رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها ،فقالت : إنا لم نخلق لهذا ،إنما خلقنا للحرث " فقال الناس : سبحان الله ،بقرة تكلم؟ فقال : " فإني أومن بهذا أنا وأبوبكر وعمر " وماهما ثم ،" وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة ، فطلب حتى كأنه استنقذها منه ،فقال له الذئب : هذا استنقذتها مني فمن لها يوم السبع يوم لاراعي لها غيري ؟" فقال الناس: سبحان الله ذئب يتكلم ؟ قال :" فإني أومن بهذا أنا وأبوبكر وعمر " وماهما ثم .(1)

* وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو واقف على عمر في سرير موته بعد أن ترحم عليه : " ماخلفت أحدا أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك ،وأيم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك وحسبت أني كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول :" ذهبت أنا وأبوبكر وعمر ،ودخلت أنا وأبوبكر وعمر ،وخرجت أنا وأبوبكر وعمر ".(2)

---

(1) متفق عليه ، البخاري مع الفتح ٥١٢/٦ ،ومسلم ١٨٥٧/٤ - ١٨٥٨.

(2) متفق عليه من حديث ابن عباس ،البخاري مع الفتح ٤١/٧ ،٤٢ ومسلم ١٨٥٨/٤ - ١٨٥٩.

فهذه نتفة من جملة أحاديث فيها فضيلة ظاهرة لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما وفيها الدلالة الساطعة في تفضيلهما على جميع الصحابة .

وقد اتفق أهل السنة والجماعة على ذلك ، يقول ابن تيمية رحمه الله : "أما تفضيل أبي بكر ثم عمر على عثمان وعلي فهذا متفق عليه بين أئمة المسلمين المشهورين بالإمامة في العلم والدين: من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وهو مذهب مالك وأهل المدينة والليث بن سعد وأهل مصر ، والأوزاعي وأهل الشام ، وسفيان الثوري وأبي حنيفة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة ، وأمثالهم من أهل العراق ، وهو مذهب الشافعي وأحمد واسحاق وأبي عبيد ، وغير هؤلاء من أئمة الاسلام الذين لهم لسان صدق في الأمة "قال : " وحكى مالك إجماع أهل المدينة على ذلك فقال : ما أدركت أحدا ممن أقتدي به يشك في تقديم أبي بكر وعمر"(1)

---

(1) الفتاوى ٤٢١/٤ ، وانظر الرواية عن مالك بما نقله ابن تيمية في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٣٦٨/٧.

وانظر منهاج السنة ٧٢/٢ - ٧٣.

المطلب الرابع : تفضيل الخلفاء الراشدين والتفاضل بينهم:

أولا .. ذكر تفضيلهم على سائر الأمة :

المقصود بالخلفاء الراشدين: أبوبكر الصديق، وعمربن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

وهؤلاء الأربعة هم أفضل الامة بعدنبيها صلى الله عليه وسلم بإجماع الصحابة وأتباعهم واجماع أهل الاجماع من بعدهم حتى يومنا هذا والى أن تقوم الساعة بإذن الله لايزيغ عن ذلك إلا زائغ ولقد قال صلى الله عليه وسلم :" عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ"(1).

فوصفهم بالهدى والرشاد وجعلهم قدوة للأمة وقرن سنتهم بسنته وفي حديث ابن عمر السابق ذكره قريبا اتفاق الصحابة رضوان الله عليهم على تقديم أبي بكر وعمر وعثمان على سائر الناس هذا والنبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم يقر ذلك بسكوته عنه صلى الله عليه وسلم، ولم يذكر ابن عمر في رواية الصحيح عليا رضي الله عنه وقال :" ثم نترك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لانفاضل بينهم "، وقد اتفق العلماء - كماذكر

---

(1) أخرجه أحمد في المسند ١٢٦/٤ - ١٢٧، وابن ماجة في سننه ١٦/١، وأبو داود في سننه ٢٠١/٤، والترمذي في جامعه ٤٣/٥، والدرامي ١٤٥/١.

قريبا - على تأويل كلام ابن عمر هذا فمما قالوه في ذلك:

أنه لايلزم من تركهم التفاضل اذ ذاك أن لايكونوا اعتقدوا

بعد ذلك تفضيل علي على من سواه ،قاله ابن حجر[(1)] ، ونقل عن

الكرماني قوله :" ويحتمل أن يكون ابن عمر أراد أن ذلك كان

وقع لهم في بعض أزمنة النبي صلى الله عليه وسلم فلايمنع ذلك

أن يظهر بعد ذلك لهم "[(2)] وقال الخطابي :" وجه ذلك والله

أعلم أنه أراد به الشيوخ وذوي الأسنان منهم الذين كان

رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ضربه أمر شاورهم فيه وكان

علي رضوان الله عليه في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم

حديث السن " قال :" ولم يُرِدْ ابن عمر الإزراء بعلي رضي الله

عنه ولاتأخيره ودفعه على الفضيلة بعد عثمان ،وفضله مشهور

لاينكره ابن عمر ولاغيره من الصحابة ،وإنما اختلفوا في تقديم

عثمان عليه"[(3)] قال ابن حجر معقبا على الخطابي :" ما اعتذر به

من جهة السن بعيد لا أثر له في التفضيل المذكور"[(4)] ،

وقال ابن حجر :" الظاهر أن ابن عمر إنما أراد بهذا النفي أنهم كانوا

---

(1) فتح الباري ١٧/٧.

(2) فتح الباري ٥٨/٧.

(3) معالم السنن - بهامش المختصر - ١٨/٧.

(4) فتح الباري ٥٨/٧.

يجتهدون فى التفضيل فيظهر لهم فضائل الصحابة ظهورا بينا فيجزمون به ولم يكونوا حينئذ اطلعوا على التنصيص" ـ قال :" ويؤيده ماروى البزار عن ابن مسعود قال :(كنا نتحدث أن أفضل أهل المدينة علي بن أبى طالب) رجاله موثقون (١) ،وهو محمول على أن ذلك قاله ابن مسعود بعد قتل عمر" (٢) . هذا ،وقد جاء فى بعض طرق حديث ابن عمر اقراره بتقديم علي على غيره ففيها يقول ابن عمر رضى الله عنهما " كنا نقول فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الناس ثم أبوبكر ثم عمر ،ولقد أوتى ابن أبى طالب ثلاث خصال لأن يكون لى واحدة منهن أحب الىّ من حمر النعم ،زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته وولدت له وسد الأبواب إلا بابه فى المسجد

---

(١) انظر كشف الأستار ١٩٥/٣ ،وقال الهيثمى فى المجمع ١١٦/٩ : " رواه البزار وفيه يحيى بن السكن ،وثقه ابن حبان وضعفه صالح جزرة وبقية رجاله ثقات "، وأخرجه الحاكم فى المستدرك ١٣٥/٣ بلفظ "أقضى " وهو بهذا اللفظ فى المطالب العالية ٥٧/٤.

(٢) فتح البارى ٥٨/٧.

وأعطاه الراية يوم خيبر".(1)

والحاصل أن هؤلاء الأربعة رضوان الله عليهم هم أفضل الأمة بعد نبيها بإجماع الصحابة وأتباعهم، وممن حكى هذا الإجماع الشافعي رحمه الله(2)، وعقد الخلال(أ) في السنة عنوانا فقال: "التبعة على من قال: أبوبكر وعمر وعثمان وعلي في التفضيل، والحجة فيه أن عليا أفضل من بقي بعد عثمان بإجماع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم".(3)

---

(1) رواه أحمد في المسند 16/2 قال ابن حجر في الفتح 15/7 " إسناده حسن "، وقال الهيثمي في المجمع 120/9: " رواه أحمد وأبويعلى ورجالهما رجال الصحيح "، وصحح أحمد شاكر إسناد أحمد، وأخرجه بن أبي عاصم في السنة 569/2 وقال الألباني: " إسناده جيد، ورجاله رجال البخاري غير هشام".

(2) انظر فتح الباري 17/7 والاعتقاد 369.

(3) السنة 404.

- - - - - - - - - - - - -

(أ) هو أحمد بن محمد بن هارون، من كبار الحنابلة، وهو جامع علم أحمد ابن حنبل ومرتبه، ت 311 هـ. انظر سير أعلام النبلاء 297/14، وتاريخ بغداد 112/5.

وقال أبوالحسن الأشعري بعد ذكره هؤلاء الأربعة الراشدين:

" وهؤلاء هم الأئمة الأربعة المجمع على عدلهم وفضلهم رضي الله عنهم أجمعين"(1).

وقال الصابوني(أ) في بيان عقيدة السلف وأصحاب الحديث :" ويشهدون ويعتقدون أن أفضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبوبكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي "(2).

وقال ابن تيمية رحمه الله :" خيرهذه الأمة بعد نبيها أبوبكر ثم عمر كما تواتر ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب موقوفا ومرفوعا وكمادل على ذلك الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وأئمة العلم والسنة ،وبعدهما عثمان وعلي "(3)

وقال رحمه الله في بيان أصول أهل السنة :" ويقرون بماتواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وعن غيره من أن

---

(1) الإبانة ٢٥٩.

(2) عقيدة السلف وأصحاب الحديث ـ ضمن مجموعة الرسائل المنبرية ١٢٨/١

(3) مجموعة الرسائل والمسائل ٤٦/١.

- - - - - - - - - - - - - - - - - -

(أ) هو اسماعيل بن عبدالرحمن بن أحمد ،أبوعثمان ،مقدم أهل الحديث في خراسان ،وشيخ الاسلام ،من أئمة أهل السنة ت ٤٤٩هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٤٠/١٨ ،وطبقات الشافعية ١١٧/٣.

خير هذه الأمة بعد نبيها أبوبكر ثم عمر ، ويثلثون بعثمان ،ويربعون بعلي رضي الله عنهم كما دلت عليه الآثار"[1]

فالواجب اعتقاده تفضيل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم على سائر الأمة بل على سائر الخلق بعد الأنبياء على نحو ماتقدم بيانه .

ثانيا : ذكر تفاضل الأربعة رضوان الله عليهم :

أجمع الصحابة رضوان الله عليهم على تفضيل أبي بكر وتقديمه على سائر الصحابة ثم تفضيل عمر بعده على عثمان ثم عثمان بعد عمر على من بعده رضوان الله عليهم ،وكانوا يتحدثون بذلك في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وهو يسمعهم فلا ينكره - كما تقدم في حديث ابن عمر - ثم أجمعوا على تقديم علي بعد عثمان فقدموه وبايعوه بالخلافة .

فالصحابة مجمعون على تفضيل أبي بكر على عمر ثم عمر على عثمان ثم عثمان على علي رضي الله عنهم أجمعين ،ولقد اتفق الناس - الصحابة وغيرهم - بعد مقتل عمر رضي الله عنه على

---

(١) العقيدة الواسطة - ضمن المجموعة العلمية السعودية ص ٨٦ .

تفضيل عثمان ،حكى هذا الاتفاق صاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم - عبدالرحمن بن عوف وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهما أما عبدالرحمن فقد قال في قصة بيعة عثمان رضي الله عنه لما اختاره للخلافة بعد عمر :" أما بعد ،ياعلي إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان "(1) وكان قد قال رضي الله عنه قبل ذلك للشيخين عثمان وعلي رضي الله عنهما حين التشاور: " أفتجعلونه - (يعني أمر الاختيار) - اليّ والله على أن لا آلو عن أفضلكم "(2) وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه لما استخلف عثمان :" أمرنا خير من بقي ولم نأل "(3) وقال رضي الله عنه :

---

(1) أخرجه البخاري انظره مع الفتح ١٩٤/١٣ ،وقد كان عبدالرحمن رضي الله عنه قد اجتهد غاية الاجتهاد قال ابن كثير في الباعث الحثيث ص ١٥٥ :" حتى سأل النساء في خدورهن والصبيان في المكاتب فلم يرهم يعدلون بعثمان أحداً".

(2) أخرجه البخاري انظره مع الفتح ٦١/٧.

(3) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة ٤٦١/١ قال المحقق :"إسناده صحيح" وابن سعد في الطبقات ٦٣/٣ ،والفسوي في المعرفة والتاريخ٧٦٠/٢، والخلال في السنة ص ٣٨٤ ،وقال الهيثمي في المجمع ٨٨/٩:" رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح " وأخرجه اللالكائي في الشرح ١٣٤٢/٧.

: "إنا اجتمعنا أصحاب محمد فلم نأل عن خيرنا ذى فَوْقٍ فبايعنا أميرالمؤمنين عثمان "[1]

وقال الإمام أحمد " لم يكن بين أصحاب رسول الله اختلاف إن عثمان أفضل من علي ".[2]

ومضى اعتقاد أهل السنة والجماعة على ذلك إلا ماكان من خلاف يسير في المفاضلة بين عثمان وعلي أيهما أفضل ؟ بعد أن أجمعوا على تقديم أبى بكر وعمرعليهما فى الفضل بلا خلاف وتفضيل أبى بكر على عمر بلاخلاف .

قال الشافعي رحمه الله :" ما اختلف أحد من الصحابة والتابعين فى تفضيل أبى بكر وعمر وتقديمهما على جميع الصحابة وإنما اختلف من اختلف منهم فى علي وعثمان". قال البيهقى ـ بعدذكره قول الشافعى هذا بسنده ـ :" وروينا عن جماعة من التابعين

---

(١) أخرجه أحمد فى فضائل الصحابة ٢٩٦/١ ،٤٦٣ ،قال المحقق فى ص ٢٩٦ / " رجال الاسناد ثقات " ،وقال فى ص ٤٦٧ :"اسناده حسن" وأخرجه ابن سعد فى الطبقات ٦٣/٣ ،والفسوى فى المعرفة والتاريخ ٧٦١/٢ ،وأخرجه اللالكائى فى الشرح ١٣٤٢/٧.

(٢) السنة للخلال ٣٩٢.

وأتباعهم نحو هذا"[1] وقال يحى بن سعيد القطان[أ]:" من أدركت من أصحاب النبي والتابعين لم يختلفوا فى أبى بكر وعمر وفضلهما إنما كان الاختلاف فى علي وعثمان"[2] والخلاف الذى وقع فى ذلك خلاف يسير، وماوقع إلا فى المفاضلة بينهما، وتقديم أحدهما على الآخر فى الفضل دون الخلافة، فإنهم مجمعون بلا خلاف على تقديم عثمان على علي فى الخلافة، وعلى صحة الخلافتين، ثم إن ذاك الخلاف قد انقضى واستقر أمر أهل السنة على تفضيل عثمان على علي ورجع بعض من قال بتقديم علي الى تقديم عثمان، يقول ابن تيمية رحمه الله :" مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا فى عثمان وعلي رضى الله عنهما بعد اتفاقهم على تقديم أبى بكر وعمر، أيهما أفضل، فقدم قوم عثمان وسكتوا وربعوا بعلي، وقدم قوم عليا، وقوم توقفوا " قال :" لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ثم علي، وإن كانت هذه المسألة - مسألة عثمان وعلي - ليست من الأصول التى يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة، لكن التى يضلل فيها هى مسألة الخلافة، وذلك أنهم

---

(١) الاعتقاد ٣٦٩.

(٢) شرح أصول اعتقاد اهل السنة ١٣٦٧/٧.

(أ) هو يحيى بن سعيد بن فروخ القطان، من حفاظ الحديث وأئمة الجرح والتعديل، ثقة حجة من أهل البصرة، قال الامام أحمد :" لم ترعيني مثل يحيى القطان" ت ١٩٧هـ . انظر تاريخ بغداد ١٣٥/١٤، وتهذيب التهذيب ٢١٦/١١.

يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ،ومن طعن فى خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله (1) ".

وقال ابن عبدالبر بعد ذكره للخلاف الواقع بين أهل السنة فى المفاضلة بين عثمان وعلي " وأهل السنة اليوم على ماذكرت لك من تقديم أبى بكر فى الفضل على عمر وتقديم عمر على عثمان وتقديم عثمان على علي رضى الله عنهم (2) "وقال ابن الصلاح :" وتقديم عثمان هو الذى استقرت عليه مذاهب أصحاب الحديث والسنة (3) " وقال ابن حجر :"الإجماع انعقد بأخرة بين أهل السنة أن ترتيبهم فى الفضل كترتيبهم فى الخلافة (4) ".

وحاصل ماكان عليه أهل السنة فى المفاضلة بين عثمان وعلى ثلاثة مذاهب :

الأول/تفضيل عثمان ثم علي – وكان مذهب الجمهور.

الثانى/تفضيل علي ثم عثمان – وكان قد ظهر فى أهل الكوفة.

الثالث /التوقف عن المفاضلة بينهما – وكان قد ظهر فى أهل المدينة.

فالمذهب الأول هو الذى عليه عامة أهل السنة كما قال ابن عبدالبر (5)

---

(1) العقيدة الواسطة – ضمن المجموعة العلمية السعودية – ص ٨٦.

(2) الاستيعاب – بهامش الاصابة – ٣/٥٤.

(3) المقدمة ص ١٤٩.

(4) فتح البارى ٧/٣٤.

(5) الاستيعاب ٣/٥٤.

والخطابي[1]، وابن حجر[2] وغيرهم، وفي هؤلاء من توقف في التفضيل عند عثمان فقال بتفضيل عثمان بعد عمر وسكت على ذلك، مع اعتقاده بالتربيع بعلي، وإنما قصد بالتوقف عند عثمان الاقتداء بحديث ابن عمر المتقدم، وهم لايقدمون على علي أحدا بعد الثلاثة،

ومن هؤلاء أحمد بن حنبل وصرح رحمه الله بأن التوقف عند عثمان إنما هو عمل بحديث ابن عمر فقال: "نقول أبوبكر وعمروعثمان ونسكت، على حديث ابن عمر"[3] وقال رحمه الله: "فإن قال قائل من بعد عثمان؟ قلت: علي"[4] وقال رحمه الله لمن سأله عمن قال: أبوبكر وعمروعثمان وعلي، قال: " أذهب إليه، ويعجبني أن أقول أبوبكر وعمر وعثمان وأسكت، وإن قال رجل: وعلي، لم أعنفه، ولايعجبني هذا القول قال ابن عمر: أبوبكر وعمروعثمان، ونترك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لانفضل بينهم"[5] وقال رحمه الله: " من وقف على عثمان ولم يربع بعلي فهوعلى غيرالسنة"[6]. وهذا المسلك مروي عن

---

(١) معالم السنن - بهامش المختصر - ١٨/٧.

(٢) فتح الباري ١٦/٧.

(٣) السنة للخلال ص ٣٩٧.

(٤) السنة للخلال ص ٤٠٥.

(٥) السنة للخلال ص ٤٠٥.

(٦) طبقات الحنابلة ٣١٣/١.

جماعة من أئمة أهل السنة كيحيى بن معين وبشر بن الحارث ويزيد بن زريع ومحمد بن عبيد وعبد الله المبارك، وغيرهم[1]، وسبق بيان أن ما ورد في حديث ابن عمر من السكوت عن عثمان متأول بأمور منها أن الإجماع المنعقد على تقديم علي بعد عثمان إنما حدث بعد الزمن الذى قيده ابن عمر.

وأما المذهب الثانى وهو تفضيل علي ثم عثمان بعد أبى بكر وعمر فهو مذهب عامة أهل الكوفة، قال الخطابى :" ذهب أكثر أهل الكوفة الى تقديمه - (يعنى عليا) - على عثمان رضى الله عنهما " قال :" وحدثنى محمد بن هاشم حدثنا أبو يحيى بن أبى ميسرة عن عبد الصمد قال : قلت لسفيان الثورى :" ما قولك فى التفضيل؟ فقال : أهل السنة من أهل الكوفة يقولون : أبو بكر وعمر وعلي وعثمان ، وأهل السنة من أهل البصرة يقولون : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضى الله عنهم، قلت : فما تقول أنت ؟ قال: أنا رجل كوفى " قال الخطابى :" قلت : وقد ثبت عن سفيان أنه قال فى آخر قوليه :" أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضى الله عنهم"[2]

---

(١) انظر السنة للخلال ٣٩٧، ٤٠٠، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤١٠، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة ١٣٨٩/٧، ١٣٩٢، ١٣٦٩.

(٢) معالم السنن - بهامش المختصر - ١٨/٧.

وكما رجع سفيان الثوري رجع غيره من أهل الكوفة كما قال ابن تيمية رحمه الله "إن سفيان الثوري وطائفة من أهل الكوفة رجحوا عليا على عثمان ،ثم رجع عن ذلك سفيان وغيره"[1].

وقال ابن حجر :" ذهب بعض السلف الى تقديم علي على عثمان، وممن قال به سفيان الثوري ويقال انه رجع عنه ،وقال به ابن خزيمة وطائفة قبله وبعده"[2] هذا ،وقدروى الخلال بسنده عن يحيى بن سعيد القطان أنه قال :" كان رأي سفيان الثوري :أبوبكر وعمر ثم يقف"[3] وكان التوقف مذهب يحيى بن سعيد وقال الامام أحمد: " بلغني أن يحيى كان يقف عند ذكر عمر" قال " وكان يأخذه من سفيان"[4] يعني الثوري ،فلا أدري متى كان التوقف من سفيان ؟والله أعلم.

وأما المذهب الثالث وهو التوقف عن المفاضلة بينهم ،فهو رواية عن مالك ،ففي المدونة قال ابن القاسم :" وسألت مالكا عن خير الناس بعد نبيهم صلوات الله عليه ،فقال :أبوبكر ثم قال : أوفي ذلك شك ؟ ،قال ابن القاسم : فقلت لمالك : فعلي

---

(١) الفتاوى ٤٢٦/٤ وانظر منهاج السنة ٧٣/٢ - ٧٤.

(٢) فتح الباري ١٦/٧ وانظر الباعث الحثيث ص ١٥٦.

(٣) السنة ٣٧/٣ وقال المحقق "إسناده صحيح ".

(٤) رواه الخلال بسنده في السنة ص ٣٧٢ وقال المحقق "إسناده صحيح"

وعثمان أيهما أفضل فقال : ما أدركت أحدا ممن أقتدى به يفضل أحدهما على صاحبه ـ يعني عليا وعثمان ـ ويرى الكف عنهما "(1)

وروى ابن عبد البر

بسنده أن مالكا سئل : من تقدم بعد رسول الله ؟ قال أقدم أبا بكر وعمر لم يزد على هذا . وروى أيضا قول مالك :" ليس من أمر الناس الذى مضوا عليه أن يفاضلوا بين الناس "(2) وروى اللالكائى بسنده أن مالكا سئل عن علي وعثمان فقال :" ما أدركت أحدا ممن يقتدى به إلا وهو يرى الكف عنهما ،يريد التفضيل بينهما " فقيل له : فأبوبكر وعمر فقال :" ليس فى أبى بكر وعمر شك ، يريد أنهما أفضل من غيرهما "(3) وقد ذكر ابن تيمية أن مالكا رجع عن التوقف الى تفضيل عثمان ثم علي فقال :" أما عثمان وعلي فكان طائفة من أهل المدينة يتوقفون فيهما وهى احد الروايتين عن مالك "(4) وقال فى موضع آخر: "وبعض أهل

---

(1) المدونة ٤٥١/٦ .

(٢) الانتقاء ٣٥ – ٣٦ .

(٣) شرح أصول الاعتقاد ٣٦٨/٧ .

(٤) منهاج السنة ٧٣/٢ .

المدينة توقف فى عثمان وعلي وهى إحدى الروايتين عن مالك، لكن الرواية الأخرى عنه تقديم عثمان على علي كما هو مذهب سائر الأئمة (1) " وقد اعتمد ابن رشد فى كلام له تقديم عثمان ثم علي مذهبا لمالك وقال :" وقيل :إنه الذى رجع إليه مالك بعد أن كان وقف فى عثمان وعلي ،فلم يفضل أحدهما على صاحبه على ظاهر ماوقع فى كتاب الديات من المدونة " قال ابن رشد :" على أنه كلام محتمل للتأويل (2) " وذكر السيوطى أنه قد " حكى القاضى عياض عن الإمام مالك أنه رجع عن التوقف إلى تفضيل عثمان قال القرطبى : وهو الأصح إن شاء الله (3) "ولعل من وافق مالكا على التوقف قبل الرجوع يكون قد رجع الى تفضيل عثمان على علي كما رجع مالك موافقة له فى الرجوع بعد موافقته فى التوقف ،ولقد روى الخلال بسنده عن أيوب السختياني (أ) أنه قال : "دخلت المدينة والناس متوافرون القاسم بن محمد وسليمان وغيرهما فما رأيت أحدا يختلف فى تقديم أبى بكر وعمر وعثمان (4) ".

---

(1) الفتاوى ٤/٤٢٦.

(2) الجامع من المقدمات ١٧٤ وانظر حاشية المحققين رقم (٣).

(3) تدريب الراوى ٢/٢٢٣ وانظر لوامع الأنوار ٢/٣٥٦.

(4) السنة ص ٤٠٣.

(أ) هو أيوب بن أبى تميمة ،تابعي من حفاظ الحديث ،ثقة ثبت ،ت ١٣١هـ انظر تهذيب التهذيب ١/٢٩٧،وحلية الأولياء ٣/٣.

وتوقف فى المفاضلة بين عثمان وعلي من غير أهل المدينة يحيى بن سعيد القطان من أهل البصرة وقد استغرب عبدالرحمن بن مهدى[أ] ذلك فقال ليحيى : " بمن تقتدى فى هذا وأهل البصرة ليس هذا قولهم ؟! "[1] ذكر ابن حجر أن يحيى القطان تبع مالكا فى التوقف،[2] ولكن قدسبق قبل قليل قول الإمام أحمد أن يحيى أخذ التوقف عن سفيان الثورى، ويحيى قدحكى هذا القول عن سفيان فقد أخرج الخلال أن يحيى بن معين قال : " قال يحيى بن سعيد : كان رأي سفيان الثورى : أبوبكر وعمرثم يقف، قال يحيى بن معين :" وهو رأى يحيى بن سعيد "[3] كأنه يشير الى أن ذلك منه موافقة لسفيان فيمارواه عنه. والله أعلم.

---

(١) السنة للخلال ص ٣٧٢ — ٣٧٣ .

(٢) فتح البارى ١٦/٧.

(٣) السنة ص ٣٧٣.

- - - - - - - - - - - - - -

(أ) هوعبدالرحمن بن مهدى بن حسان العنبرى البصري اللؤلؤى، أحد كبار حفاظ الحديث، قال فيه الشافعى :" لا أعرف له نظير فى الدنيا " ت ١٩٨هـ .

انظر تاريخ بغداد ٢٤٠/١٠، وتهذيب التهذيب ٦/ ٢٧٩.

والحاصل أن ماروي عن أئمة السلف من تقديم علي على عثمان أو التوقف فيهما قد رجعوا عنه واستقر مذهب أهل السنة على تفضيل عثمان ثم علي . وهذا هو المذهب الحق الذى لايجوز العدول عنه لثبوته بالأدلة الشرعية من السنة والإجماع وسبق بيانهما من حديث ابن عمر واجماع الصحابة على تقديم عثمان بعد أبى بكر وعمر وجميع ذلك ثابت صحيح كما تقدم ،ولذلك قال الإمام أحمد :" كل من قدم عليا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار "(١) وكذلك قال حماد بن زيد(٢) وروى نحو ذلك عن جماعة من الأئمة كسفيان الثورى والدارقطنى وغيرهم(٣). حتى أن الأئمة قد تكلموا فى تبديع من يقدم عليا على عثمان على قولين(٤).

وروى عن بعضهم أنه قال : من قدم عليا على عثمان فعليه لعنة الله ،وبعضهم قال : فهو أحمق(٥) .

---

(١) السنة للخلال ص ٣٩٢.

(٢) شرح أصول الاعتقاد ١٣٧٠/٧.

(٣) انظر السنة للخلال ٣٧٥ و ٣٩٢ والفتاوى ٤٢٢/٤ و ٤٢٦ ،و ٤٢٨.

(٤) انظر السنة للخلال هى ٣٨٠ – ٣٨٢ ،والفتاوى ٤٢٦/٤.

(٥) انظر شرح أصول الاعتقاد ١٣٧٠/٧.

هذا ،وقد ذكر ابن حزم [1] عن بعض السلف من الصحابة وغيرهم سمى بعضهم، أن منهم من قال: أفضل الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم جعفر بن أبي طالب ومنهم من قال وبعد جعفر حمزة، وأن منهم من قال أن أفضل الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم عبدالله بن مسعود ،وغير ذلك مما ذكره ابن حزم عن بعض السلف من غير أن يذكر إسنادا لما رواه عنهم ، وقد قال ابن تيمية رحمه الله : " وأما ما يحكى عن بعض المتقدمين من تقديم جعفر وتقديم طلحة أو نحو ذلك فذلك في أمور مخصوصة لا تقديما عاما وكذلك ما ينقل عن بعضهم في علي " [2] ويشهد لما قاله ابن تيمية من كلام ابن حزم نفسه قوله :" وروينا عن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها تذكرت الفضل ومن هو خير فقالت : ومن هو خير من أبي سلمة أول بيت هاجر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم" [3] والمروي عن أم سلمة في ذلك ما جاء في سياق قصة زواجها بالنبي صلى الله عليه وسلم من قولها :" فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيرا منه " قالت :" ثم رجعت الى نفسي قلت : من أين لي خير

---

(1) انظر الفصل ١١١/٤.

(2) منهاج السنة ٧٤/٢.

(3) الفصل ١١١/٤.

من أبي سلمة، فلما انقضت عدتي استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم " فذكرت قصة خطبة النبي لها ثم زواجها منه صلى الله عليه وسلم حتى قولها: " فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيرا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم "(1) وحمل ما ورد في هذه الرواية عن أم سلمة أنه مذهبها وقولها في أفضل الناس بعد رسول الله - كما حمله ابن حزم - عجيب غاية العجب، ولقد وردت أحاديث في تفضيل أعيان من الصحابة كل واحد في أمر مخصوص كما في حديث: " أرحم أمتي بأمتي أبوبكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وأفرضهم زيد بن ثابت وأقرؤهم أبي ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبوعبيدة بن الجراح "(2) ونحو ذلك من الأحاديث ومن قال من السلف مثلا أفرض الصحابة زيد فليس هذا قول منه بأنه أفضل الصحابة بعد النبي وإن توهم الواهم ذلك.

---

(1) أخرجه أحمد في المسند ٢٧/٤ - ٢٨، ٦٠ /٣١٣ و ٣١٧ و ٣٢١ والحاكم ١٦/٤ وصححه ووافقه الذهبي، وانظر الفتح الرباني ٦٧/٢١، ٦٨ وأصله في صحيح مسلم ٦٣٣/٢.

(2) أخرجه الترمذي ٦٢٣/٥ وابن ماجه ٢٥٥/١، وأحمد في المسند ١٨٤/٣ و ٢٨١ .

ومن قبيل ماذكره ابن تيمية رحمه الله ماحكاه الخطابي عن بعض المتأخرين إذ قال :" وللمتأخرين فى هذا مذاهب ،منهم من قال بتقديم أبى بكر من جهة الصحابة وبتقديم علي من جهة القرابة " قال :" وكان بعض مشايخنا يقول :أبوبكر خير وعلي أفضل قال : وباب الخيرية غير باب الفضيلة ،قال : وهذا كما تقول: إن الحر الهاشمي أفضل من العبد الرومى والحبشي ،وقديكون العبد الحبشي خيرا من هاشمي فى معنى الطاعة لله والمنفعة للناس ،فباب الخيرية متعد وباب الفضيلة لازم "(1) وهذا الذى حكاه الخطابي هو فى معنى ماتقرر من أنه قد تكون فى المفضول فضيلة لاتوجد فى الفاضل من غير أن ينال ذلك من تفضيل الفاضل على المفضول . والله أعلم.

وكان ابن عبدالبر قال :" اختلف السلف أيضا فى تفضيل علي وأبى بكر "(2) قال الزركشي " قدغلط فى ذلك ووهم"(3) كيف وهو نفسه ممن نقل اجتماع السلف والخلف علىأن عليا أفضل الناس بعد عثمان.(4)

---

(1) معالم السنن - بهامش المختصر - ١٨/٧ - ١٩.

(2) الاستيعاب - بهامش الاصابة - ٥٢/٣.

(3) الإجابة ص٥٤.

(4) انظرالاستيعاب ٥٢/٣.

المطلب الخامس : أفضل الصحابة بعد الأربعة :

جاء فى عقيدة الإمام احمد وعلى بن المدينى اللتان رواهما اللالكائى بسنده عنهما أنه يلى الخلفاء الثلاثة أبى بكر وعمر وعثمان فى الفضل بقية أصحاب الشورى الخمسة : على وطلحة والزبير وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص (1) وهما لايقدمان على علي أحدا بعد الثلاثة بل قالا هذا موافقة لحديث ابن عمر كما تقدم بيانه.

قال ابن تيمية رحمه الله :" مافى أهل السنة من يقول : إن طلحة والزبير وسعدا وعبدالرحمن بن عوف أفضل منه - (يعنى من علي) بل غاية مايقولون السكوت عن التفضيل بين أهل الشورى وهؤلاء أهل الشورى عندهم أفضل السابقين الأولين والسابقون الأولون أفضل من الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا" (2)

والحاصل أن بقية أصحاب الشورى الذين جعل عمر رضى الله عنه

---

(1) شرح أصول الاعتقاد ١/١٥٩و١٦٧ وطبقات الحنابلة ١/٢٤٣.

(2) منهاج السنة ٣٩٧/٤.

فيهم الأمر من بعده يختارون أحدهم أفضل الصحابة بعد علي رضي الله عنه عند أهل السنة والجماعة، وقال الامام أحمد: " ثم من بعد أصحاب الشورى : أهل بدر من المهاجرين ثم أهل بدر من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قدر الهجرة والسابقة أولا فأولا "(1). وقد نقل جماعة من أهل العلم أن أفضل الصحابة بعد الأربعة بقية العشرة المبشرين بالجنة وهم أصحاب الشورى المذكورون وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأبو عبيدة بن الجراح(2). ثم من بعد العشرة أهل بدر الذين قال فيهم صلى الله عليه وسلم :" لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم "(3)، وفي لفظ " فقد وجبت لكم

---

(1) شرح أصول الاعتقاد 159/1.

(2) انظر عقيدة الحافظ عبدالغنى المقدسي - ضمن المجموعة العلمية السعودية - ص 35 ، والجامع من المقدمات ص 175 ، ومقدمة ابن الصلاح 149 ، والباعث الحثيث ص 156 ، وتقريب النواوي وشرحه التدريب 223/2 ، ولوامع الأنوار البهية 357/2، ومعارج القبول 584/2.

(3) متفق عليه ، وقد سبق .

الجنة "[1] وجاء جبريل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ماتعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : من أفضل المسلمين ـ أوكلمة نحوها ـ قال : وكذلك من شهد بدرا من الملائكة"[2] ثم أهل أحد ثم أهل بيعة الرضوان الذين قال الله فيهم: " إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم" الفتح ١٠ ،وقال فيهم :"لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا " الفتح ١٨ ،وقال فيهم صلى الله عليه وسلم :" لايدخل النار ،إن شاء الله ،من أصحاب الشجرة أحد ،الذين بايعوا تحتها ".[3]

وقد كانوا أكثر من ألف وأربعمائة صحابى كمافى الصحيح.[4]

---

(١) البخارى مع الفتح ٣٠٥/٧.

(٢) أخرجه البخارى ،
الصحيح مع الفتح ٣١٢/٧.

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه ١٩٤٢/٤.

(٤) صحيح البخارى مع الفتح ٤٤١/٧، ٤٤٣، ٤٥٣.

ذكر هذا الترتيب في الفضل بعد العشرة النووي[1] ،وابن الصلاح،[2] وابن كثير. وذكر السفاريني تقديم أهل بيعة الرضوان على[3] أهل أحد بعد أهل بدر وقال هو الأصح ،وقال :" لأن الله تعالى قال في أهل بيعة الرضوان (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة " الفتح ١٨ ،وقال في أهل غزوة أحد: (ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ماكسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور رحيم) آل عمران ١٥٥ ،وفي الآية الأخرى (ثم صرفهم عنكم يبتليكم ولقد عفا عنكم) آل عمران ١٥٢ - فوصفهم في الموضعين بالعفو ووصف أهل البيعة بالرضى وهو أعلى وأسنى وأفضل من العفو " قال :" وهذا ظاهر والله تعالى أعلم "[4]- والله أعلم.

---

(١) التقريب مع التدريب ٢٢٣/٢ - ٢٢٤ .

(٢) المقدمة ١٤٩.

(٣) اختصار علوم الحديث - مع الباعث الحثيث - ١٥٦ .

(٤) اللوامع ٣٧٢/٢.

المطلب السادس : تفاضل جماعات الصحابة :

لقد دل كتاب الله على تفاضل جماعات الصحابة ، فالله عز وجل فضل الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا على الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ،والمقصود بالفتح إما فتح مكة أوصلح الحديبية ،والجمهور على الأول (1) . قال سبحانه : " لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى" الحديد ١٠ – وفضل الله السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار على من دونهم ،فقال سبحانه :" والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه ..." الآية – التوبة ١٠٠ .

وهذا نص على تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار كما يقول القرطبي (2) ، وقد اختلف في تعيين السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار على أقوال (3) :-

(1) انظر زاد المسير ١٦٣/٨.

(2) انظر تفسيره ٢٣٦/٨.

(3) انظر تفسير الطبرى ٦/١١ ،والاستيعاب – بهامش الاصابة – ٢/١-٣ وزاد المسير ٤٩٠/٣ – ٤٩١ – وتفسير القرطبى ٢٣٦/٨ والدر المنثور ٢٦٩/٣ ،٢٧٠.

أحدهما : أنهم الذين صلوا إلى القبلتين ،

الثاني : أنهم أهل بيعة الرضوان.

الثالث : أنهم أهل بدر.

الرابع : أنهم جميع الصحابة بلا استثناء وان الذين اتبعوهم

بإحسان هم تابعوهم من غير الصحابة.

هذه الأقوال المنقولة عن السلف من الصحابة والتابعين ،وزاد

المتاخرون قولان :

أحدهما : أنهم السابقون بالموت والشهادة قال ابن الجوزي: " ذكره الماوردي "(1)

الثاني : أنهم الذين أسلموا قبل الهجرة ،قال ابن الجوزي: "ذكره القاضي أبويعلى"(2)

قال القرطبي :" واتفقوا على أن من هاجر قبل تحويل القبلة فهو من المهاجرين الأولين من غير خلاف بينهم"(3)،والذى أرى في اللفظ دلالة عليه أن المراد بالسابقين الأولين الذين سبقوا إلى الاسلام والهجرة والنصرة وابتدروا ذلك قبل تمكن الإسلام وتتابع الناس عليه ،ولاشك أن أول من يدخل في هؤلاء أوائل من أسلم

---

(1) زاد المسير ٣/٤٩٠.

(2) زاد المسير ٣/٤٩١.

(3) تفسير القرطبي ٨/٢٣٦.

من المهاجرين كالخلفاء الأربعة[1] ومن الأنصار من الذين أسلموا ليلتي العقبة . ولعل جميع من أسلم حتى غزوة بدر من السابقين الأولين ، ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر :" اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لاتعبد في الأرض "[2] فكان يوم بدر فتحا للإسلام والمسلمين تتابع الناس بعده على الإسلام ، والله أعلم .

* ودل كتاب الله على تفضيل المهاجرين على الأنصار فقد قدم الله ذكرهم على ذكر الأنصار في كتابه ، قال سبحانه :" والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم "الأنفال ٧٤ . فقدم ذكر الذين هاجروا على الذين آووا ونصروا .

وقال سبحانه :" لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة " ـ التوبة ١١٧ ، فبدأ بذكر المهاجرين

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء ١/١٤٤ ـ ١٤٥ ـ ففيه سرد أسماء واحد وخمسين صحابيا من السابقين الى الاسلام ذكرهم الذهبي تحت عنوان " السابقون الأولون ".

(٢) أخرجه مسلم ٣/١٣٨٤.

بعد النبى صلى الله عليه وسلم ثم بذكر الأنصار، وقال سبحانه :

" للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون

فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون

والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم ..... " الحشر ٩،٨، فبدأ

بذكر المهاجرين ثم الأنصار ، وأفرد سبحانه ذكر المهاجرين فى مواضع

من كتابه كقوله :" فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى

سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ... الآية - آل عمران ١٩٥ -

وقال سبحانه :" الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله

بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون

التوبة ٢٠.

وقال سبحانه :" والذين هاجروا فى الله من بعد ماظلموا لنبوئنهم

فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون الذين

صبروا وعلى ربهم يتوكلون - النحل ٤١ - ٤٢ .

قال ابن تيمية رحمه الله فى بيان أصول أهل السنة :" ويفضلون

من أنفق من قبل الفتح - وهو صلح الحديبية - وقاتل على من

أنفق من بعده وقاتل ، ويقدمون المهاجرين على الأنصار".(١)

وفى عقيدة الامام أحمد أنه " كان يقول : أفضل الصحابة أهل بيعة

الرضوان وخيرهم وأفضلهم أهل بدر ، والسابقون الأولون من المهاجرين

والأنصار وأعيانهم الأربعون أهل الدار ، وخيرهم عشرة شهد

لهم النبى صلى الله عليه وسلم بالجنة ومات وهو

---

(١) العقيدة الواسطية - ضمن المجموعة العلمية ص ٨٥.

عنهم راض وأعيانهم أهل الشورى الذين اختارهم عمر ابن الخطاب رضي الله عنه للمسلمين وأفضلهم الخلفاء الأربعة".(1)

وقد صنف العلماء الصحابة في طبقات اختلفوا في عددها،

قال السيوطي في شرح التقريب :" واختلف في عدد طبقاتهم - (يعني الصحابة) - باعتبار السبق إلى الإسلام أوالهجرة أوشهود المشاهد الفاضلة ،فجعلهم ابن سعد خمس طبقات وجعلهم الحاكم اثنتي عشرة طبقة ".(٣)

قال أحمد شاكر :" وزاد بعضهم أكثر من ذلك ،والمشهور ماذهب إليه الحاكم"(٤)

---

(١) طبقات الحنابلة ٢٧٢/٢.

(٢) تدريب الرواى ٢٢١/٢

(٣) الباعث الحثيث ص ١٥٦

والمراتب التى جعلها الحاكم للصحابة هى :-

١- قوم أسلموا بمكة .

٢- أصحاب دار الندوة .

٣- المهاجرة الى الحبشة .

٤- أصحاب بيعة العقبة الأولى .

٥ - أصحاب بيعة العقبة .

٦- أول المهاجرين الذين وصلوا والنبى فى قباء قبل أن يدخلوا المدينة ويبنى المسجد .

٧- أهل بدر .

٨- المهاجرة الذين هاجروا بين بدر والحديبية .

٩- أهل بيعة الرضوان .

١٠- المهاجرة بين الحديبية والفتح .

١١- الذين أسلموا يوم الفتح .

١٢- صبيان وأطفال رأووا النبى صلى الله عليه وسلم يوم الفتح وفى حجة الوداع وغيرها وعدادهم فى الصحابة .(١)

ولعل المراتب السبع الأول هى مراتب السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، والله أعلم .

---

(١) معرفة علوم الحديث ٢٣ - ٢٤ .

أما الطبقات الخمس التى جعلها ابن سعد فى كتابه للصحابة فالأمر فيها ماقاله أحمد شاكر : " لو كان المطبوع كاملا لاستخرجناها منه وذكرناها "(1) وأظن أن الطبقات التى جعلها ابن سعد هى الطبقات التى صنف عليها ابن الجوزى فى كتابه " صفة الصفوة " من ترجم له من الصحابة ،فإنه قال :" بدأت بذكر العشرة ثم ذكرت من بعدهم على ترتيب طبقاتهم"(2) والطبقات التى ذكرها خمس هى :-

١- الطبقة الأولى على السابقة فى الاسلام ممن شهد بدرا من المهاجرين والأنصار، وحلفائهم ومواليهم.(3)

٢- من لم يشهد بدرا من المهاجرين والأنصار وله إسلام قديم.(4)

٣- من شهد الخندق ومابعدها.(5)

٤- من أسلم عند الفتح وفيما بعد ذلك.(6)

٥- الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أحداث الأسنان.(7)

وفى المطبوع من طبقات ابن سعد ذكر الطبقتين الأوليين على نفس الوصف الذى ذكره ابن الجوزى تماما.(8) والعلماء وإن أرادوا بهذا التقسيم معرفة الصحابة لاذكر التفاضل إلا أنهم قد اعتبروا وجوه الفضل والتفاضل فى التقسيم ،والله أعلم.

---

(1) الباعث الحثيث ١٥٦.
(2) صفة الصفوة ٢٣٤/١.
(3) صفة الصفوة ٣٧٠/١.
(4) صفة الصفوة ٥٠٦/١
(5) صفة الصفوة ٦٥٠/١ .
(6) صفة الصفوة ٧٢٥/١.
(7) صفة الصفوة ٧٤٦/١.
(8) انظر طبقات ابن سعد٣/٦و ٥/٤.

المطلب السابع : تفاضل الصحابيات :

لاريب أن التفاضل كما أنه واقع بين الصحابة واقع بين الصحابيات أيضا ،ولقد ثبت في الكتاب والسنة تفضيل نساء النبي صلى الله عليه وسلم عامة وخديجة وعائشة خاصة وابنته فاطمة رضي الله عنهن على جميع الصحابيات .

* قال تعالى :" يانساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتين" الأحزاب ٣٢ ،فهذا في تفضيل نساء النبي صلى الله عليه وسلم عامة وأنه لايلحقهن في فضلهن إن اتقين الله أحد من النساء فهم أكرم على الله من غيرهن .

* وقال صلى الله عليه وسلم :" خير نسائها مريم ابنة عمران،وخير نسائها خديجة "(١). فهذا في تفضيل خديجة رضي الله عنها .

* وقال صلى الله عليه وسلم :" فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام "(٢) فهذا في تفضيل عائشة رضي الله عنها .

*وقال صلى الله عليه وسلم :" يافاطمة ألاترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين ،أوسيدة نساء هذه الأمة "(٣)

---

(١) متفق عليه ، البخاري مع الفتح ٤٧٠/٦ ،ومسلم ١٨٨٦/٤.

(٢) متفق عليه ، البخاري مع الفتح ١٠٦/٧ ،ومسلم ١٨٩٥/٤.

(٣) متفق عليه ، البخاري مع الفتح ٧٩/١١ - ٨٠ ومسلم ١٩٠٥/٤- ١٩٠٦.

وفى لفظ :" أما ترضين أن تكونى سيدة نساء أهل الجنة "(1)

وقد اشتهر الخلاف فى خديجة وعائشة وفاطمة أيهن أفضل (2) رضى الله عنهن ،قال ابن تيمية :" أفضل نساء هذه الأمة خديجة وعائشة وفاطمة ،وفى تفضيل بعضهن على بعض نزاع وتفصيل "(3).

وإننا إذا نظرنا فى النصوص الواردة فى تفضيل كل واحدة منهن - رضي الله عنهن - وجدنا أن اللفظ الوارد فى تفضيل خديجة وهو قوله صلى الله عليه وسلم :" خير نسائها خديجة " إنما يتضح تمام معناه بمعرفة الضمير على أي شىء يعود،وقد ورد مايفسر ذلك صريحا فقد قال صلى الله عليه وسلم :" لقد فضلت خديجة على نساء أمتى "(4) ، وقال صلى الله عليه وسلم :" أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة

---

(1) البخارى مع الفتح ٦٢٨/٦.

(2) انظر أصول الدين ٣٠٦ ،والروض الأنف ٢٦٨/٢ ،والإجابة فيما استدركته عائشة على الصحابة ٥٦ - ٥٩ ،وفتح البارى ١٣٩/٧ ، وانظر بدائع الفوائد ١٦٣/٣ وجلاء الأفهام ١٢٢.

(3) الفتاوى ٣٩٤/٤.

(4) أخرجه البزار - كشف الأستار ٢٣٦/٣ - وكذا الطبرانى كما قال الهيثمى وابن حجر ،وقال الهيثمى فى المجمع ٢٢٣/٩ :" فيه أبو يزيد الحميرى ولم أعرفه وبقية رجاله وثقوا" وقال ابن حجر فى الفتح ١٣٥/٧: " أخرجه النسائى بإسناد صحيح".

ومريم وآسية "(1) قال ابن حجر :" وهذا نص صريح لايحتمل التأويل"(2)

وقال صلى الله عليه وسلم :" حسبك من نساء العالمين : مريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون "(3).

فهذا النص فى خديجة رضى الله عنها أنها أفضل نساء الأمة.

ثم إن اللفظ الوارد فى تفضيل فاطمة رضى الله عنها وهو قوله صلى الله عليه وسلم :" يافاطمة الاترضين أن تكونى سيدة نساء المؤمنين، أوسيدة نساء هذه الأمة " وفى لفظ " سيدة نساء أهل الجنة " فهو صريح لالبس فيه ولايحتمل التأويل ،وهو نص فى أنها أفضل نساء الأمة وسيدة نساء أهل الجنة. وقد شاركت أمها فى هذا التفضيل فهى وأمها أفضل نساء أهل الجنة ،وهى وأمها أفضل نساء الأمة ،بهذا وردت النصوص.

---

(1) أخرجه أحمد فى المسند ٣١٦/١ ،وقال ابن حجر فى الفتح ٤٧١/٦ ، ١٣٥/٧ :" أخرجه النسائى بإسناد صحيح " ،وأخرجه الحاكم ٥٩٤/٢، وصححه ووافقه الذهبى ،وابن حبان فى صحيحه - الإحسان ٧٣/٩، وقال الهيثمى فى المجمع ٢٢٣/٩:" أخرجه أحمد وأبويعلى والطبرانى ورجالهم رجال الصحيح " وصححه الألبانى فى صحيح الجامع ٣٧١/١.

(2) فتح البارى ١٣٥/٧.

(3) أخرجه أحمد فى المسند ١٣٥/٣ ،والترمذى فى جامعه ٦٦٠/٥ وقال :"هذا حديث صحيح " ،وابن حبان فى صحيحه - الإحسان ٧١/٩- ،والحاكم ١٥٨/٣ وقال :" هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه "ووافقه الذهبى " ،وصححه الألبانى فى تخريج المشكاة ١٧٤٥/٣.

وأما اللفظ الوارد فى تفضيل عائشة رضى الله عنها وهو قوله :

صلى الله عليه وسلم :" فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على

الطعام " فهو لفظ لايستلزم الأفضلية المطلقة كمايقول ابن حجر (١)

وقال رحمه الله :" وليس فيه تصريح بأفضلية عائشة رضى الله عنها على

غيرها ،لأن فضل الثريد على غيره من الطعام إنما هو لما فيه من

تيسير المؤنة وسهولة الإساغة ، وكان أجل أطعمتهم يومئذ ،

وكل هذه الخصال لاتستلزم ثبوت الأفضلية له من كل جهة فقد

يكون مفضولا بالنسبة لغيره من جهات أخرى " (٢) ومحصل القول فى

الحديث أنه دال على أفضلية عائشة الاأنه لايستلزم الأفضلية

المطلقة اذ هو مقيد بما ورد فى خديجة وفاطمة رضى الله عنهما

فهو دال على تفضيل عائشة على النساء إلا خديجة وفاطمة .

وأما حديث عمرو بن العاص لما سأل النبى صلى الله عليه وسلم : أى الناس

أحب إليك ؟

فقال صلى الله عليه وسلم :" عائشة" (٣) فإن ابن حبان رحمه الله دلل

على تقييده فى نسائه صلى الله عليه وسلم فقد عقد عنوانا فى صحيحه

فقال :" ذكر خبر وهم فى تأويله من لم يحكم صناعة الحديث "

---

(١) الفتح ١٠٧/٧ .

(٢) الفتح ٤٤٧/٦ .

(٣) سبق تخرجيه وهو متفق عليه .

وأخرج تحته حديث عمرو بلفظ :" قلت : يارسول الله أى الناس أحب إليك ؟ قال : عائشة ،فقلت : إنى لست أعنى النساء إنما أعنى الرجال ،فقال :أبوبكر أوقال أبوها " ثم قال ابن حبان : " ذكر الخبر الدال على أن مخرج هذا السؤال معا كان عن أهله دون سائر النساء من فاطمة وغيرها " وأخرج بسنده عن أنس قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أحب الناس إليك ؟ قال :" عائشة" قيل له : ليس عن أهلك نسألك ،قال: فأبوها "(1) ، ثم هو محمول على إرادة الأحياء من زوجاته الموجودات حين السؤال ،ثم هو وإن دل على عموم تفضيلها رضى الله عنها إلا أنه مقيد بالنص فى خديجة وفاطمة والله أعلم.

فالنصوص دالة دلالة بينة لاتحتاج إلى تأويل على أن عائشة تلى خديجة وفاطمة فى الفضل رضى الله عنهن ،وعلى المخالف أن يأتى بالدليل على استثناء عائشة رضى الله عنها ،من قوله صلى الله عليه وسلم فى كل من خديجة وفاطمة أنها أفضل أهل الجنة وأنها سيدة نساء هذه الأمة.

على أن لعائشة رضى الله عنها من الفضائل كالعلم مثلا ماتختص

---

(1) الإحسان ٩/١١٩.

به عن خديجة وفاطمة رضي الله عنهن ،وفضائلها رضى الله

عنها لاتحصر ،إلا أن هذا على نحو ماتقرر من أنه لايلزم

من ثبوت خصوصية شيء من الفضائل ثبوت الفضل المطلق .

هذا ،مع العلم أن النص لم يرد بتفضيل خديجة أوفاطمة على

على عائشة لفظا كما ورد بتفضيل أبى بكر على عمر مثلا

ولو لا ماحدث من الكلام فى هذا الأمر واشتهار الخلاف فيه حتى أنه

قد أُلِّف فيه (1) لكان الواجب الأخذ بالأصل وهو أن يسعنا

ماورد فى الشرع من اقرار ماجاء من الفضل لخديجة ،وماجاء

منه لفاطمة ،وماجاء منه لعائشة على نحوماورد فى النصوص من

غير تعرض للمفاضلة بينهن ،فإن دعت حاجة شرعية لذكر المفاضلة

بينهن ذكرت ،والله أعلم.

وقد قامت بعض الأدلة غير التى ذكرت على تفضيل خديجة على

عائشة منها حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال :" أتى جبريل

النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ،هذه خديجة قدأتت

معها إناء فيه إدام وطعام أوشراب ،فإذا هى أتتك فاقرأ

عليها السلام من ربها ومنى وبشرها ببيت فى الجنة من

---

(1) قال البغدادى فى أصول الدين ص ٣٠٦ :" وللحسين بن الفضل رسالة فى ذلك ".

قصب لاصخب فيه ولانصب " (1) وفى حديث عائشة رضى الله عنها

قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما :" ياعائشه

هذا جبريل يقرئك السلام ،فقلت : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته

ترى مالاأرى ،تريد رسول الله صلى الله عليه وسلم" (2) فالسلام لخديجة

رضى الله عنها كان من الرب سبحانه ومن جبريل ،ولعائشة رضى الله

عنها من جبريل فقط (3) ، وفى المتفق عليه من حديث عائشة رضى الله

عنها أنها قالت فى خديجة للنبى صلى الله عليه وسلم : " ماتذكر

من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت فى الدهر

قد أبدلك الله خيرا منها (4) ". وورد فى هذه القصة فى غير الصحيحين

بأسانيد حسان زيادة أن النبى صلى الله عليه وسلم غضب حتى أقسمت

عائشة ألاتذكر خديجة بعد ذلك إلا بخير (5) وفى رواية زيادة قوله

---

(1) متفق عليه ، البخارى مع الفتح ١٣٤/٧ ،مسلم ١٨٨٧/٤.

(2) أخرجه البخارى ، الصحيح مع الفتح ١٠٦/٧.

(3) انظر فتح البارى ١٠٧/٧ ، ١٣٩ وجلاء الأفهام ص ١٢٣.

(4) البخارى مع الفتح ١٣٤/٧ ،ومسلم ١٨٨٩/٤.

(5) أخرجه أحمد والطبرانى كماقال ابن حجر فى الفتح ١٤٠/٧ وقال الهيثمى فى المجمع ٢٢٤/٩: " رواه الطبرانى وأسانيده حسنة ".

صلى الله عليه وسلم :" ما أبدلني الله خيرا منها " وذكر جملة من فضائلها[1] . ولقد قالت عائشة رضي الله عنها : " ما غرت على أحد من نساء النبي صلى الله عليه وسلم ما غرت على خديجة وما رأيتها ولكن كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر ذكرها ، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة ، فربما قلت له . كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة ؟ فيقول : إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد "[2] .

وقد قال ابن العربي في خديجة رضي الله عنها :" وهي أفضل نساء الأمة من غير خلاف "[3] قال ابن حجر : " رد بأن الخلاف ثابت قديما وإن كان الراجح أفضلية خديجة "[4] وعائشة رضي الله عنها أفضل زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بعد خديجة ، لأنه لم يقيد

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١١٨/٦ ، قال الهيثمي في المجمع ٢٢٤/٩: "اسناده حسن " وذكر ابن حجر في الفتح ١٤٠/٧ أن الطبراني قد أخرجه أيضا .

(٢) أخرجه البخاري ، الصحيح مع الفتح ١٣٣/٧ .

(٣) عارضة الأحوذي ٢٥٣/١٣ .

(٤) فتح الباري ١٣٩/٧ .

من عموم تفضيلها على النساء إلا خديجة وفاطمة بالنص،

ولقد ورد فيما لايحصى من النصوص مايدل على تفضيلها رضى الله عنه على بقية زوجاته صلى الله عليه وسلم ، منها حديث:

" كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة ،قالت عائشة : فاجتمع صواحبى الى أم سلمة فقلن : ياأم سلمة والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة ،وإنا نريد الخيركما تريده عائشة فمرى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث كان ،أوحيث دار ،قالت : فذكرت ذلك أم سلمة للنبى صلى الله عليه وسلم ،قالت : فأعرض عنى ،فلما عاد الى ذكرت له ذلك ،فأعرض عنى ،فلما كان فى الثالثة ذكرت له ، فقال : ياأم سلمة ،لاتؤذينى فى عائشة فإنه والله مانزل علي الوحي وأنا فى لحاف امرأة منكن غيرها (1) "وفى رواية : "أن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة يبتغون بذلك مرضاة رسول الله (2) "• وحديث :" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لماكان فى مرضه جعل يدور فى نسائه ويقول :أين أنا غدا ؟ حرصا على بيت عائشة ،قالت عائشة : فلما كان يومى سكن (3) "•

---

(1) أخرجه البخارى ، الصحيح مع الفتح ١٠٧/٧•

(٢) أخرجها مسلم ١٨٩١/٤•

(٣) أخرجه البخارى ،الصحيح مع الفتح ١٠٧/٧•

وروى أن زيادا بعث الى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم بمال وفضل عائشة فجعل مبعوثه يعتذر الى أم سلمة فقالت: " يعتذر إلينا زياد فقد كان يفضلهما من كان أعظم علينا تفضيلا من زياد رسول الله صلى الله عليه وسلم "(1)

ثم زوجات النبى صلى الله عليه وسلم أفضل نساء الأمة لقوله تعالى :" يانساء النبى لستن كأحد من النساء" وإنما خصت فاطمة رضى الله عنها من عموم الآية بقوله صلى الله عليه وسلم فيها أنها سيدة نساء الأمة(2) ، وقد قيل إن الإجماع انعقد على أفضلية فاطمة(3) .

---

(1) قال الهيثمى فى المجمع ٢٤٢/٩ :" رواه الطبرانى فى الأوسط وإسناده حسن " وقد روى كذلك أن عمر رضى الله عنه كان يفضل عائشة فى العطاء على بقية أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ،والله أعلم .

(2) والسنة تخصص عموم القرآن ،بإجماع الأمة فى السنة المتواترة ، ومخالفة الحنفية وطائفة من المتكلمين للصحابة والأئمة الثلاثة وعامة أهل العلم فى خبر الأحاد، انظر: الإحكام لابن حزم ٦٦/٢،وشرح اللمع للشيرازى ٣٥١/١ ،وروضة الناظر ١٢٧ - ١٢٨ ،واعلام الموقعين ٣١٨/٢ ،وإرشاد الفحول ١٣٩.

(3) انظر فتح البارى ١٠٩/٧.

والحاصل أن فاطمة سيدة نساء هذه الأمة ،ونساء النبى صلى الله عليه وسلم أفضل المؤمنات على الإطلاق وأفضلهن خديجة وقد شاركتها ابنتها فاطمة فى كونهما أفضل نساء الأمة ،ثم بعد خديجة عائشة ثم بقية أزواجه صلى الله عليه وسلم بعد عائشة .

هذا وفى حديث عائشة رضى الله عنها الطويل الذى فيه ماوقع لزينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإيذاء والمتاعب لماخرجت من مكة بعد قدوم أبيها صلى الله عليه وسلم المدينة قال صلى الله عليه وسلم فى زينب : " هى أفضل بناتى ،أصيبت في " (1).

وهذا يشكل ماورد فى فاطمة رضى الله عنها من التفضيل لأنه يدل على أن زينب أفضل من فاطمة رضى الله عنهما .

وقد أجاب الطحاوى عن هذا الإشكال بأن ذلك كان متقدما ثم وهب الله لفاطمة من الفضائل والأحوال الشريفة مالم يشاركها فيه أحد

---

(1) أخرجه الطحاوى فى مشكل الآثار ٤٤/١ – ٤٥ ،والحاكم فى المستدرك ٢٠١/٢ وقال : " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه " ووافقه الذهبى ،وأخرجه البزار – كشف الأستار ٢٤٢/٣ ،قال الهيثمى فى المجمع ٢١٣/٩ " رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط بعضه ،ورواه البزار ورجاله رجال الصحيح "
وقال ابن حجر فى الفتح ١٠٩/٧ فى سند الحديث " سند جيد ".

من نساء الأمة ،قال :" وكانت – (يعنى فاطمة) – قبل ذلك الوقت الذى استحقت زينب ما استحقت من الفضيلة صغيرة غير بالغة مما لايجرى لها ثواب بطاعتها ولا عقاب بخلافها "(1)

وذكر ابن حجر وجها آخر من الجواب وهو احتمال تقدير" من " فيكون المراد من أفضل بناتى (2) ٠

---

(1) مشكل الآثار 46/1 – 47٠

(2) الفتح 109/7٠

المطلب الثامن : هل يكون في غير الصحابة من يفضل بعضهم:

قال ابن تيمية رحمه الله :" تنازع العلماء: هل في غير الصحابة من هو خير من بعضهم ؟ على قولين " قال ذلك عقب قوله في كلام له :" وبينا أن تفضيل الجملة على الجملة لايقتضي تفضيل كل فرد على كل فرد، كما أن تفضيل القرن الأول على الثاني ،والثاني على الثالث لايقتضي ذلك بل في القرن الثالث من هو خير من كثير من القرن الثاني "(١) وقال رحمه الله في موضع آخر :" لايكون من بعد الصحابة أفضل من الصحابة" وقال ابن حجر في شرح حديث " خير القرون قرني":

" واقتضى هذا الحديث أن تكون الصحابة أفضل من التابعين ،والتابعون أفضل من أتباع التابعين ،لكن هل هذه الأفضلية بالنسبة الى المجموع أو الأفراد ؟ محل بحث ،والى الثاني نحا الجمهور ،والأول قول ابن عبدالبر "(٢)وقال القسطلاني :" ذهب أبوعمر بن عبدالبر الى أنه قديكون فيمن يأتي بعد الصحابة أفضل ممن كان في جملة الصحابة "(٣). قال ابن حجر:"لكن كلام ابن عبدالبر ليس على الإطلاق في حق جميع الصحابة فإنه صرح في كلامه باستثناء أهل بدروالحديبية"(٤)

---

(١) منهاج السنة ٦٠٠/٤

(٢) الفتح ٦/٧.

(٣) المواهب اللدنية ٤٢٤/١.

(٤) الفتح ٧/٧ ،وقدتطلبت كلام ابن عبدالبر في الإستيعاب وهو مظنته ثم في المطبوع من التمهيد ،فلم أوفق للعثورعليه .

قال ابن حجر :" والذى يظهر أن من قاتل مع النبى صلى الله عليه وسلم أو فى زمانه بأمره أو أنفق شيئا من ماله بسببه لايعد له فى الفضل أحد بعده كائنا من كان ،وأما من لم يقع له ذلك فهو محل البحث ،والأصل فى ذلك قوله تعالى :(لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا) ـ الحديد ١٠ ـ (١)

وقد سبق نقل قول سعيد بن زيد ـ أحد العشرة المبشرين بالجنة ـ رضى الله عنه :" والله لمشهد شهده الرجل منهم يوما واحدا فى سبيل الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من عمل أحدكم ولو عمر عمر نوح "(٢).

قال ابن حجر :" ومحل النزاع يتمحض فيمن لم يحصل له إلا مجرد المشاهدة "(٣).

قال :" والذى عليه الجمهور أن فضيلة الصحبة لايعدلها عمل لمشاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما من اتفق له الذب عنه والسبق اليه بالهجرة أو النصرة وضبط الشرع المتلقى عنه وتبليغه

---

(١) الفتح ٠٦/٧

(٢) تقدم ذكره وتخريجه فى المبحث الرابع من الفصل الثانى فى الباب الثانى .

(٣) الفتح ٧/٧ وانظر المواهب اللدنية ٤٢٤/١ ،والصواعق المحرقة ص ٠٢١٣

لمن بعده فإنه لايعدِلُه أحد ممن يأتي بعده لأنه ما من

خصلة من الخصال المذكورة الا وللذى سبق بها مثل أجر من عمل بها

من بعده ،فظهر فضلهم " قال القسطلاني في حديث خيرالناس قرني:

" هذا يدل على أن أول هذه الأمة خير ممن بعدهم والى هذا ذهب

معظم العلماء وأن من صحبه صلى الله عليه وسلم ورآه ولو مرة

من عمره أفضل من كل من يأتي بعده وأن فضيلة الصحبة لايعدلها

عمل ،هذا مذهب الجمهور "(1). ولقد تقدم في المبحث الأول والثاني

من هذا الفصل بيانُ فضل الصحبة وكيف كان تعظيم الصحابة ولوكان

اجتماعهم بالنبي صلى الله عليه وسلم قليلا مقررا لدى الخلفاء

الراشدين وغيرهم ،ونقلُ قول الإمامين أحمد بن حنبل وعلي

ابن المديني :" الذين صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم ورأوه وسمعوا

منه ومن رآه بعينه وآمن به ولو ساعة أفضل بصحبته من التابعين

ولو عملوا كل أعمال الخير ،وقولُ ابن تيمية :" قال غير واحد

من الأئمة : ان من صحب النبي صلى الله عليه وسلم أفضل ممن لم

يصحبه مطلقا ،وعينوا ذلك في مثل معاوية وعمربن عبدالعزيز مع

أنهم معترفون بأن سيرة عمربن عبدالعزيز أعدل من سيرة معاوية ،

قالوا : لكن ماحصل لهم بالصحبة من الدرجة أمر لايساويه ماحصل لغيرهم

بعلمه ".

---

(1) المواهب اللدنية ١/٤٢٤.

فهذا اذا مذهب الأئمة أنه لايكون فى غيرالصحابة من هو خير من بعضهم مطلقا ،وأن أفضلية الصحابة أفضلية أفراد لا أفضلية مجموع ،وقد سبق ذكر جملة من الأدلة على تفضيل الصحابة على سائر الأمة بل وعلى سائر البشر بعد النبيين . والذى يظهر والله أعلم أن المسألة لاتحتمل أن يقال أن فيهانزاعا لأنه لم ينقل خلاف عن غيرابن عبدالبر رحمه الله إلا ماقاله ابن حجر من أن القرطبى - وهو متأخر كثيرا عن عصر الأئمة من السلف - صرح بأنه قد يكون فى الصحابة من هو أفضل من بعض الصحابة (١) ، وابن تيمية رحمه الله الذى قال :" تنازع العلماء " قد قال فى موضع آخر:" وبالجملة اتفقت طوائف السنة والشيعة على أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها واحد من الخلفاء ولايكون من بعد الصحابة أفضل من الصحابة" (٢) فذكر الاتفاق على أنه لايكون فى غيرالصحابة من يفضلهم. وأما مانقل عن ابن عبد البر فإن نص عبارته كما نقلها القسطلانى وابن حجر الهيتمى بعد ذكره جملة أحاديث :" فهذه الأحاديث تقتضى مع تواتر طرقها وحسنها التسوية بين أول هذه الأمة وآخرها فى فضل

---

(١) الفتح ٧/٧.

(٢) الفتاوى ١١/٢٢٣.

(١).
العمل إلا أهل بدر والحديبية" وإنما اذا نظرنا فى هذه العبارة اتضح لنا فيها أمران .

الأمر الأول : القول بالتسوية بين أول هذه الأمة وآخرها إلا أهل بدر والحديبية ،ونلحظ فى هذا شيئين :

١- أن مقصود ابن عبدالبر مقارنة مجموع أول الأمة عدا أهل بدر والحديبية بمجموع آخرها ،من غير تعرض منه لأفراد المجموعتين.

٢- أنه قد صرح بالتسوية دون المفاضلة .

الأمر الثانى : أنه صرح بأن هذه التسوية فى فضل العمل لا فى الأفضلية المطلقة، ومعلوم أن مجرد التساوى فى فضل العمل بل ومجرد زيادة فضل العمل لا تستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة، ثم ان ابن عبدالبر جعل مساواة الصحابة عدا أهل بدر والحديبية فى فضل العمل محصورة فى آخر هذه الأمة لا فى مطلق من يأتى بعد الصحابة . وعلى هذا فأين القول بأنه قد يكون فى غير الصحابة من يفضل بعضهم من كلام ابن عبدالبر ؟!! ونسبة هذا القول الى ابن عبدالبر إنما هى فى الحقيقة نسبة الى ما فهمه من نسبه الى ابن عبدالبر لا نسبه إليه ،ولهذا قال ابن حجر :" وقد تعقب كلام ابن عبدالبر بأن مقتضى كلامه أن يكون فيمن يأتى بعد الصحابة من يكون أفضل من بعض الصحابة "(٢) فجعله مقتضى كلام ابن عبدالبر لا نصه، ولم أجد فيه ما قاله ابن حجر ،والله أعلم .

---

(١) المواهب اللدنية ٤٢٤/١ ،والصواعق المحرقة ٢١٢.
(٢) الفتح ٧/٧.

هذا ،وماذهب إليه ابن عبدالبر من التساوى فى فضل العمل ، مندفع بما فاز به الصحابة من زيادة فضيلة المشاهدة التى لايساويهم فيها أحد ،ولقد تواتر عنه صلى الله عليه وسلم قوله :" خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم" واستفاضت النصوص الصحيحة عنه بذلك (1) . وقد قال صلى الله عليه وسلم :" لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده آشر منه حتى تلقوا ربكم (2) "

ولكن ابن عبدالبر ذهب فيما نقله عنه القسطلانى وابن حجر الهيثمى إلى أن حديث " خير الناس قرنى " ليس على عمومه ،بدليل مايجمع القرن من الفاضل والمفضول وقد جمع قرنه صلى الله عليه وسلم جماعة من المنافقين المظهرين للإيمان وأهل الكبائر الذين أقام عليهم أوعلى بعضهم الحد (3) وزاد الأمر تبيانا - فيما نقله عنه ابن حجر - لتأكيد مذهبه فى تساوى آخر الأمة مع الصحابة عدا أهل بدر والحديبية ،فجعل السبب فى كون القرن الأول خير القرون أنهم كانوا غرباء فى إيمانهم لكثرة الكفار حينئذ وصبرهم على أذاهم وتمسكهم بدينهم قال : "فكذلك أواخرهم اذا أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على الطاعة حين ظهور المعاصى والفتن كانوا أيضا عند ذلك غرباء ،

---

(1) انظر نظم المتناثر ص ١٢٧ ،وقد تقدم تخريج الحديث .

(2) أخرجه البخارى ، الصحيح مع الفتح ٢٠/١٣ .

(3) انظر المواهب اللدنية ٤٢٤/١ ،والصواعق المحرقة ٢١٢ .

وزكت أعمالهم فى ذلك الزمان كما زكت أعمال أولئك"[1].

والجواب عن هذا أن يقال : أما قوله إن قرن النبى صلى الله عليه وسلم جمع المنافقين، فالمنافقون غير معنيين قطعا بقوله "خير الناس" وإنما المعني المؤمنون، أما المنافقون فهم من جملة الكفار الذين كانوا فى قرنه صلى الله عليه وسلم، وأما أهل الكبائر فمن أقيم عليه الحد فقد محيت كبيرته ولقد قال صلى الله عليه وسلم فى ماعز : "لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم"[2] وقال فى الغامدية : "لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له"[3] ومن لم يقم عليه الحد فالظن فيمن عمته تزكية الله ورسوله أن يكون قد تاب والتوبة تجب الحوبة ، فإن لم يكن قد تاب وذلك غير مظنون فإن معه من أسباب المغفرة ماليس لغيره من السابقة والفوز بصحبة النبى صلى الله عليه وسلم، والله أعلم.

وأما الأحاديث التى احتج بها ابن عبد البر فهى لاتخرج عن أحد ثلاثة أحاديث : إما ضعيف فلا يحتج به، وإما حسن،

---

(١) فتح البارى ٧/٧٠٦، وانظر فيض القدير ٤/٢٨٠.

(٢) أخرجه مسلم ٣/١٣٢٢.

(٣) أخرجن مسلم ٣/١٣٢٤.

وإما صحيح لمجموع طرقه [1]، وجملة الأجوبة عنها إما بأنها لاتستلزم المساواة فإنه قد تكون فى المفضول مزية لاتكون فى الفاضل، وإما بأن ماتدل عليه من المساواة إنما هو باعتبار مايمكن أن يجتمعا فيه وهو عموم الطاعات المشتركة بين سائر المؤمنين فهذا الذى قديقع فيه التساوى أما ما اختص به الصحابة من المشاهدة والسابقة فإنه لايسع أحدا أن يأتى بما يقاربه فضلا عن أن يماثله، وإما بأن ماتدل عليه من المساواة المقصود به أن ذلك يحصل فيما يظهر للرائى وإلا فأول الأمة أفضل فى نفس الأمر [2].

هذا، وقد ذكر ابن حجر أن القرطبي صرح بأنه قديكون فى غير الصحابة من يفضل بعض الصحابة [3]. وقال السفارينى: " جاء عن ابن سيرين أن المهدي خير من أبى بكر وعمر قد كاد يفضل الأنبياء، وجاء عنه أيضا لايفضل عليه أبوبكر وعمر " [4] ولانظن ابن سيرين يقوله، وهو على كل حال باطل مخالف لمافى الكتاب والسنة والاجماع.

---

(١) انظر فتح البارى ٦/٧، والمواهب اللدنية ٤٢٤/١، والصواعق المحرقة ٢١٢ - ٢١٣، وفيض القدير ٢٨٠/٤ و ٥١٧/٥.

(٢) انظر المراجع السابقة وفتاوى النووى ص ١٨٠ - ١٨١.

(٣) الفتح ٧/٧.

(٤) اللوامع ٨٥/٢.

المبحث الرابع : الآراء الشاذة والمقالات الباطلة في هذا الباب :-

رأي من لا يرى التفضيل بين الصحابة :

قال المازري (أ) : "أما تفضيل الصحابة بعضهم على بعض فقد ذهبت فرقة الى الإمساك عن هذا وأنه لا يفضل بعضهم على بعض وقالت هم كالأصابع فلا ينبغي أن يتعرض للتفضيل بينهم" (١). وهذا مردود بصريح ما في الكتاب والسنة من التفضيل بين الصحابة، ولقد كان الصحابة وهم أشد ورعا وأكثر التزاما بالشرع يفاضلون بين أبي بكر وعمر وعثمان والرسول صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، بل إن القطع بتفضيل أبي بكر على الأمة ثم عمر من بعده ثم عثمان بعد عمر ثم علي بعد عثمان رضي الله عنهم أجمعين وتفضيل عائشة على نساء الأمة بعد خديجة وفاطمة رضي الله عنهن، وإظهار هذا ونشره من الدين وهو مشروع متأكد المشروعية مع ظهور أهل الباطل الذين ينتقصون هؤلاء الصحابة وينالون منهم من الرافضة ومن لف لفهم.

وأشد شذوذا من مذهب الذين لا يفضلون مطلقا ما نقله الخطابي عن بعض المتأخرين أنهم لا يقدمون بعض الخلفاء الأربعة على بعض (٢) كيف والنص صريح في التفضيل بين هؤلاء الأربعة خاصة ؟!!

---

(١) المعلم بفوائد مسلم – مخطوط ل ٨٤.

(٢) انظر معالم السنن – بهامش المختصر – ١٨/٧.

(أ) هو محمد بن علي بن عمر التميمي المازري، بفتح الزاء وقد تكسر نسبة الى مازر، بلدة بجزيرة صقلية أحد الأعلام المشهورين في حفظ الحديث والكلام عليه ت ٥٣٦هـ. انظر سير أعلام النبلاء ١٠٤/٢٠، ووفيات الأعيان ٢٨٥/٤

رأي ابن حزم في تفضيل نساء النبي على العشرة وغيرهم :-

ذهب ابن حزم إلى تفضيل نساء النبي صلى الله عليه وسلم على سائر الصحابة على الإطلاق ، وأفضل الصحابة بعدهن أبو بكر ثم عمر.[1]

قال ابن تيمية :" وأما نساء النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقل إنهن أفضل من العشرة إلا أبو محمد بن حزم وهو قول شاذ لم يسبقه إليه أحد وأنكره عليه من بلغه من أعيان العلماء، ونصوص الكتاب والسنة تبطل هذا القول " إلى أن قال رحمه الله : " وبالجملة فهذا قول شاذ لم يسبق إليه أحد من السلف وأبو محمد مع كثرة علمه وتبحره ومايأتي به من الفوائد العظيمة له من الأقوال المنكرة الشاذة مايعجب منه كما يعجب مما يأتي به من الأقوال الحسنة الفائقة ".[2]

وأما حجة ابن حزم لما ذهب إليه فقد قال :" إن أفضل الناس أعلاهم في الجنة درجة وأعلى أهل الجنة درجة من كان مع النبي صلى الله عليه وسلم في سرره وقصوره وليس هذا إلا لنسائه صلى الله عليه وسلم فهن معه بلا شك في درجة واحدة في الجنة إذ لا يمكن

---

(١) انظر الدرة ص ٣٦٥ - ٣٦٦ ، والفصل ١١٧/٤ - ١٢٢ والمحلى ٤٤/١.

(٢) الفتاوى ٣٩٥/٤ - ٣٩٦.

البتة أن يحال بينه وبينهن فى الجنة ولا أن ينحط عليه

السلام الى درجة يسفل فيها عن أحد من الصحابة فقد وجب

ضرورة أن يشهد لهن كلهن بأنهن أفضل من جميع الخلق كلهن

بعد الملائكة والنبيين عليهم السلام " قال : " ومارية أم إبراهيم

داخلة معهن فى ذلك لأنها معه فى الجنة ومع ابنها منه

بلاشك "(١) وهذه حجة فاسدة ،قال ابن تيمية رحمه الله :" وهذا

يوجب عليه أن يكون أزواجه أفضل من الأنبياء جميعهم وأن تكون

زوجة كل رجل من أهل الجنة أفضل ممن هو مثله وأن يكون

من يطوف على النبى صلى الله عليه وسلم من الولدان ومن يزوج

به من الحور العين أفضل من الأنبياء والمرسلين ،وهذا كله مما

يعلم بطلانه عموم المؤمنين "(٢)

وقد التزم ابن حزم بهذا اللازم الفاسد بإدخاله مارية

وإبراهيم فى درجة نساء النبى صلى الله عليه وسلم فى التفضيل

ثم قال بعد ذلك :" لايقال إن ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه

وسلم أفضل من أبى بكر أوعمر ولايقال أيضا أن أبابكر وعمر

أفضل من ابراهيم "مع إقراره أن مكان ابراهيم فى الجنة أعلى

---

(١) هذا مجموع من ألفاظه فى المحلى ٤٤/١ والدرة ٣٦٥ والفصل ١١٨/٤.

(٢) الفتاوى ٣٩٥/٤.

من مكانهما فقد قال :" فلو قال قائل أيما أفضل فى الجنة

وأعلى قدرا مكان ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مكان

أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم ،قلنا مكان إبراهيم أعلى

بلا شك " فكيف تثبت بهذا الخلط حجة ؟! ، يَجْزِمُ بأن من كان (١)

مع النبى فى درجته فى الجنة أفضل من أبى بكر وعمر وغيرهما

ثم يتوقف فى بعض من كان كذلك!ومخرج ابن حزم من هذا أن قال:

" فضل إبراهيم ليس على عمل أصلا وإنما هو اختصاص مجرد

وإكرام لأبيه صلى الله عليه وسلم وأما نساؤه عليه السلام

فكونهن وكون سائر أصحابه عليهم السلام فى الجنة إنما هو

جزاء لهن ولهم على أعمالهن وأعمالهم " (١) وهذا منه تصريح بأن

نساء النبى صلى الله عليه وسلم كانت لهن درجة النبى فى الجنة

جزاء لهن على أعمالهن لالمجرد مرافقته صلى الله عليه وسلم

فى الجنة فكأنه يقول أنهن استحققن منزلة النبى فى الجنة

تماما كما استحقها النبى صلى الله عليه وسلم لالكونهن توابع له

وما أعظم هذه من فرية ،وهذا اضطراب من ابن حزم فبعد أن

جعل الأفضل من كان مع النبى فى الجنة جعله من تساوى مع

---

(١) الفصل ٤/١٢٠.

(٢) الفصل ٤/١١٩.

النبي في الجزاء ،فأي تخليط فاسد هذا ،ولكن ابن حزم استدرك على نفسه هذه أيضا فقال :" فإن قال قائل إنهن لولا رسول الله صلى الله عليه وسلم ماحصلن تلك الدرجة وإنما تلك الدرجة له عليه السلام ،قلنا وبالله تعالى التوفيق : نعم ،ولاشك أيضا في أن جميع الصحابة لولا رسول الله صلى الله عليه وسلم ماحصلوا أيضا على الدرج التي لهم فيها فإنما هي اذا على قولكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم كماقلتم ولافرق وبقي الفضل والتقدم لهن كما كان في كل ذلك ولافرق "غفر الله لابن حزم لكأنه يصر على أنهن استحققن منزلة النبي في الجنة جزاء على أعمالهن.(1)

فلا ندري ماهي حجته فنناقشه فيها ،أهي أنهن مرافقات للنبي صلى الله عليه وسلم في الجنة لكونهن زوجاته في الدنيا فنقول له : هذا لايستلزم الأفضلية التي ذهبت إليها اذ ثبوت فضيلة للمفضول يختص بها لاتقتضي تقديمه على الفاضل ،وقد نقضت حجتك هذه بماذهبت إليه من التوقف في تفضيل إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اعتقادك مرافقته أباه صلى الله عليه وسلم في الجنة ، أم أن حجته أن لهن من العمل ما استحققن به منزلة النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة ، فنقول له : ومن ذا الذي يعتقد أن يكون أحد

---

(1) الفصل ٤/١٢٠ - ١٢١.

من الخلق مساويا لأقل الأنبياء درجة فى فضل العمل فكيف بأفضل الأنبياء وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ،ورحم الله ابن حزم وغفر لنا وله.

ولابن حزم حجة أخرى ذكرها فى الفصل فقال فى قوله سبحانه :" النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم" الأحزاب ٦ قال :" فأوجب الله لهن حكم الأمومة على كل مسلم ،هذا سوى حق إعظامهن بالصحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلهن رضى الله تعالى عنهن مع ذلك حق الصحبة له كسائر الصحابة إلا أن لهن من الاختصاص فى الصحبة ووكيد الملازمة له عليه السلام ولطيف المنزلة عنده عليه السلام والقرب منه والحظوة لديه ماليس لأحد من الصحابة رضى الله عنهم " قال :" فهن أعلى درجة فى الصحبة من جميع الصحابة ثم فضلن سائر الصحابة بحق زائد وهو حق الأمومة الواجب لهن كلهن بنص القرآن "(١) والجواب عن هذا ماتكرر تقريره من أن ثبوت فضل يختص به المفضول لايستلزم أفضليته المطلقة، ولو أنا سلكنا سبيل تعداد الفضائل لوجدنا فى الصحابة أوفى بعضهم من تزيد فضائله على ماذكره ابن حزم من فضائل زوجات النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) الفصل ١١٧/٤.

فعلى سبيل المثال قد تقدم إخبار النبى صلى الله عليه وسلم أن أبا بكر أمَنّ الناس عليه فى صحبته . وهذا وحده يَرْجُح بما ذكره ابن حزم من ملازمة زوجات النبى صلى الله عليه وسلم له ، فعلى ابن حزم أن يأتى بدليل على تفضيل زوجات النبى صلى الله عليه وسلم وإلا فإن اجتهاده مدفوع بقيام الدليل من الكتاب والسنة والإجماع على تفضيل غيرهن من الصحابة على سائر الصحابة ، والله أعلم .

ولقد ادعى ابن حزم دعوى فقال :" ثم وجدناهن لاعمل من الصلاة والصدقة والصيام والحج وحضور الجهاد يسبق فيه صاحب من الصحابة إلا كان فيهن ، فقد كن يجهدن أنفسهن فى ضيق عيشهن على الكد فى العمل بالصدقة والعتق ويشهدن الجهاد معه عليه السلام "(1) وهذه دعوى لاتسلم لابن حزم ولادليل له على أن واحدة من نسائه صلى الله عليه وسلم شاركته غزواته كما حصل من كثير من الصحابة الذين لم تفتهم غزوة مع النبى صلى الله عليه وسلم عدا ماشاركوا فيه من السرايا . والله أعلم .

---

(1) الفصل ٤/١١٧ .

- رأي من جعل من مات في حياة النبي أفضل ممن بقي :

ذكر ابن رشد وابن حجر أن قوما ذهبوا إلى أن أفضل الصحابة من استشهد في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل حمزة وجعفر ونحوهم (1) قال ابن حجر :" وعين بعضهم منهم جعفر بن أبي طالب (2) " أضاف ابن رشد أنهم يفضلون كذلك من مات في حياته صلى الله عليه وسلم وان لم يكن من الشهداء قال ابن رشد :" وإياه اختار ابن عبدالبر" قال :" ومن حجتهم قوله صلى الله عليه وسلم لشهداء أحد :(هؤلاء أشهد عليهم) ، فقال أبوبكر الصديق : ألسنا يارسول الله بإخوانهم أسلمنا كما أسلموا وجاهدنا كما جاهدوا ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" بلى ، ولكن لا أدرى ماتحدثون بعدى (3))"

وشهادة النبى صلى الله عليه وسلم على شهداء أحد ثابتة مروية في صحيح البخاري وغيره من كتب الحديث ، أما قول أبي بكر وجواب النبي صلى الله عليه وسلم فهي زيادة لم أجدها

---

(1) انظر الجامع من المقدمات ١٧٦ والفتح ١٧/٧ .

(2) الفتح ١٧/٧ .

(3) الجامع ١٧٦ .

في جميع روايات الحديث التي وقفت عليها[1] .

فأما شهادته صلى الله عليه وسلم على شهداء أحد فلا تستلزم الأفضلية المطلقة وإنما هي فضيلة ثابتة لهم ،ولو استلزمت الأفضلية المطلقة لاستلزمت ذلك شهادته صلى الله عليه وسلم على غيرهم لأعمال يعملونها نحو قوله صلى الله عليه وسلم في المدينة :" لايصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شهيدا اوشفيعا يوم القيامة"[2] فهل تستلزم هذه الشهادة من النبي صلى الله عليه وسلم لمن صبر في المدينة على شدتها أن يكون أفضل الأمة ؟! لايقول ذلك أحد .

ثم وان فرض استلزام الحديث الذي استشهدوا به الأفضلية المطلقة لكان مقيدا بما ثبت في أبي بكر وغيره من الصحابة من التفضيل .

---

(١) انظر روايات الحديث بألفاظ فيها بعض اختلاف ولكن دون الزيادة المذكورة في البخاري مع الفتح ٢١٢/٣ و ٢١٧ ،و ٣٧٤/٧،ومسند أحمد ٤٣١/٥ ،وسنن ابن ماجة ٤٨٥/١ ،والترمذي ٣٥٤/٣ ،والنسائي ٦٢/٤، والإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان ٨٠/٥ ،وطبقات ابن سعد ٥٦٢/٣ ومعاني الآثار للطحاوي ٥٠٣/١ والسنن الكبرى للبيهقي ١٠/٤ - ١١ ، ومجمع الزوائد ١١٩/١٠.

(٢) أخرجه مسلم ١٠٠٤/٢

وأما الزيادة فى الحديث وهى قول أبى بكر وجواب الرسول صلى الله عليه وسلم عنه وقوله :" لاأدرى ماتحدثون بعدى " فهذا على تقدير ثبوته قد يجاب عنه بأن ذلك كان متقدما على ماثبت فى أبى بكر وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم من التفضيل ثم قام الدليل بعد ذلك على تفضيل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وتفضيل بقية أصحاب الشورى ونحو ذلك ، ومما يشهد لهذا على سبيل المثال أن من أدلة تفضيل أبى بكر على الصحابة تقديم النبى صلى الله عليه وسلم له فى الصلاة ليؤم الصحابة وكان ذلك قبيل وفاته صلى الله عليه وسلم ، ثم لقد ثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج يوما فصلى على أهل أحد صلاته على الميت ثم انصرف الى المنبر وخاطب جميع الصحابة قائلا :" إنى فرطكم وأنا شهيد عليكم " قال :" وإنى والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى " (1) فهذه شهادة وتزكية والله أعلم . وقد أجاب ابن رشد عن الحديث فقال :" وهذا لاحجة لهم فيه لأن الحديث ليس على عمومه فى أبى بكر وغيره لأن العموم قد يراد به الخصوص ". (2)

---

(1) أخرجه البخارى ، انظر الصحيح مع الفتح ٢٠٩/٣ و٦١١/٦ و٣٤٩/٧، ٣٧٧ .

(2) الجامع ١٧٦ - ١٧٧ .

رأى من قال : إن أفضل الصحابة مطلقا عمر رضى الله عنه :-

ذكر ابن حجر أن هناك من قال أفضل الصحابة مطلقا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، متمسكا بقوله صلى الله عليه وسلم فى أبى بكر " وفى نزعه ضعف " فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه الذى يقول فيه النبى صلى الله عليه وسلم :" بينا أنا نائم رأيتنى على قليب عليها دلو فنزعت منها ماشاء الله ثم أخذها ابن أبى قحافة فنزع بها ذنوبا أوذنوبين وفى نزعه ضعف والله يغفر له ضعفه ثم استحالت غربا ، فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقريا من الناس ينزع نوع عمر حتى ضرب الناس بعطن "(1)

قال ابن حجر فى تمسكهم بذلك :"وهو تمسك واه "(2).

ولم يذكر ابن حجر وجه استدلالهم ولعله توهمهم أن قوله صلى الله عليه وسلم فى أبى بكر " وفى نزعه ضعف " مع قوله فى عمر " فلم أر عبقريا من الناس ينزع نزع عمر " فيه تفضيل لعمر على أبى بكر ، وليس الأمر كذلك . فإن معنى " فى نزعه ضعف " كما يقول الشافعى :" يعنى قصر مدته وعجلة موته وشغله بالحرب لأهل الردة عن الافتتاح والتزيد الذى بلغه عمر فى طول مدته "(3)

---

(1) متفق عليه ، البخارى مع الفتح ١٩/٧ ومسلم ١٨٦٠/٤.

(2) الفتح ١٧/٧.

(3) الام ١٦٣/١.

قال ابن حجر فى كلام الشافعى هذا :" جمع فى كلامه ماتفرق فى كلام غيره ".(1)

فالمراد إذا بالنزع الضعيف والنزع القوي قصر مدة الخلافة وطولها فيتهيأ فى الطويلة مالايتهيأ فى القصيرة من الفتوحات والغنائم

قال النووى :" وأماقوله صلى الله عليه وسلم فى أبى بكر رضى الله عنه (وفى نزعه ضعف) فليس فيه حط من فضيلة أبى بكر ولا إثبات فضيلة لعمر عليه وإنما هو إخبار عن مدة ولايتهما وكثرة انتفاع الناس فى ولاية عمر لطولها ولاتساع الإسلام وبلاده والأموال وغيرها من الغنائم والفتوحات ومصر الأمصار ودون الدواوين ،وأما قوله صلى الله عليه وسلم (والله يغفر له) فليس فيه تنقيص له ولا إشارة إلى ذنب وإنما هى كلمة كان المسلمون يدعمون بها كلامهم ونعمت الدعامة" قال :" وقدسبق فى الحديث فى صحيح مسلم أنها كلمة كان المسلمون يقولونها افعل كذا والله يغفرلك "(2) يقصد النووى بالحديث الذى أشار إليه حديث جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له فى بعير له :" أتبيعنيه بكذا وكذا ؟ والله يغفرلك " قال جابر: هو لك يانبي الله ،قال النبي صلى الله عليه وسلم :"أتبيعنيه بكذا وكذا؟ والله يغفر لك " .. الحديث ثم قال أبونضرة الراوى عن جابر: فكانت كلمة يقولها المسلمون ،افعل كذا وكذا والله يغفرلك ".(3)

---

(1) الفتح ٣٩/٧.
(2) شرح مسلم ١٦١/١٥.
(3) صحيح مسلم ١٠٨٩/٢ ـ ١٠٩٠.

مقالات الذين فضلوا عليا بعد النبي صلى الله عليه وسلم :

أولا .. الرافضة أخزاهم الله :

لقد تقدم في الفصل الثاني من هذا الباب في المبحث الرابع منه ، بيان أن الرافضة أخزاهم الله يعتقدون أن أئمتهم أفضل الخلق بعد محمد صلى الله عليه وسلم وأفضل الأئمة علي بن أبي طالب ولذا فعلي في اعتقادهم هو أفضل الخلق بعد النبي صلى الله عليه وسلم وصرحوا بهذا في كتبهم ، فمثلا قد عقد صاحب الأنوار النعمانية نورا ، في بيان أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو علي بن أبي طالب ، وقال في أوله :" من كان أفضل من ابراهيم ونوح وموسى وعيسى بالدلائل السابقة لايحتاج تفضيله على غيرهم الى الدليل "(1) والرافضة مجمعون على تفضيل علي رضي الله عنه على سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليهم وسلم ، وعلى أنه ليس بعد النبي صلى الله عليه وسلم أفضل منه ، هكذا قال أبوالحسن الأشعري رحمه الله.(2)

أما أبوبكر وعمر وعثمان فلا فضيلة لهم عند الرافضة أخزاهم الله لأنهم عندهم كفار مرتدون وكذا سائر الصحابة عدا نفر

---

(1) الأنوار النعمانية 1/37.

(2) مقالات الاسلاميين 74 - 75.

منهم استثنوهم ،قال الكليني في الكافي (أ) :" كان الناس أهل ردة بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة " وهم :" المقداد بن الأسود وأبوذر الغفاري وسلمان الفارسي رحمة الله وبركاته عليهم" (١)

وقيل للكليني :" إن الناس يفزعون إذا قلنا :إن الناس ارتدوا " فقال لسائله :"إن الناس عادوا بعد ماقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل جاهلية " (٢)

ويقول صاحب الأنوار النعمانية : "إن الصحابة كانوا على النفاق لكن كانت نار نفاقهم كامنة في زمنه - (يعني النبي صلى الله عليه وسلم) - فلما انتقل الى جوار ربه برزت نار نفاقهم لوصيه ورجعوا القهقرى ،ولذا قال عليه السلام إرتد الناس كلهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا أربعة سلمان وأبوذر والمقداد

---

(١) الكافي ٢٠٥/٨ وانظر ص ٢٣٦٠

(٢) الكافي ٢٤٦/٨٠

- - - - - - - - - - - - -

(أ) هو محمد بن يعقوب بن اسحاق ،أبوجعفر الكليني - بضم الكاف وكسر اللام - شيخ الإمامية الروافض في عصره ،صنف الكافي في عشرين سنة ،ت ٣٢٩هـ٠

انظر سير أعلام النبلاء ٢٨٠/١٥ ،والأعلام ١٤٥/٧٠

وعمار ،وهذا مما لاإشكال فيه " فزاد رابعا غير مرتد[1]،

وقال الرازى فى بيان عقائد الرافضة : " وهم يكفرون الصحابة

ويقولون إن الخلق قد كفروا بعد النبى صلى الله عليه وسلم

إلا عليا وفاطمة والحسن والحسين والزبير وعمار وسلمان

وأباذر ومقدادا وبلالا وصهيبا[2] " ولقد استشكل الرافضة تزويج

النبى صلى الله عليه وسلم ابنتيه لعثمان بن عفان رضى الله عنهم،

وعثمان عندهم منافق كافر أخزاهم الله ولحل هذا الاشكال

عندهم اختلف علماؤهم هل كانتا بنتين للنبى صلى الله عليه

وسلم من خديجة أم أنهما ربيبتاه من أحد زوجي خديجة الأولين،

ولكن صاحب الأنوار النعمانية حل هذا الإشكال بقوله :

" وهذا الاختلاف لا أثر له لأن عثمان فى زمن النبى صلى الله عليه

وسلم قد كان ممن أظهر الإسلام وأبطن النفاق وهو

صلى الله عليه وسلم قد كان مكلفا بظواهر الأمور كحالنا

نحن أيضا وكان يميل إلى مواطلة المنافقين رجاء الإيمان الباطنى

منهم[3] " . هكذا لعنه الله حل الإشكال بأن عثمان رضى الله

عنه كان منافقا فى اعتقاده واعتقاد أهل ملة الرافضة،

---

(١) الأنوار النعمانية ١/٨١ .

(٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٥٦ .

(٣) الأنوار النعمانية ١/٨١ .

ثم قال لعنه الله :" وإنما الإشكال في تزويج علي عليه السلام أم كلثوم لعمر بن الخطاب وقت تخلفه لأنه قد ظهرت منه المناكير وارتد عن الدين ارتدادا أعظم من كل من ارتد "[1] قال لعنه الله :" فكيف ساغ في الشريعة مناكحته وقد حرم الله تعالى نكاح أهل الكفر والارتداد واتفق عليه علماء الخاصة "[2] هذا هو اعتقاد الرافضة أخزاها الله في الصحابة ،رفضوا ما آتى الله صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفضل ،قال ابن تيمية :" أما الرافضة فأصل بدعتهم عن زندقة وإلحاد، وتعمد الكذب كثير فيهم، وهم يقرون بذلك حيث يقولون : ديننا التقية ،وهو أن يقول أحدهم بلسانه خلاف ما في قلبه وهذا هو الكذب والنفاق" قال :" ويدعون مع هذا أنهم هم المؤمنون دون غيرهم من أهل الملة ويصفون السابقين الأولين بالردة والنفاق فهم في ذلك كما قيل (رمتني بدائها وانسلت)[3] إذ ليس في المظهرين

---

(١) الأنوار النعمانية ٨١/١.

(٢) الأنوار النعمانية ٨٢/١.

(٣) هذا مثل يضرب لمن ينسب الى غيره عيبا هو فيه، انظر قائله وقصته في مجمع الأمثال ٢٨٦/١ وانظر ص ١٠٢.

للإسلام أقرب الى النفاق والردة منهم ولايوجد المرتدون والمنافقون فى طائفة أكثر مما يوجد فيهم".(1)

وعلي رضي الله عنه وأرضاه بريء مما ذهبت اليه الرافضة، ولقد بلغه فى حياته أن نفرا يذكرون أبا بكر وعمر بغير الذى هما له أهل فخطب رضي الله عنه فى الناس مبينا عظيم حق أبي بكر وعمر حتى قال :" ألا ولن يبلغني عن أحد يفضلني عليهما إلا جلدته حد المفترى " نقل الخطيب البغدادى بعد أن أسند هذا الحديث قول أحد رواته وهو أبوعبدالله البوشنجي (أ) " هذا الحديث الذى سقناه ورويناه من الأخبار الثابتة لأمانة حماله وثقة رجاله واتقان أثريه وشهرتهم بالعلم فى كل عصر من أعصارهم الى حيث بلغ من نقله الى الإمام الهادى علي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى كأنك شاهد حول المنبر وعلي فوقه " (2) وقال ابن تيمية رحمه الله :" قد روى عن علي من نحو ثمانين وجها وأكثر أنه قال على منبر الكوفة : خير هذه الأمة بعد نبيها أبوبكر وعمر " (3) وقال :" قد تواتر عنه

---

(1) منهاج السنة ٦٨/١ - ٦٩ .

(2) الكفاية ٥٣٤ - ٥٣٥.

(3) الفتاوى ٤٠٧/٤ ومنهاج السنة ١١/١- ١٢و ٣٠٨ و٥١١/٧.

- - - - - - - - - - - - - - - -

(أ) هومحمدبن ابراهيم بن سعيد ،شيخ أهل الحديث فى زمانه بنيسابور،ت ٢٩١هـ انظر تذكرة الحفاظ ٦٥٧/٢ ،وسير أعلام النبلاء ٥٨١/١٣.

من الوجوه الكثيرة أنه قال على منبر الكوفة وقد أسمع من حضر خير هذه الأمة بعد نبيها أبوبكر ثم عمر"[1] وقال رحمه الله :" خير هذه الأمة بعد نبيها أبوبكر ثم عمر كما تواتر ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب موقوفا ومرفوعا"[2]. وقد أخرج البخاري في صحيحه عن محمد بن الحنفية قال :" قلت لأبي : أي الناس خير بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : أبوبكر. قلت : ثم من ؟ قال : ثم عمر ،وخشيت أن يقول عثمان ،قلت : ثم أنت ؟ قال : ما أنا الا رجل من المسلمين"[3].

ومقالات الرافضة كما يقول الاسفراييني[أ] :" ليست مما يستدل على فسادها فإن العاقل ببديهة العقل يعلم فسادها وينكر عليها فلا يمكن أن تحمل منهم هذه المقالات إلا على أنهم قصدوا بها إظهار ما كانوا يضمرونه من الإلحاد والشر بموالاة قوم من أشراف أهل البيت ،وإلا فليس لهم دليل يعتمدون عليه ،ويجعلون خرافات مقالاتهم إليه ، حتى أنهم لما رأوا الجاحظ يتوسع في

---

(١) منهاج السنة ١١/١ و ٣٠٨ .

(٢) الفتاوى ٥٦/١١ ،ومنهاج السنة ٣٠٨/١١.

(٣) البخاري مع الفتح ٢٠/٧.

(أ) هو طاهر بن محمد ،أبوالمظفر ،مشهور باسم " شهفور" من فقهاء الشافعية وله مصنفات في التفسير والأصول ت ٤٧١ هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٤٠١/١٨ وطبقات الشافعية ١٧٥/٣.

التصانيف ويصنف لكل فريق قالت له الروافض صنف لنا كتابا ، فقال لهم : لست أدرى لكم شبهة حتى أرتبها وأتصرف فيها ، فقالوا له : اذا دللتنا على شيء نتمسك به ،فقال : لا أرى لكم وجها إلا أنكم اذا أردتم أن تقولوا شيئا مما تزعمونه تقولون انه قول جعفر بن محمد الصادق ،لا أعرف لكم سببا تستندون إليه غير هذا الكلام ،فتمسكوا بحمقهم وغباوتهم بهذه السوءة التى دلهم عليها ،وكلما أرادوا أن يختلقوا بدعة أويخترعوا كذبة نسبوها الى ذلك السيد الصادق وهو عنها منزه وعن مقالتهم فى الدارين "(١).

هذا ،وفى الرافضة فرقة يقال لهم الراوندية يقولون إن أفضل الصحابة العباس بن عبدالمطلب "(٢). قال ابن حجر :" ومنهم من ذهب الى العباسى " أى الى كونه أفضل الصحابة ،قال :" وهو قول مرغوب عنه ليس قائله من أهل السنة بل ولا من أهل الإيمان "(٣).

---

(١) التبصير فى الدين ص٤٣.

(٢) انظر مقالات الاسلاميين ٢١ و ٤٦٢.

(٣) فتح البارى ١٧/٧.

ثانيا : الزيدية والمعتزلة :

أما الزيدية فقد أجمعوا على تفضيل علي على سائر الصحابة كما يقول أبو الحسن الأشعري (1)، مع اثباتها خلافة الشيخين أبي بكر وعمر (2).

وأما المعتزلة ففي شرح الأصول الخمسة أن متقدميهم ذهبوا الى أن أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبوبكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي إلا واصل ابن عطاء فإنه يفضل عليا على عثمان ، وأن فيهم من توقف في الأفضل من هؤلاء الأربعة ،وأن في متأخريهم من فضل

---

(1) مقالات الإسلاميين ٧٤ - ٧٥.

(2) والزيدية ثلاث فرق يجمعها القول بإمامة زيد بن علي بن الحسين بن علي في أيام خروجه وهي : الجارودية والسليمانية والبترية ، والجارودية نحت في الصحابة منحى الرافضة وكفرت أبا بكر وعمر ،وأما السليمانية والبترية فعلى ماذكرنا من تثبيت خلافة الشيخين والاقرار بفضلهما وهما تكفران الجارودية لتكفيرها الصحابة ويتبرءان منها - انظر الفرق بين الفرق ٢٢ و ٣٢ - ٣٤ " والتبصير في الدين ٢٧ - ٢٩ ،وخطط المقريزي ٢/٣٥١.

عليا ثم أبوبكر ثم عمر ثم عثمان وأن المتأخرين على أن أفضل الصحابة على ثم الحسن ثم الحسين .(1)

والجامع بين الزيدية والمعتزلة تثبيتهم إمامة الشيخين وعثمان بعدهما ويقرون لهم بالفضل إلا أنهم يفضلون عليا عليهم ويجوزون إمامة المفضول . وهذا لاشك أهون بكثير من مقالة الرافضة خذلهم الله .

قال ابن تيمية رحمه الله :" ليس في المعتزلة من يطعن في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، بل هم متفقون على تثبيت خلافة الثلاثة ،وأما التفضيل فأئمتهم وجمهورهم كانوا يفضلون أبابكر وعمر رضي الله عنهما ،وفي متأخريهم من توقف في التفضيل ،وبعضهم فضل عليا فصار بينهم وبين الزيدية نسب واشج من جهة المشاركة في التوحيد والعدل والإمامة والتفضيل ".(2)

ومذهبهم محجوج بالكتاب والسنة والإجماع - كما تقدم بيانه -.

---

(1) شرح الأصول الخمسة ٧٦٧ ،وانظر مقالات الإسلاميين ص ٤٥٨.

(2) منهاج السنة ١/ ٧٠.

الفصل الرابع

التفاضل بين المؤمنين

و

مباحث متفرقة في المفاضلة

الفصل الرابع : التفاضل بين المؤمنين ، ومباحث متفرقة في المفاضلة :

تمهيد : مقياس التفاضل في الشرع .

لقد خلق الله الخلق لغاية عظيمة بينها سبحانه في كتبه وعلى ألسنة رسله ، ألا وهي عبادته سبحانه والتذلل إليه بالطاعة والاستسلام والانقياد ، ولقد بين سبحانه أنه سخر المخلوقات كافة لعبادته فما من شيء إلا وهو يسجد له عز وجل ويسبح بحمده ، وبين أنه استثنى من هذا التسخير صنفين من المخلوقات ركب فيهم مناط الاختيار وهو العقل وكلفهم بالعبادة تكليفا ، تاركا لهم الاختيار أن يطيعوا أو أن يعصوا وأقام هذا التخيير ليبلوهم أيهم أحسن عملا .

قال سبحانه :" وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " الذاريات، وهذه في المكلفين خاصة ، والمعنى لم أخلقهم إلا لآمرهم بالعبادة وأكلفهم بها ، فمنهم من يمتثل ومنهم من يعصي ، ولما ذكر سبحانه غير المكلفين قال :" ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والدواب " فعمهم من غير استثناء ثم لما ذكر المكلفين قال :" وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب " - الحج ١٨ - فاستثنى وقال سبحانه

في غير المكلفين أيضا :" أولم يروا الى ماخلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون ،ولله يسجد مافي السموات ومافي الأرض من دابة والملائكة وهم لايستكبرون" – النحل ٤٨ – ٤٩ .

فالعبودية لله هي الأمر الجامع الذي يجتمع فيه ماتفرق من المخلوقات في الأنواع والأجناس والذوات والصفات، وهي مراد الله الذي من أجله خلق وبرأ، والجميع متساوون في كونهم خلق الله وملك الله وخاضعون لتقديره وتدبيره، وإنما يتفاضلون عنده سبحانه بمقدار تفاوتهم في عبوديتهم له ،فإن المكلف إذا عبد الله كان أفضل من غير المكلف، لكون عبادته لله باختيار مع القدرة على المعصية، فعبوديته أتم وأكمل وأما اذا أعرض عن عبادة الله، كانت الحيوانات والجمادات ونحوها من غير المكلفين أفضل منه، لأنها أتم عبودية وأكمل حين ذلك ،ولذا يتمنى الكافر مصير البهائم يوم القيامة كما قيل في تفسير قوله سبحانه :" يوم ينظر المرء ماقدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا " النبأ ٣٠ –[1]، فمصيرها

(١) انظر تفسير ابن جرير ١٧/٣٠ ،والدرالمنثور ٣١١/٦ .

خير من مصيره لأنه لم يتعلق بها حق لله ضيعته كما تعلق به فضيعه، إنما تقص الجماء من القرناء كما في حديث عثمان رضي الله عنه (1) ثم تكون ترابا، والمكلف الكافر لتضييعه مقام العبودية يخلد في العذاب.

ثم إن المكلفين العابدين لله يتفاضلون بمقدار تفاوتهم في تحقيق مراد الله منهم، ولذا كان أفضل الخلق أتمهم عبودية لله، وكلما ازداد العبد عبودية لله ازداد كماله وعلت درجته، فتفاضل الخلق هو في تفاضلهم في عبوديتهم لله (2)، قال سبحانه: " وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيا وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا " هود 7 -، وقال: "إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا "الكهف 7 - وقال: " هو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا - الملك2 وقال سبحانه: " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلنكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير " الحجرات 13 -.

---

(1) الذي أخرجه أحمد في المسند 72/2.

(2) انظر العبودية ص 80

وقال ـ صلى الله عليه وسلم لأبي ذر: " انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى "[1] وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: "إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد كلكم بنو آدم طف الصاع لم تملؤوه ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين أو تقوى "[2] وقد قيل للنبي " من أكرم الناس قال: "أكرمهم أتقاهم "[4] فليس التفاضل عند الله بجنس أو بنسب، وإن تفاضل به الخلق بينهم، بل التفاضل عند الله بالتقوى التي هي ملاك أمر العبودية، فما وقع من فضل في الذوات أو الصفات أو نحوها لعبد على عبد فقد يُفَضِّلُه به العبادُ، ولكنه لا يقتضي تفضيله عند الله حتى يقوم بحق العبودية في هذا الفضل فيفضل به عند الله لما تعلق به من حظ العبودية لا لذاته،

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٥٨/٥، وقال ابن كثير تفرد به أحمد انظر تفسيره ٢١٨/٤ وانظر الترغيب والترهيب ٦١٢/٣ ومجمع الزوائد ٨٤/٨ ففيهما أن رجاله ثقات إلا أن فيه انقطاع وقد حسنه السيوطي في الجامع ١٠٩/١ وكذا الألباني في صحيح الجامع ٣٢/٢.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١٥٨، ٤٥/٤ وعزاه السيوطي في الجامع للبيهقي في شعبه وأشار له بالصحة، الجامع ١٣٧/٢.

(٤) أخرجه البخاري انظر الصحيح مع الفتح ٤١٤/٦.

واستدلالنا لهذا الذي نقوله أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال :" إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ".(1)

فإذا ضم قوله - صلى الله عليه وسلم - "إن الله لاينظر إلى صوركم " الى قوله في حديث آخر :" المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف ،وفي كل خير " وفي رواية :" خير وأفضل وأحب الى الله " ،(2) تحقق ماقلناه ،فالله لاتفضل الصور عنده إلا بالعبودية ،فالقوي البنية لاينظر الله إليه إلا إذا ترتب على هذه القوة حظها من العبودية بأن يكون أشد إقداما على العدو في الجهاد، وأسرع في الخروج اليه والذهاب في طلبه، أشد عزما في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أرغب في الصوم والصلاة ونحوهما من العبادات، أنشط في أدائها، فيكون في ذلك كله ونحوه خير من الضعيف لفضل قوته وإن كان في كل خير لاشتراكهما في الإيمان إلا أن القوي أتم عبودية لله فهو عند الله أفضل لحظ

---

(1) أخرجه مسلم في الصحيح ١٩٨٧/٤ ،وأحمد في المسند ٢٨٥/٢ ،وابن ماجه في السنن ١٣٨٩/٢٠

(2) أخرجه مسلم في الصحيح ٢٠٥٢/٤ ،وأحمد في المسند ٣٦٦/٢ ،وابن ماجه في السنن ٣١/١ ،وانظر شرح النووي لمسلم ٢١٥/١٦ ٠

العبودية التي اكتسبها بقوته، وإن كان عند الناس أفضل لحظ القوة ذاتها ،وكذا إذا نظرنا في قوله - صلى الله عليه وسلم - " وأموالكم " أي ولاينظر الله إلى أموالكم مع قوله سبحانه :" مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لم يشاء والله واسع عليم " البقرة ٢٦١ ،تحقق ماقلناه، ثم إذا نظرنا في لفظ الحديث نفسه لوجدناه دالا على ماقلناه، فإن فيه أن الله إنما ينظر في ماتنعقد عليه نية القلب وتصدقه الأعمال من التصرفات في الصور التي صوّر الله خلقه بها، أو الأموال التي آتاهم إياها ،لاينظر الى الصور والأموال بل ينظر الى مايتعلق بها من حظ العبودية.

ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تنازع الناس في المفاضلة بين الفقير الصابر والغني الشاكر ثم قال :" والصواب في هذا كله ماقاله الله تبارك وتعالى حيث قال :" ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم" وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي أنه سئل :" أي الناس أفضل ؟ قال : أتقاهم " وذكر رحمه الله الحديث ثم قال :" فدل الكتاب والسنة أن أكرم الناس عند الله أتقاهم " الى أن قال :" فمن كان من هذه الأصناف أتقى الله فهو أكرم عند الله واذا استويا في التقوى استويا في الدرجة "(1)

(1) الفتاوى ١١/١٩٥ - ١٩٦ وانظر منهاج السنة ٤/٦٠٨.

فالعبودية هى المقياس الشرعي الذى تقوم عليه المفاضلة بين

الخلق ،بل حتى مايكون من التفاضل فى الأزمنة والأمكنة إنما

هو لحظ العبودية المتعلق بها ،وكما يقول ابن رشد[1] :" البقاع

لم يفضل بعضها على بعض لمعنى موجود فيها من خاصية تختص

بها ،وإنما فضلت عليها لتفضيل الله لها برفع درجات

العاملين فيها"[2] أي أنها إنما تفضل بمضاعفة الحسنات

والسيئات فيها لا لذواتها ،وكذا الأزمنة لاتتفاضل لمعنى

موجود فى ذواتها وإنما لما خصها الله به من مضاعفة أجر

عمل العبد فيها وماخصها الله به من العبادات التى وقّتها

فيها ،وكذا نجد العبادات نفسها ينبنى تفاضلها على أيها

أعظم أجرا وأكثر حسنات ،أيها أحب الى الله وأقرب ، ولذلك

ولذلك اتفق أهل العلم على أن الفرض

---

(١) هو أبو الوليد محمد بن أحمد ابن رشد القرطبى المالكى ،ت ٥٢٠ هـ

أندلسى لم ينتقل من الأندلس طالبا للعلم ،ولاخرج عن قرطبة يروى

عن العلماء ،كان من تلامذته القاضى عياض ،كان فقيها تولى القضاء

فى قرطبة وله تآليف فى الفقه والحديث والأم. انظر مقدمة المحقق

لكتابه "الجامع من المقدمات".

(٢) الجامع من المقدمات ص ٣٤٩ وانظر ص ٣٤٥.

أفضل من النفل .[1]

لقوله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي :" وماتقرب عبدى بشيء أحب الي مما افترضت عليه "[2].

فالعبادة هي مجال التفاضل والعبودية لله هي المقياس في التفاضل إليها المفزع فيه ،ومانظر في تفاضله من غير جهة العبودية فتلك مفاضلة في غير الشرع وعند غير الله ، أما عندالله وفي شرعه فالتفاضل في حظ العبودية حيث تصرفه وإنما تكون العبرة في العبودية التي يتفاضل بها هو إحسان العمل لاكثرته فلرب نهر صاف خير من بحر كدر ،والآيات المذكورة آنفا دالة على هذا.

وينبغي التنبيه الى أن العبودية هي سبب التفاضل ووجهه في الشرع لاغير إلا أن ينص الشرع على سبب آخر كالنبوة في النبي، والصحبة في الصحابي .

---

(١) إلا ما استثني لدلالة النص عليه كفضل ابتداء السلام وهو سنة على رده وهو واجب ،وهي مواضع معدودة ثلاثة أوأربعة مواضع النفل فيها أفضل من الفرض ، انظر غذاء الألباب ـ شرح منظومة الآداب ٢٨٦/١.

(٢) أخرجه البخاري انظر صحيحه مع الفتح ٣٤١/١١.

القسم الأول : التفاضل بين المؤمنين :

المبحث الأول .. الأصل فى تفاضل المؤمنين تفاضل الإيمان :

إنما يتفاضل المؤمنون بتفاضلهم فى الإيمان ، والإيمان يتفاضل ، وتفاضل الإيمان زيادته ونقصانه ، وتكون زيادته بالطاعة ويكون نقصانه بالمعصية ، ولقد قامت الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله بأن الإيمان يزيد وينقص :

ففى الكتاب : قال الله سبحانه وتعالى :" الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا " البقرة ١٧٣ ، وقال سبحانه وتعالى :" إنما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا " الأنفال ٢ ، وقال عز وجل :" فمنكم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون " - التوبة ١٢٤ ، وقال سبحانه :" ولما رآ المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، ومازادهم إلا إيمانا وتسليما " الأحزاب ٢٢ ، وقال عز وجل :" هو الذى أنزل السكينة على المؤمنين ليزدادوا إيمانا " الفتح ٤ ، وقال تعالى :" ليستيقن الذين أوتوا الكتاب

ويزداد الذين آمنوا إيمانا " المدثر ٣١ ،وقال عزوجل:

"إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى " الكهف ١٣،وقال:

" ويزيد الله الذين اهتدوا هدى " مريم ٧٦ ،وقال : " والذين

اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم " محمد ١٧ ،وقال :" ويخرون

للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا " الإسراء ١٠٩.

فهذه آيات من القرآن مصرحة بأن الإيمان يزيد ،قال ابن حجر

:" وبثبوتها يثبت المقابل فإن كل قابل للزيادة قابل للنقصان

ضرورة "(١) وعقد ابن مندة عنوانا قال :" ذكر الأعمال التي

يستحق بها العامل زيادة الإيمان والتي توجب النقصان"(٢) فما وقعت

فيه الزيادة وجب وقوع النقصان فيه ،

ومن السنة :

قول النبي صلى الله عليه وسلم للنساء :" ما رأيت من ناقصات

عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن " قلن : وما نقصان

ديننا وعقلنا يارسول الله ؟ قال :"أليس شهادة المرأة نصف شهادة

الرجل ؟ " قلن : بلى ،قال :" فذلك من نقصان عقلها ،أليس

اذا حاضت لم تصل ولم تصم ؟ " قلن : بلى ،قال :" فذلك

من نقصان دينها"(٣)

---

(١) الفتح ٤٧/١

(٢) الايمان لابن منده ٥٤١/٢.

(٣) أخرجه البخاري ، الصحيح مع الفتح ٤٠٥/١ ،ومسلم ٨٦/١ - ٨٧.

فهذا تصريح من النبي صلى الله عليه وسلم بأن الايمان يقبل

النقص وهو دليل على أن الإيمان يقبل الزيادة .

وعلى هذا جرى اعتقاد أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص

وهو مروي عن الأئمة وهو منقول بالأسانيد عن جمع كثير من الصحابة

والتابعين وكل من يدور عليه الإجماع من الصحابة والتابعين كما يقول

ابن حجر [(١)] قال : " وحكاه فضيل بن عياض ووكيع عن أهل السنة

والجماعة " وروى اللالكائي [(٢)] بسنده عن يعقوب بن سفيان [(أ)] أنه أخبر

أنه وجد كل من أدرك من عصره بمكة والمدينة والشام والبصرة والكوفة

على القول بأن الإيمان يزيد وينقص [(٣)] . وروى بسنده عن سهل بن المتوكل

ابن حجر الشيباني [(ب)] أنه قال :" أدركت ألف استاذ أو أكثر كلهم

يقولون : الايمان قول وعمل يزيد وينقص" [(٤)] . ونقل ابن حجر عن اللالكائي

أنه :" روى بسنده الصحيح عن البخاري قال :" لقيت أكثر من ألف

---

(١) الفتح ٤٧/١ وانظر شرح أصول الاعتقاد ٩٤١/٥ - ٩٦٤، والايمان لابن تيمية ٢٩٢ - ٢٩٤ .

(٢) الفتح ٤٧/١ .

(٣) شرح أصول الاعتقاد ٩٥٧/٥ و ٩٦٣ .

(٤) شرح أصول الاعتقاد ٩٥٧/٥ و ٩٦٤ .

(أ) هو يعقوب بن سفيان بن جوان الفسوي ، محدث روى عن أكثر من ألف شيخ ، ت ٢٧٧ هـ . انظر سير أعلام النبلاء ١٨٠/١٣ وتهذيب التهذيب ٣٨٥/١١ .

(ب) لم أجد له ترجمة .

رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحدا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص "[1]، وذكر ابن القيم أن الشافعي وغيره حكوا إجماع السلف على أن الإيمان يزيد وينقص[2]، وقد قال ابن تيمية :" وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان فيه عن الصحابة ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة "[3]

ولكن لاشك أن فيمن جاء بعد الصحابة من السلف من خالف فقال الإيمان لايزيد ولاينقص وهم حماد بن أبي سليمان[أ] ومن اتبعه من فقهاء الكوفة كأبي حنيفة وغيره[4]، ولكن قولهم كان شاذا في أهل السنة والجماعة واجتمع الأئمة على الإنكار عليهم ورد ماشذوا به عن أهل السنة[5]، وهم مع قولهم بأن الإيمان لايزيد ولاينقص يقولون بتفاضل المؤمنين في الأعمال.[6]

---

(1) الفتح ٤٧/١ وانظر شرح أصول الاعتقاد ٨٨٩/٥.

(2) المنار المنيف ص ١١٣.

(3) الايمان لابن تيمية ٢١١.

(4) انظر الايمان لابن تيمية ١١٤ و ٢٨١ .

(5) انظر السنة للخلال ٥٦٢ - ٥٨١ وشرح أصول الاعتقاد ٩٨٦/٥ - ١٠٠٥.

(6) انظر متن الفقه الأكبر - بذيل شرحه - ص ١٦٩، وانظر شرحه ص ٧٠ - ٧١، وانظر العقيدة الطحاوية - مع شرحها - ص ٣٧٣، وانظر الشرح ص ٣٧٥.

(أ) هو حماد بن أبي سليمان مسلم، أبو اسماعيل الأشعري، أحد أئمة الفقهاء، وهو أول من أرجأ العمل عن مسمى الإيمان من أهل السنة، صدوق له أوهام، ت ١٢٠هـ أو قبلها.

انظر سير أعلام النبلاء ٢٣١/٥ وميزان الاعتدال ٥٩٥/١.

فهو إجماع على تفاضل المؤمنين.

وأما وجه كون الأصل في تفاضل المؤمنين تفاضل الإيمان، أن الإيمان إنما كان متفاضلا يقبل الزيادة والنقصان لأنه شعب كما قال صلى الله عليه وسلم "الإيمان بضع وسبعون شعبة والحياء شعبة من الإيمان "(1)، فمن استكمل الشعب استكمل الإيمان ومن نقص منها نقص من إيمانه، وبهذا يتصور تفاضل المؤمنين إذ لو كان الإيمان شيئا واحدا لايقبل الزيادة والنقصان فلا يتفاضل لَتساوَى أهله فيه لِتساوِي حظهم منه؛ لأنه يكون حينها شيئا واحدا فلا يقبل الزيادة فيزيد أحد المؤمنين على آخر فيه فيفضله، ولايقبل النقص فينقص أحد المؤمنين عن آخر فيه فيكون مفضولا، وعليه فيكون إيمان الأنبياء وإيمان آحاد المؤمنين متساو، وهذا باطل.

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة وهذا لفظ مسلم ٦٣/١ ولفظ البخاري " بضع وستون " الصحيح مع الفتح ٥١/١.

المبحث الثاني : من أدلة تفاضل المؤمنين :

* قال تعالى :" فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين " النساء ٦٩. هذه طبقات المؤمنين وهي دليل على تفاضلهم.

* وقال الله تعالى :" لايستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما "النساء ٩٥، هذا نص في التفاضل بين المؤمنين وبيان لوجه من وجوه ذلك التفاضل فالآية ناطقة بأن من جاهد في سبيل الله أفضل ممن قعد عن الجهاد من غير عذر مانع من الجهاد ،ومع أن الجميع مؤمن بالله وكلا وعد الله الحسنى إلا أن الله فضل المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما.

* وقال سبحانه وتعالى :" يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم واذا قيل انشزوا فانشزوا ،يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات" المجادلة ١١ –

في هذه الآية إخبار بتفاضل المؤمنين في الإيمان وذلك قوله سبحانه : " يرفع الله الذين آمنوا منكم " أي يرفعهم بإيمانهم على من ليس بمنزلتهم في الإيمان[1] ،وإخبار بتفاضلهم في وجه من وجوه الايمان وهو العلم وذلك قوله تعالى :" والذين أوتوا العلم "أي ويرفع الذين أوتوا العلم على من ليس بعالم .

* وقال سبحانه :" ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله " فاطر ٣٢ - قد قسم الله هذه الأمة الى ثلاثة أنواع ظالم لنفسه وهو المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات ومقتصد وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات ،والسابق بالخيرات بإذن الله وهو الفاعل للواجبات والمستحبات التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات[2] .

فالآية دليل على تفاضل المؤمنين.

---

(١) انظر زاد المسير ١٩٣/٨.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٥٥٥/٣.

وقال سبحانه :" الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض" النساء ٣٤ ـ هذا إخبار بتفضيل المؤمنين على المؤمنات ،فإن الرجال من المؤمنين يفضلون النساء من المؤمنات فى وجوه من الايمان كالجمعة والجماعات والجهاد والخلافة ونحو ذلك من أمور الإيمان ، وتوضح هذا التفاضل عدة نصوص نحو قوله صلى الله عليه وسلم فى النساء أنهن ناقصات دين وتفسيره صلى الله عليه وسلم نقصان دينهن بسقوط وجوب عبادة الصلاة عليهن حال الحيض والنفاس وكذا تركهن الصوم فى تلك الحال، أما الرجال فإنه لايسقط عنهن وجوب الصلاة بحال ،وكذا حديث عائشة رضى الله عنها أنهن كن يرين الجهاد أفضل الأعمال فقالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم :" ألانغزو ونجاهد معكم ؟ " فقال النبى صلى الله عليه وسلم :" جهادكن الحج" (١).

ومن أدلة تفاضل المؤمنين أيضا :

* حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء الفقراء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلا والنعيم المقيم يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ولهم

---

(١) أخرجه البخارى عن عائشة بن طلحة عن عائشة رضى الله عنها فى مواضع من صحيحه بألفاظ متقاربة جمعت منها هنا ، انظر الصحيح مع الفتح ٧٢/٤ و ٤/٦ و٧٥.

فضل من أموالهم يحجون بها ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون

قال صلى الله عليه وسلم: " ألا أحدثكم بما إن أخذتم به أدركتم

من سبقكم ولم يدرككم أحد بعدكم ،وكنتم خير من أنتم بين

ظهرانيهم إلا من عمل مثله ؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف

كل صلاة ثلاثا وثلاثين "(١) وفى رواية أن الفقراء رجعوا إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : سمع إخواننا أهل

الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله فقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم :" ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"(٢).

ففى هذا الحديث بيان ظاهر لتفاضل المؤمنين وذكر لبعض وجوه

التفاضل بينهم فهم يتفاضلون فى الحج والعمرة والجهاد

والصدقة والذكر والصوم والصلاة ونحو ذلك من شرائع الإسلام.

* وقال صلى الله عليه وسلم :" إن من خياركم أحاسنكم أخلاقا"(٣)

فهذا دليل على تفاضل المؤمنين وأن من أوجه تفاضلهم حسن

الخلق .

---

(١) أخرجه البخارى ، الصحيح مع الفتح ٣٢٥/٢ ومسلم ٤١٦/١ - ٤١٧.

(٢) أخرجها مسلم ٤١٧/١.

(٣) أخرجه البخارى ومسلم من حديث معاوية رضى الله عنه ،وهذا لفظ مسلم ، البخارى مع الفتح ٤٥٢/١٠ ومسلم ١٨١٠/٤.

* وسئل صلى الله عليه وسلم : أى المسلمين أفضل ؟ قال : " من سلم المسلمون من لسانه ويده "(1)

* وقال صلى الله عليه وسلم : " بينا أنا نائم رأيت الناس يعرضون عليّ وعليهم قمص منها مايبلغ الثدى ومنها مادون ذلك وعرض عليّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره . قالوا : فما أولت ذلك يارسول الله ؟ قال : الدين "(2)

فهذا صريح فى تفاضل المؤمنين فى الإيمان.

(1) أخرجه مسلم ٦٦/١ وانظر البخارى مع الفتح ٥٤/١.

(2) أخرجه البخارى ٧٣/١ ومسلم ١٨٥٩/٤.

المبحث الثالث : فى أى شىء يقع تفاضل المؤمنين :

تبين من سياق الأدلة السابقة فى المبحث السابق دلالتها على أن تفاضل المؤمنين واقع فى الأعمال ، وأن زيادة الإيمان ونقصانه انما تكون فى الأعمال ، فتكون الزيادة بالطاعات ويكون النقصان بنقص الطاعات وارتكاب المعاصى ، ولذلك عقد البخارى بابا فى كتاب الإيمان من صحيحه جعل عنوانه :" تفاضل أهل الإيمان فى الأعمال " (1) وعقد مسلم بابا فى كتاب الإيمان من صحيحه بعنوان :" بيان نقصان الإيمان بالمعاصى ونفيه عن المتلبس بالمعصية على ارادة نفى كماله " (2) وبابا آخر بعنوان: " بيان نقصان الايمان بنقص الطاعات .. " (3) وعقد اللالكائى عنوانا فقال :" سياق مادل أو فسر من الآيات من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومارواه عن الصحابة والتابعين من بعدهم من علماء أئمة الدين أن : الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية . (4)

---

(1) الصحيح مع الفتح 1/72 .

(2) صحيح مسلم 1/76 .

(3) صحيح مسلم 1/86 .

(4) شرح أصول الاعتقاد 5/890 .

ونقص الإيمان ليس منحصرا فيما يحصل به الإثم، فلا ينقص الإيمان بالمعصية فقط، بل وبنقص الطاعات، كما دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم في النساء أنهن ناقصات دين وفسر النقص بترك الحائض الصلاة والصوم، ثم نقص الطاعات قد يكون على وجه التكليف كما هو الحال في الحائض والنفساء في تركهن الصلاة والصوم، وقد يكون على وجه العذر كمن ترك الجماعة لعذر (1)، وعليه فإن نقص الإيمان يقع على وجهين :- إما بما يحصل به الإثم وهو المعصية، وإما بما لا يحصل به إثم وهو نقص الطاعات بأحد وجهين إما التكليف أو العذر.

ثم إن الأعمال التي يقع فيها التفاضل إما أعمال قلوب وإما أعمال جوارح، فإن الإيمان يتفاضل في القلب، ويتفاضل في الجوارح أما تفاضله في القلب فمن أدلته قوله سبحانه في المؤمنين إذا تُلي عليهم كتاب الله :" ويزيدهم خشوعا " الاسراء ١٠٩ - فهذه زيادة في عمل القلب وهو الخشوع الذي قال الله فيه : " انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم "- الأنفال ٢ وقال ابراهيم عليه السلام فيما حكاه الله عنه :" رب أرني كيف تحيي الموتى، قال : أولم تؤمن، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي" البقرة ٢٦٠-.

---

(1) انظر شرح النووي لمسلم ٦٨/٢.

فهذه زيادة الإيمان فى القلب بزيادة طمأنينيته ،

وفى حديث الرؤية الطويل الذى فيه ذكر الصراط أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن من المؤمنين من ينجو فيجوز الصراط ولايدخل النار ،قال صلى الله عليه وسلم :" فإذا رأوا أنهم قد نجوا وبقي اخوانهم يقولون : ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا ويعملون معنا ،فيقول الله تعالى :أذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه ،ويحرم الله صورهم على النار ،فيأتونهم وبعضهم قد غاب فى النار الى قدمه والى أنصاف ساقيه ،فيخرجون من عرفوا ثم يعودون، فيقول :اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه ، فيخرجون من عرفوا ثم يعودون ،فيقول : اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه فيخرجون من عرفوا "(1) فهذا صريح صراحة ظاهرة بينة أن الإيمان يتفاضل فى القلب وأن المؤمنين يتفاضلون بمايقوم فى قلوبهم من الإيمان وأن منهم من يكون فى قلبه مثقال دينار من ايمان ومنهم يكون فى قلبه مثقال نصف دينار

---

(1)متفق عليه من حديث أبى سعيد ،البخارى مع الفتح ٤٢١/١٣ ومسلم ١٦٩/١ - ١٧٠ ،وهذا لفظ البخارى ٠

ومنهم من يكون في قلبه مثقال ذرة ،ومنهم من يكون في قلبه أكثر من ذلك كله .

قال ابن تيمية رحمه الله : " ان أعمال القلوب مثل محبة الله ورسوله وخشية الله تعالى ورجائه ونحو ذلك هي كلها من الايمان كما دل على ذلك الكتاب والسنة واتفاق السلف وهذا يتفاضل الناس فيه تفاضلا عظيما "(1) .

وأما تفاضله في أعمال الجوارح فما تقدم في المبحث الثاني من النصوص فيه الدلالة الظاهرة على ذلك ،والأدلة على أن التفاضل بين المؤمنين يكون بأعمال القلوب وأعمال الجوارح كثيرة لاتحصر .

---

(1) الايمان لابن تيمية ص ٢٢٢ .

المبحث الرابع : جماع أوجه تفاضل المؤمنين :

يتفاضل المؤمنون فيما بينهم من أوجه عديدة يجمعها وجهان :

الوجه الأول : تفاضلهم فيما شُرع لهم ، وهو التفاضل من جهة ما أُمروا به أو نهوا عنه .

الوجه الثاني: تفاضلهم في القيام بما شُرع لهم ، وهو التفاضل من جهة امتثالهم الأمر واجتنابهم المنهي عنه .

أما الوجه الأول : فيضم أوجها عدة ، منها :

١- التفاضل بينهم من جهة نزول الأمر بواجبات في الشرع على بعضهم دون بعض منهم لم يدركه الأمر ، فإن ما وجب على المؤمنين بعد نزول القرآن كله وإكمال الدين لم يجب على المؤمنين في أول الأمر ، فلم تجب الصلاة مثلا من أول الأمر بل إنما فرضت قبيل الهجرة ليلة الإسراء والمعراج ، فمن مات قبل وجوب الصلاة فلم يصل يكون مؤمنا قد أدى ما وجب عليه من الإيمان (١) ، وتحريم الخمر - مثلا - لم يكن من أول الأمر فمن مات قبل تحريمها وكان شاربا

---

(١) انظر صحيح البخاري مع الفتح ٤٥٨/١ ومابعدها .

للخمر لم يكن عاصيا ناقص الإيمان بذلك لأنه لم يرتكب منهيا عنه حين شربها، وعلى هذا فقس، يقول أبوعبيده (أ) "أقام النبى صلى الله عليه وسلم بمكة بعد النبوة عشر سنين أو بضع عشر سنة يدعو الى هذه الشهادة خاصة، وليس الإيمان المفترض على العباد يومئذ سواها (١)، فمن أجاب إليها كان مؤمنا لايلزمه اسم فى الدين غيره، وليس يجب عليهم زكاة ولاصيام ولاغير ذلك من شرائع الدين" قال :" فلما أثاب الناس الى الاسلام وحسنت فيه رغبتهم زادهم الله فى إيمانهم أن صرف الصلاة الى الكعبة بعد أن كانت الى بيت المقدس" قال :" ثم خاطبهم وهم بالمدينة باسم الإيمان المتقدم لهم فى كل ما أمرهم به أو نهاهم عنه" (٢) وذكر آيات فى التشريع أمرا ونهيا مصدرة بـ " يا أيها الذين آمنوا "

---

(١) كان هذا حتى وجبت الصلاة قبل الهجرة.

(٢) الايمان لأبى عبيد ٥٤ ـ ٥٥.

(أ) هو القاسم بن سلام الهروى الأزدى، هو من علماء الاسلام فى زمانه، ومن كبار علماء الحديث والأدب والفقه وله فيها مصنفات، ت ٢٢٤هـ انظر: تاريخ بغداد ٤٠٣/١٢، وتهذيب التهذيب ٣١٥/٧.

فماوجب على من أدرك الأمر أكمل مماوجب على من مات قبل أن يدركه فهو تفاضل من جهة مايجب على المؤمن.

٢- التفاضل بين المؤمنين من جهة معرفة ماوجب وتبلغه، يقول ابن تيمية رحمه الله: " لايجب على كل عبد من الايمان المفصل مما أخبر به الرسول مايجب على من بلغه غيره، فمن عرف القرآن والسنن ومعانيها لزمه من الإيمان المفصل بذلك مالايلزم غيره، ولو آمن الرجل بالله وبالرسول باطنا وظاهرا ثم مات قبل أن يعرف شرائع الدين، مات مؤمنا بماوجب عليه من الايمان، وليس ما وجب عليه ولاماوقع منه مثل ايمان من عرف الشرائع فآمن بها وعمل بها، بل ايمان هذا أكمل وجوبا ووقوعا فإن ماوجب عليه من الايمان أكمل، وماوقع منه أكمل "(١)

ويقول رحمه الله: " الانسان قد يكون مكذبا منكرا لأمور لايعلم أن الرسول أخبربها وأمربها ولوعلم ذلك لم يكذب ولم ينكر بل قلبه جازم بأنه لايخبر الابصدق ولايأمر الابحق، ثم يسمع الآية أوالحديث أويتدبر ذلك أويفسر له معناه أويظهر له ذلك بوجه من الوجوه، فيصدق بماكان مكذبا به ويعرف ماكان منكرا وهذا تصديق جديد، وايمان جديد ازداد به ايمانه، ولم يكن قبل ذلك كافرا بل جاهلا "(٢)

---

(١) الايمان لابن تيمية ص ٢١٩.

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٤.

فمن بلغه الأمر المشروع وعلمه فأصبح مكلفا به أكمل ممن لم يبلغه ولم يعلمه فلم يكلف به .

٣- تفاضلهم من جهة ثبوت التشريع لبعضهم مع قيام المانع له للآخر ، وهذا يعم الحائض والنفساء فى تركهم الصوم والصلاة مع من لم يكن كذلك ، والمعذور بترك الجمعة والجماعات مع من لاعذر له فغير المعذور تجب عليه والمعذور سقط عنه الوجوب بالعذر ، ومن كان عنده ماتجب عليه فيه الزكاة مع من لم يكن كذلك فذاك واجبة عليه الزكاة وهذا غير واجبة عليه ، وغير المستطيع للحج مع من يستطيعه وقد قيد الله وجوب الحج بالاستطاعة .

فمن ثبت فى حقه تشريع يكون ما شرع له من الايمان أكمل ممن لم يثبت فى حقه ذلك التشريع .

وأما الوجه الثانى وهو تفاضل المؤمنين من جهة قيامهم بما شرع لهم ، فإنه يضم وجوها عدة كذلك تقدم فى المبحث الثانى ذكر عدد منها .

المبحث الخامس
تفاضل قرون أمة محمد صلى الله عليه وسلم

لقد ثبت في الصحيحين – كما سبق ذكره – تفضيل النبي صلى الله عليه وسلم لقرنه ثم قرنين بعده على سائر قرون الأمة فهي ثلاثة قرون مفضلة جزما وورد في الصحيحين الشك في القرن الرابع .

وذكر ابن تيمية رحمه الله أن ابن حبان ونحوه من علماء أهل الحديث جزموا بالقرن الرابع فتكون القرون المفضلة أربعة ، وذكر أن هذه الزيادة ثابتة في الصحيح .[1]

أما حديث الثلاثة ففي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته "[2] فذكر صلى الله عليه وسلم قرنين بعد قرنه .

ومن حديث عائشة عند مسلم قالت : سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم : أي الناس خير ؟ قال : "القرن الذي أنا فيه ، ثم الثاني ثم الثالث"[3]

---

(١) الفتاوى (٢٠/٢٩٥) .

(٢) سبق ذكر موضعه من الصحيحين .

(٣) صحيح مسلم (٤/١٩٦٥) .

وأما الشك في الرابع ففي الصحيحين عن عمران بن حصين أنه قال :
قال النبي صلى الله عليه وسلم : " خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم " قال عمران : لا أدري أذكر النبي صلى الله عليه وسلم بعد قرنين أو ثلاثة ".[1]

وكذا جاء الشك في الرابع في رواية أبي هريرة عند مسلم[2] وفي رواية عبد الله أيضا عند مسلم .[3]

وقد جاء في بعض روايات حديث : " خير الناس قرني " ، عن النعمان بن بشير اثبات الرابع من غير شك ولفظه : " خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ".[4]

---

(١) البخاري مع الفتح (٥/٢٥٨ — ٢٥٩ و ٧/٣ ، و ١١/٢٤٤ و ٥٨٠) وصحيح مسلم (٤/١٩٦٤).

(٢) صحيح مسلم (٤/١٩٦٣ — ١٩٦٤) .

(٣) صحيح مسلم (٤/١٩٦٣).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٤/٢٦٧) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/١٩) : " رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط وفي طرقهم عاصم بن بهدلة وهو حسن الحديث وبقية رجال أحمد ورجال الصحيح ".

بل وورد اثبات القرن الخامس أيضا في رواية عن بريدة الأسلمي ولفظه : " خير أمتي القرن الذى بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ".[1]

وأما ثبوت زيادة القرن الرابع في الصحيح الذى عناه ابن تيمية فليس في هذا الحديث بل في حديث أبي سعيد الخدرى في الصحيحين : " يأتي زمان يغزو فئام من الناس فيقال : فيكم من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقال : نعم ، فيفتح لهم ، ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم : فيكم من رأى من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون : نعم ، فيفتح لهم ، ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم : هل فيكم من رأى من صحب من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون : نعم ، فيفتح لهم "[2] هكذا المتفق عليه ثلاثة فئام ، وزاد مسلم في رواية عن أبي سعيد أيضا : " ثم يكون البعث الرابع فيقال : انظروا هل ترون فيهم أحدا رأى من رأى أحدا رأى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فيوجد الرجل ، فيفتح لهم ".[3]

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/٣٥٧) وأبو يعلى كما في المجمع (١٠/١٩) وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح .

(٢) سبق بيان موضعه في الصحيحين .

(٣) صحيح مسلم (٤/١٩٦٢).

وفي حديث جابر الذى أوله : " ان الله اختار أصحابى على العالمين " جاء في آخره : " واختار أمتى أربع قرون القرن الأول والثانى والثالث والرابع ".[1]

وأما القرون بعد هذه المفضلة ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : " لا يأتى زمان الا والذى بعده أشر منه حتى تلقوا ربكم ".[2] ولكنه قال صلى الله عليه وسلم : " لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك ".[3]

---

(١) سبق تخريجه وهو من زوائد البزار وفى رجاله اختلاف.

(٢) سبق تخريجه وهو فى البخارى .

(٣) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٦/ ٦٣٢) وصحيح مسلم (٣/ ١٥٢٤).

المبحث السادس

تفضيل أمة محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأمم

أمة محمد صلى الله عليه وسلم هي أفضل الأمم وأكملها ايمانا بنص كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولا غرو فهي حظ النبي صلى الله عليه وسلم من الأمم ولا يكون حظه صلى الله عليه وسلم وهو أفضل الخلق وسيد الأنبياء والمرسلين الا أفضل الحظ ، وهو صلى الله عليه وسلم حظهم من الأنبياء ولا يكون من حظه من الأنبياء أفضلهم وسيدهم الا أفضل الأمم ، روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " انكم حظي من الأمم وأنا حظكم من الأنبياء "[1].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/٤٧١ و ٤/٢٦٦) والطبراني كما في المجمع (١/١٧٣ — ١٧٤) وفيه رجل ضعيف واتهم بالكذب وهو جابر الجعفي ، وأخرجه البزار من طريق آخر — كشف الاستار (٣/٣٢١) قال الهيثمي في المجمع (١٠/٦٨) في حديث البزار : " رجاله رجال الصحيح غير أبي حبيبة الطائي وقد صحح له الترمذي حديثا وذكره ابن حبان في الثقات " .

وبسند البزار أخرجه ابن حبان في صحيحه — الاحسان (٩/١٧٢) — والحديث صحيح المعنى .

قال ابن كثير : " وانما حازت هذه الأمة قصب السبق الى الخيرات بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه فانه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبي قبله ولا رسول من الرسل ، فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم القليل منه مالا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه ".[1] قال تعالى : ((هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج)) (الحج - ٧٨) . قال ابن كثير في تفسيرها : " أي يا هذه الأمة الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول وأكمل شرع ".[2]

وقال الله تعالى : ((كنتم خير أمة أخرجت للناس)) (آل عمران - ١١٠) وهذا نص في أن هذه الأمة خير الأمم .

وقال تعالى : ((وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس)) (البقرة - ١٤٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : " أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله ".[3]

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٩٢) .

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣٧) .

(٣) سبق تخريجه ، وإسناده حسن .

وقال صلى الله عليه وسلم : " بعثت في خير قرون بني آدم قرنـــا فقرنا حتى كنت في القرن الذي كنت فيه ".[1]

وقال صلى الله عليه وسلم : " انما أجلكم في أجل من خلا من الأمم ما بين صلاة العصر الى مغرب الشمس ، وانما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالا فقال : من يعمل لي الى نصف النهار على قـــيراط قيراط ؟ فعملت اليهود الى نصف النهار على قيراط قيراط ، ثم قـال : من يعمل لي من نصف النهار الى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ فعملت النصارى من نصف النهار الى صلاة العصر على قيراط قيراط ، ثم قال : من يعمل لي من صلاة العصر الى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر الى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين ألا لكم الأجر مرتين ، فغضبت اليهود والنصارى فقالوا : نحن أكثر عمـلا وأقل عطاء ، قال الله : هل ظلمتكم من حقكم شيئا ؟ قالوا : لا ، قال : فانه فضلي أعطيه من شئت "[2] ففي هذا الحديث من تفضيل أمة محمـــد صلى الله عليه وسلم على الأمم عامة وعلى أهل الكتاب خاصة مالا خفـــاء فيـــه .

---

(١) سبق تخريجه وهو في البخاري .
(٢) أخرجه البخاري ، الصحيح مع الفتح (٦/ ٤٩٥ – ٤٩٦) .

وقال صلى الله عليه وسلم : " أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا فكان لليهود يوم السبت وكان للنصارى يوم الأحد فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة ، نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة ، المقضي لهم قبل الخلائق ".(١)

فهذا اخبار بتفضيل أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأن الأمم تبع لهم وأنهم أول الخلق في القضاء يوم القيامة .

وقال صلى الله عليه وسلم : " نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ".(٢)

وقال صلى الله عليه وسلم : " يضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ".(٣) فأى أمة تفضل أول الأمم تجوز على الصراط وأول أمة تدخل الجنة بل وأى أمة أفضل من الأمة التي أقامها الله شاهدة للأنبياء على أممهم .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/٥٨٦) .
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/٥٨٥ – ٥٨٦) .
(٣) متفق عليه ، البخاري مع الفتح (٢/٢٩٢ – ٢٩٣) ومسلم (١/١٦٤) .

قال صلى الله عليه وسلم : " يجئ نوح وأمته فيقول الله تعالى : هل بلغت ؟ فيقول : نعم أى رب ، فيقول لأمته : هل بلغكم ؟فيقولون لا ما جاءنا من نبى ، فيقول لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد صلى الله عليه وسلم وأمته فنشهد أنه قد بلغ ، وهو قوله جل ذكره : ((وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس)) والوسط العدل ".[1]

وقال صلى الله عليه وسلم : " ترد على أمتي الحوض وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل ابل الرجل عن ابله " قالوا : يانبى الله أتعرفنا ؟ قال : نعم ، لكم سيما ليست لأحد غيركم ، تردون على غرا محجلين من آثار الوضوء ".[2]

ففى هذا من خصائص هذه الأمة ما تفضل به على سائر الأمم .

ولقد خص الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم بخصائص فى الدنيا لم تشاركها فيها أمة غيرها فسهل لها الدين ولم يجعل عليها فيه من حرج ووضع عنها الاصر والأغلال التى كانت على من قبلها من الأمم ، أحل لها الغنائم ولم تحل لأحد قبلها ، وجعل لها الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل

---

(١) اخرجه البخارى (٦/ ٣٧١) .

(٢) اخرجه مسلم (١/ ٢١٧) .

أدركته الصلاة صلى حيث كان .

وقد تقدم ذكر دلائل هذه الخصائص وغيرها .

وهذه النصوص ــ وغيرها ــ ناطقة بتفضيل أمة محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأمم .

وأما قوله سبحانه : ((يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين)) (البقرة ــ ٤٧) فان المقصود به عالمي زمانهم .[١]

---

(١) انظر : تفسير الطبري (١/٢٠٨ ــ ٢٠٩) وزاد المسير (١/٧٦) والدر المنثور (١/٦٨) .

المبحث السابع
ما وقع من الباطل في هذا الباب

لقد اشتهر ما أحدثته طوائف المرجئة من الجهمية والكرامية ومن نحا نحوهم في هذا الباب من الباطل المناقض لادلة الكتاب والسنة ، وشاركهم هذا الإحداث في الدين الخوارج والمعتزلة ومن نحا نحوهم فأطبقوا على أن الايمان لا يزيد ولا ينقص وأنه شيء واحد لا يتعدد وأن أهله فيه سواء لا تفاضل بينهم برهم وفاجرهم في الايمان سواء كل مؤمن كامل الايمان ، الا أنهم تباينوا في حكم الكبيرة اذا وقعت من المؤمن أتضر ايمانه أم لا ؟

فذهبت المرجئة الى أنه لا تضر مع الايمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة .

وذهبت المعتزلة والخوارج الى أن الكبيرة تخرج من الملة فور وقوعها عند الخوارج فمن عصى عند الخوارج كافر جزما ، والمعتزلة زعمت أن الكبيرة ترفع اسم الايمان عن الفاسق ولكنها لا توجب له الكفر حتى يموت من غير توبة منها . فقالوا : الفاسق في منزلة بين منزلتين لا هو مؤمن ولا هو كافر حتى ينظر على أي شيء يموت فان مات تائبا من الذنب رجع الى الايمان وان مات غير تائب فهو كافر جزما ، فالفاسق كافر

عند الخوارج بارتكاب الذنب وهو كافر عند المعتزلة بالموت على عدم التوبة من الذنب ، أما أن توجب المعصية نقص الايمان فلا ، وأن يكون الفاسق مؤمنا مفضولا وغير الفاسق مؤمنا فاضلا فلا ،[1] وليس لقول ناقض الكتاب والسنة واجماع أهل الاجماع الا الرد .

---

(١) انظر مقالة طوائف المرجئة المذكورة في : مقالات الاسلاميين (ص ١٣٢ و ١٣٣ و ١٣٤ و ١٣٦ و ١٣٧ و ١٤٧) ، والفرق بين الفرق (٢٠٢ و ٢٠٣ و ٢٠٧) والتبصير في الدين (٩٧) والملل والنحل ـ بهامش الفصل ـ (١/١٨٦ و ١٨٧ و ١٨٨ و ١٩٠ و ١٩١ و ١٩٣) واعتقادات فرق المسلمين والمشركين (٧٠ ـ ٧١) وخطط المقريزي (٢ / ٣٤٩ ـ ٣٥٠) .

وانظر : مقالة المعتزلة المذكورة في : شرح الأصول الخمسة (ص ٦٩٧ ـ ٧٠٨) .

وانظر : مقالة الخوارج المذكورة ـ علما بأن الخوارج أجمعت على تكفير مرتكبي الذنوب الا النجدات منهم فلا يكفرون أصحاب الذنوب من موافقيهم ـ : مقالات الاسلاميين (٨٦) والفرق بين الفرق (٧٣) والتبصير في الدين (٤٥) واعتقادات فرق المسلمين والمشركين (٤٦) .

القسم الثاني

مباحث متفرقة في المفاضلة

المبحث الأول

جواز امامة المفضول

تولية المفضول في سائر الولايات والامارات مع وجود الفاضل جائزة ، اذا كان المفضول أصلح للتولية كأن يكون الفاضل ضعيفا والمفضول قوياً ، أو يكون المفضول حسن السياسة والتدبير والفاضل خلاف ذلك ، وتولية الأنفع للمسلمين وان كان مفضولا هو الأولى ، يقول ابن القيم : " وبهذا مضت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه كان يولي الأنفع للمسلمين على من هو أفضل منه ، كما ولى خالد بن الوليد من حين أسلم على حروبه لنكايته في العدو ، وقدمه على بعض السابقين من المهاجرين والأنصار مثل عبد الرحمن بن عوف وسالم مولى أبي حذيفة وعبد الله بن عمر ، وهؤلاء ممن أنفق من قبل الفتح وقاتلوا وهم أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وخالد كان ممن أنفق بعد الفتح وقاتل ، فانه أسلم بعد صلح الحديبية هو وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة الحجبي ، ثم انه فعل مع بني جذيمة ما تبرأ النبي صلى الله عليه وسلم منه حين رفع يديه الى السماء وقال :

" اللهم اني أبرأ اليك مما صنع خالد "[1] ومع هذا فلم يعزله ، وكان أبو ذر من أسبق السابقين وقال له : " يا أبا ذر انى أراك ضعيفا وانى أحب لك ما أحب لنفسى ، لا تأمّرنّ على اثنين ولا تولّينّ مال يتيم "[2]

وأمّر عمرو بن العاص فى غزوة ذات السلاسل لأنه كان يقصد أخواله بنى عذرة ، فعلم أنهم يطيعونه مالا يطيعون غيره للقرابة وأيضا فلحسن سياسة عمرو وخبرته وذكائه ودهائه فانه كان من أدهى العرب ودهاة العرب أربعة هو أحدهم ، ثم أردفه بأبى عبيدة وقال : " تطاوعا ولا تختلفا " فلما تنازعا فيمن يصلى سلم أبو عبيدة لعمرو فكان يصلى بالطائفتين وفيهم أبو بكر.[3]

وأمّر أسامة بن زيد مكان أبيه لأنه ــ مع كونه خليقا للامارة ــ أحرص على طلب ثأر أبيه من غيره ، وقدم أباه زيدا فى الولاية على جعفر ابن عمه مع أنه مولى ولكنه من أسبق الناس اسلاما قبل جعفر ، ولم يلتفت الى طعن الناس فى امارة أسامة وزيد وقال : " ان تطعنوا فى امارة أسامة فقد طعنتم فى امارة أبيه من قبل ، وأيم الله ان كان خليقا للامارة ومن أحب الناس الي[4]

---

(١) أخرجه البخارى ، الصحيح مع الفتح (٥٧/٨) .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٥٨/٣) .

(٣) انظر هذا الحديث فى المسند (١٩٦/١) .

(٤) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٨٦/٧) وصحيح مسلم (١٨٨٤/٤) .

قال ابن القيم : " والمقصود أن هديه صلى الله عليه وسلم تولية الأنفع للمسلمين وان كان غيره أفضل منه "[1]

قال ابن تيمية : " ولذلك كان — (يعني النبي صلى الله عليه وسلم) — يستعمل الرجل لمصلحة مع أنه قد كان يكون مع الأمير من هو أفضل منه في العلم والايمان " . قال : " وهكذا أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم رضى الله عنه مازال يستعمل خالدا في حرب الردة وفي فتوح العراق والشام وبدت منه هفوات كان له فيها تأويل وقد ذكر له عنه أنه كان له فيها هوى فلم يعزله من أجلها بل عتبه عليها لرجحان المصلحة على المفسدة في بقائه ".[2]

وقال ابن حجر : " والذى يظهر من سيرة عمر في أمرائه الذين كان يؤمرهم في البلاد أنه كان لا يراعي الأفضل في الدين فقط بل يضم اليه مزيد المعرفة بالسياسة مع اجتناب ما يخالف الشرع منها ، فلأجل هذا استخلف معاوية والمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص مع وجود من هو أفضل من كل منهم في أمر الدين والعلم كأبي الدرداء في الشام وابن مسعود في الكوفة ".[3]

---

(١) اعلام الموقعين (١/١٠٦ — ١٠٧) وانظر السياسة الشرعية (٢٢ — ٢٣) .

(٢) السياسة الشرعية (٢٣) .

(٣) الفتح (١٣/١٩٨ — ١٩٩) .

وقال ابن تيمية : " سئل الامام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو وأحدهما قوي فاجر والآخر صالح ضعيف مع أيهما يغزى ؟ فقال أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه ، وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين فيغزى مع القوي الفاجر ".(1)

وقال : " سئل بعض العلماء : اذا لم يوجد من يُولّى القضاء الا عالم فاسق أو جاهل ديّن فأيهم يقدم ؟ فقال : ان كانت الحاجة الى الديّن أكثر لغلبة الفساد قُدّم الديّن ، وان كانت الحاجة الى العالم أكثر لخفاء الحكومات قدم العالم ".(2)

وقال ابن حجر الهيتمي : " اعلم أنه يجوز نصب المفضول مع وجود من هو أفضل منه لاجماع العلماء بعد الخلفاء الراشدين على امامة بعض من قريش مع وجود أفضل منهم ولأن عمر رضي الله عنه جعل الخلافة بين ستة من العشرة منهم عثمان وعلي رضي الله تعالى عنهما وهما أفضل أهل زمانهما بعد عمر فلو تعين الأفضل لعين عمر عثمان فدل عدم تعيينه أنه يجوز نصب غير عثمان وعلي مع وجودهما ".(3)

---

(١) السياسة الشرعية (٢١).
(٢) السياسة الشرعية (٢٥ — ٢٦).
(٣) الصواعق المحرقة (ص ٩).

ولقد قال عمر رضى الله عنه لما جعل الأمر الى الستة : " فان أصابت الامرة سعدا فهو ذاك ".[1] هذا مع علمه بأن عثمان وعلي أفضل من سعد ، ولقد اجتمعت الأنصار بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم الى سعد بن عبادة فى السقيفة ليولُّوه خليفة مع علمهم بأن أبو بكر وعمر وغيرهما أفضل منه ، وقال أبو بكر يوم السقيفة : " بايعوا عمر أو أبا عبيدة "[2] وهو أفضل منهما بلا شك ، ففي هذا دليل على أن الصحابة كانوا يرون جواز امامة المفضول ولو كانوا يرون عدم جوازه لكان فيما ذكر عنهم تساهل وتضييع لحدود الله حاشاهم من ذلك رضوان الله عليهم .

ويتأكد جواز امامة المفضول اذا كان أقدر من الفاضل على القيام بمصالح المسلمين وأعرف بتدبير الملك كما تقدم ، وكذا اذا كان يترتب على اقامة الفاضل مفسدة شرعية راجحة مثل وقوع الفتن وتضييع الحقوق .

ولقد ذكر ابن تيمية رحمه الله أنه لا يشترط في الولاية من العلم والعدالة أكثر مما يشترط في الشهادة .[3]

هذا ، وقد خالف في هذه المسألة جماعة من أهل الكلام والضلال ،

---

(١) البخارى مع الفتح (٧ / ٧١) .

(٢) انظر : خبر يوم السقيفة فى البخارى مع الفتح (٧ / ١٩ـ٢٠) .

(٣) منهاج السنة (٣ / ٣٩٨ ـ ٣٩٩) .

قال ابن حزم : " ذهبت طوائف من الخوارج وطوائف من المعتزلة وطوائف من المرجئة منهم محمد بن الطيب الباقلاني ومن اتبعه ، وجميع الرافضة من الشيعة الى أنه لا يجوز امامة من يوجد في الناس أفضل منه ".[1]

وما نسبه ابن حزم للباقلاني صحيح فانه قال بوجوب أن يكون الامام الأفضل في الأمة الا أنه استثنى فقال : " الا أن يمنع عارض من اقامة الأفضل فيسوغ نصب المفضول "[2] وبين هذا العارض الذى قصده وهو خوف الفتنة والتمارج واختلاف السيوف .[3]

قال امام الحرمين : " لا معتصم لمن يمنع امامة المفضول الا أخبار آحاد في غير الامامة التى نتكلم فيها ، كقوله صلى الله عليه وسلم :" يؤمكم أقرؤكم "[4] ولا يفضى هذا وأمثاله الى القطع ، كيف ولو تقدم المفضول في امامة الصلاة لصحة الامامة وان ترك الأولى فهذا قولنا في امامة المفضول"[5]

---

(١) الفصل (٤/١٦٣) وانظر : أصول الدين (٢٩٣) .

(٢) التمهيد (٤٧١) .

(٣) انظر : التمهيد (٤٧٥) .

(٤) أخرج مسلم من حديث أبى مسعود الأنصارى " يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله " صحيح مسلم (١/٤٦٥) .

(٥) الارشاد (٣٦٣) .

وقال ابن حزم : " ما نعلم لمن قال ان الامامة لا تجوز الا لأفضل من يوجد حجة أصلا لا من قرآن ولا من سنة ولا من اجماع ولا من صحة عقل ولا من قياس ولا قول صاحب وما كان هكذا فهو أحق قول بالاطراح ".[1]

---

(١) الفصل (٤/١٦٣).

المبحث الثاني
تفاضل الملائكة

الملائكة عباد مكرمون هم الملأ الأعلى الذين عند الله لا يستكبرون من عبادته يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون وهم خلق كريم خلقوا من نور وهم جنود الله سخرهم الله في تسيير أمور الكون وفي القيام بعبادته وتعظيمه ، منهم الموكل بالقطر والموكل بالجبال ، والموكل بالنطفة في الرحم ، والموكل بقبض الأرواح ، والموكل بفتنة القبر ، ومنهم خزنة جهنم ، وما منهم الا له مقام معلوم وهم خلق كثير لا يحصي عددهم الا الله ((وما يعلم جنود ربك الا هو)) لا يعرف من جميع المخلوقات ما يتجدد من جنسه في كل يوم سبعون ألفا غير ما ثبت في الملائكة في قوله صلى الله عليه وسلم في حديث المعراج : " فرفع لي البيت المعمور فسألت جبريل ، فقال : هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك اذا خرجوا لم يعودوا اليه آخر ما عليهم "(1)

والملائكة متفاضلون بعضهم أفضل من بعض ، وأفضلهم المقربون الذين قال الله فيهم : ((لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون)) (النساء – ١٧٢) .

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/٣٠٢) وصحيح مسلم (١/١٤٦) .

قال الرازي : " قوله (ولا الملائكة المقربون) يدل على أن طبقات الملائكة مختلفة في الدرجة والفضيلة فالأكابر منهم مثل جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل وحملة العرش "[1] والملائكة المقربون هم المسمون بالكروبيين .[2]

قال ابن الأثير : " وفي حديث أبي العالية : (الكروبيون سادة الملائكة) هم المقربون ".[3]

قال ابن كثير وقد ذكر أقسام الملائكة : " ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش وهم أشرف الملائكة مع حملة العرش ، وهم الملائكة المقربون كما قال تعالى : ((لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون)) .[4]

وأفضل المقربين رؤساء الملائكة الثلاثة الذين كان

---

(١) تفسير الرازي (١١/١١٩) .

(٢) انظر الفتاوى (٤/٣٥٧) والبداية والنهاية (١/٤٩) ومعارج القبول (٢/٨٧) .

(٣) النهاية (٤/١٦١) ولم أعثر على هذا الحديث في شيء من كتب الحديث التي وقفت عليها .

(٤) البداية والنهاية (١/٤٩) .

النبى صلى الله عليه وسلم يذكرهم فى دعائه الذى يفتتح به صلاته اذا قام من الليل فيقول : " اللهم رب جبرائيل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والأرض . . ." [1] الحديث .

قال ابن القيم فى هذا الحديث : " فذكر هؤلاء الثلاثة من الملائكة لكمال اختصاصهم واصطفائهم وقربهم من الله وكم من ملك غيرهم فى السماوات فلم يسم الا هؤلاء الثلاثة ، فجبريل صاحب الوحى الذى به حياة القلوب والأرواح ، وميكائيل صاحب القطر الذى به حياة الأرض والحيوان والنبات واسرافيل صاحب الصور الذى اذا نفخ فيه أحيت نفخته باذن الله الأموات وأخرجتهم من قبورهم " . [2] وقد خص الله جبريل وميكائيل فى كتابه بالذكر وعطف ذكرهما على ذكر الملائكة فقال : ((من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين)) (البقرة — ٩٨) قيل انما خصهما بالذكر تشريفا لهما . [3]

وأفضل الملائكة ومقدمهم جبريل عليه السلام ، قال الله عز وجل فيه ((قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله)) (البقرة —٩٧)

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٣٥٤) .
(٢) زاد المعاد (١/ ٤٣) .
(٣) انظر : تفسير القرطبى (٢/ ٣٦) .

فشرفه الله عز وجل بذكره وذم معاديه، وذكر سبحانه دليل فضله وتشريفه وهو وظيفته الشريفة الكريمة : تبليغ الوحي للرسل من الله، فهو الواسطة بين الله ورسله ، وقد سماه الله في كتابه بأسماء شريفة ووصفه بأوصاف كريمة ، قال سبحانه : ((قل نزله روح القدس من ربك)) (النحل ـ ١٠٢) فسماه روح القدس ، وقال : ((نزل به الروح الأمين على قلبك)) (الشعراء-١٩٣) فسماه الروح الأمين ، وقال سبحانه : ((انه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين)) (التكوير) أى ان القرآن نزل به جبريل ووصف سبحانه جبريل بصفات كريمة كلها تقتضى تفضيله على سائر الملائكة فهو رسول كريم وذو قوة ، وهو مكين المنزلة عند ذى العرش ومطاع في السموات تطيعه الملائكة ، وأمين على وحي الله ورسالاته [1] ولقد خصه الله بالذكر في مواضع من كتابه ، قال سبحانه : ((فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين)) (التحريم) فذكره سبحانه بعد ذكر نفسه ولم يذكر سواه من الملائكة ، وقال سبحانه : ((تعرج الملائكة والروح اليه)) (المعارج ـ ٤) وقال : ((يوم يقوم الروح والملائكة صفا)) (النبأ ـ ٣٨) وقال : ((تنزل الملائكة والروح فيها)) (القدر) ففى هذه الآيات

---

(١) انظر : زاد المسير (٧/ ٤٣).

تخصيص من الله له في الذكر مع ذكر الملائكة ، وقال صلى الله عليه وسلم :

" ان الله تبارك وتعالى اذا أحب عبدا نادى جبريل : ان الله قد أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ثم ينادى جبريل في السماء ان الله قد أحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ". [1] وفي هذا الحديث مالا يخفى من بيان فضل جبريل عليه السلام وأنه ليس فقط مبلغ كلام الله الى الرسل بل والى الملائكة أيضا .

ومن أفضل الملائكة أهل بدر منهم كما في الحديث أن جبريل سأل النبي صلى الله عليه وسلم : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : من أفضل المسلمين ــ أو كلمة نحوها ــ قال : وكذلك من شهد بدرا من الملائكة ". [2]

---

(١) البخارى مع الفتح (٤٦١/١٣) ومسلم (٢٠٣٠/٤) .

(٢) سبق تخريجه وهو في البخارى .

المبحث الثالث

التفاضل بين الملائكة والبشر

هذه مسألة كثر الكلام فيها في كتب المتأخرين من أهل العلم أخذا وردا ، وطال طولا أخرجها عن فائدتها وحدها ، وخلاصة ما قيل فيها أن الناس فيها على مذاهب ثلاثة :[1]

الأول : تفضيل الملائكة على البشر مطلقا ، واليه ذهبت المعتزلة وبعض الأشعرية وابن حزم ومال اليه بعض أهل السنة وبعض الصوفية واستدلوا بأدلة من كتاب الله وسنة رسوله لها وجهها في الدلالة على قولهم كقوله سبحانه في بني آدم ((وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا)) (الاسراء — ٧٠) فقال على كثير ولم يقل على كل ومن عساه أن يكون الخارج من هذا الكثير الا الملائكة ، وبقوله سبحانه : ((لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون)) (النساء — ١٧٢) ومثل هذا دال لغة على أن المعطوف أفضل من المعطوف عليه ، وبقوله سبحانه :

---

(١) انظر في هذه المسألة : مقالات الاسلاميين (٤٨ و ٢٢٦ و ٤٣٩) ، وشرح أصول أهل السنة (٧/ ٢٣٥) والفصل (٥/ ٢٠) ومابعدها المحلى (١/ ١٣) وأصول الدين (١٦٦) والمواقف (٣٦٧) وفتح الباري (١٣/ ٣٨٦ — ٣٨٨) وشرح الطحاوية (٢٧٧) ولوامع الأنوار البهية (٢/ ٣٩٨) والمواهب اللدنية (٢/ ٤٤) .

((قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم انى ملك))
(الأنعام ـ ٥٠) والمعنى عندهم أني لا أدعى فوق منزلتى ، ويقوله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله تعالى : ((أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه اذا ذكرنى ، فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه))[1] وهو نص فى الأفضلية)وهى أدلة على ما ترى من الدلالة،الا أن المخالفين ردوا على الاستدلال بها ورد هؤلاء على ردودهم .

الثانى : تفضيل الأنبياء وصالحى البشر على الملائكة : وهو مذهب جمهور أهل السنة والجماعة وكذا جمهور أصحاب الأشعرى واستدلوا بأدلة ظاهرة الدلالة على قولهم ، كقوله سبحانه : ((واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم)) ، والفاضل لا يسجد للمفضول ، وقوله سبحانه :
((ولقد اخترناهم على علم على العالمين)) (الدخان ـ ٣٢) وقوله :
((ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين))
(آل عمران ـ ٣٣) هذه فى الأنبياء ، أما فى صالح البشر فكقوله سبحانه : ((ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية))
(البينة ـ ٧) وهى أدلة فى القوة على ما ترى ، الا أن المخالفين

---

(١) اخرجه الشيخان ، البخارى مع الفتح (١٣ / ٣٨٤) ومسلم (٤ /٢٠٦١) .

ردوا على الاستدلال بها وعلى الرد رد ، ورأى قوم أن الأدلة متكافئة فكان قول ثالث وهو التوقف والسكوت من التفضيل . وانا ان ذهبنا نتتبع الأدلة والردود ورد الردود لخرج بنا الموضوع من حده وطال طولا لا نستطيع الوقوف عند حد له . وهي مسألة — كما ذكرت — كثر فيها الاختلاف وتشعبت فيها الاستدلالات وتشابكت وعظم فيها الجدال حتى خرج بها بعضهم مخرج المنافرة والمفاخرة فأخذ يقول : منا الانبياء ومنا الأولياء ، فرُدَّ عليه بأن للملائكة أن تقول : أليس منكم فرعون وهامان ؟ أليس منكم من ادعى الربوبية ؟ (1) وأساء بعضهم الأدب فقال : كان الملك خادما للنبي صلى الله عليه وسلم أو أن بعض الملائكة خدموا بني آدم . (2)

وهذه المسألة قد قال فيها ابن تيمية رحمه الله : " المسألة على هذا الوجه لست أعلم فيها مقالة سابقة مفسرة ، وربما ناظر بعض الناس على تفضيل الملك ، وبعضهم على تفضيل البشر ، وربما اشتبهت هذه المسألة بمسألة التفضيل بين الصالح وغيره ". (3)

---

(1) انظر : طبقات الحنابلة (٢٠٧/٤) .

(2) انظر : شرح الطحاويه (ص ٢٧٩) .

(3) الفتاوى (٣٥٤/٤) .

وقال ابن كثير : " أكثر ما توجد هذه المسألة في كتب المتكلمين والخلاف فيها مع المعتزلة ومن وافقهم " قال : " أقدم كلام رأيته في هذه المسألة ما ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخه في ترجمة أمية بن سعيد بن العاص أنه حضر مجلسا لعمر بن عبد العزيز وعنده جماعة فقال عمر : ما أحد أكرم على الله من كريم بني آدم " . وذكر بقية الواقعة وفيها معارضة أحدهم بتفضيل الملائكة واستدلال كل .[1]

ولقد نزع جماعة من أهل العلم الى أن هذه من فضول المسائل ، وقال شارح الطحاوية : " وكنت ترددت في الكلام على هذه المسألة لقلة ثمرتها وأنها قريب مما لا يعني ومن حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه " .[2] وقال : " وحاصل الكلام أن هذه المسألة من فضول المسائل ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول " .[3]

---

(١) البداية والنهاية (١/ ٥٤) وانظر : الخبر الذى ذكره ابن كثير في تهذيب تاريخ دمشق (٣/ ١٣٦) .

(٢) شرح الطحاوية (ص ٢٧٨) .

(٣) شرح الطحاوية (ص ٢٨٨) .

ونقل عن تاج الدين الفزارى [أ] من كتاب له فى تفضيل البشر على الملك ما نصه : " اعلم أن هذه المسألة من بدع علم الكلام التى لم يتكلم فيها الصدر الأول من الأمة ولا من بعدهم من أعلام الأئمة ، ولا يتوقف عليها أصل من أصول العقائد ولا يتعلق بها من الامور الدينية كبير من المقاصد ، ولهذا خلا عنها طائفة من مصنفات هذا الشأن ، وامتنع من الكلام فيها جماعة من الأعيان ، وكل متكلم فيها من علماء الظاهر بعلمه لم يخل كلامه من ضعف واضطراب . [1]

ولم تكن المسألة عند السلف موضع نظر وأخذ ورد ولم تكن لهم بها عناية فائقة بحيث ينصبونها موضوعا للنظر والاستدلال ولم يقع بينهم فيها كلام وخلاف ، وقد رويت عن الصحابة أحاديث موقوفة ومرفوعة فيها ذكر

---

(١) شرح الطحاوية (ص ٢٧٩) .

(أ) هو : عبد الرحمن بن ابراهيم بن سباع الفزارى ، تاج الدين الفركاح فقيه شافعى ، قال ابن العماد فى ترجمته : قال الذهبى : فقيه الشام درس وناظر وصنف وانتهت اليه رياسة المذهب فى الدنيا كما انتهت الى ولده برهان الدين ، وكان من أذكياء العالم وممن بلغ رتبة الاجتهاد ومحاسنه كثيرة وهو أجل من ينبه عليه مثلى " توفى فى ٦٩٠ هـ .

انظر : طبقات السبكى (٥/ ٦٠) وشذرات الذهب (٥/ ٤١٣-٤١٤)

لهذه المسألة في بعضها تفضيل المؤمن على الملائكة وبعضها تفضيل المؤمن على بعض الملائكة وبعضها تفضيل بني آدم على الملائكة ولكنها أحاديث اما ضعيفة أو موضوعة مثل حديث : " المؤمن أكرم على الله عز وجل من بعض الملائكة "[1] وحديث : " ان الملائكة قالت : ياربنا أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نلهوا فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة فقال : لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان "،[2] ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٠٢) وهو من زوائد ابن ماجه قال فيه البوصيري في مصباح الزجاجة (٢/ ٢٨٨) : " هذا اسناد ضعيف لضعف يزيد بن أبي سفيان " قال فيه ابن حجر في التقريب (٢/ ٤٧٨) : " متروك " وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٨٢) : " رواه الطبراني في الأوسط وفيه أبو المهزم وهو متروك " ، وقد ذكر ابن تيمية الحديث في الفتاوى (٤/ ٣٦٥) بسند ابن ماجه بلفظ " المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده " فلا أدري أرواية هي أم خطأ في النقل . والله أعلم .

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (٢/ ٤٦٩) وفي سنده مجهول وآخر لا تعرف له ترجمة ، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٨٢) : " رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه ابراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي وهو كذاب متروك وفي سند الأوسط طلحة بن زيد وهو كذاب " .

وحديث : " ما من شيء أكرم على الله يوم القيامة من بني آدم قيل يارسول الله ولا الملائكة ؟ قال : ولا الملائكة ان الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر "[1] وكلها ضعيف وموضوع .

وقال ابن تيمية بعد ذكر بعض هذه الأحاديث : " وأقل ما في هذه الآثار أن السلف الأولين كانوا يتناقلون بينهم أن صالحي البشر أفضل من الملائكة من غير نكير منهم لذلك ، ولم يخالف أحد منهم في ذلك ، انما ظهر الخلاف بعد تشتت الأهواء بأهلها وتفرق الآراء فقد كان ذلك المستقر عندهم "[2] وقال : " قد كان السلف يحدثون الأحاديث المتضمنة فضل صالح البشر على الملائكة وتروى على رؤوس الناس ولو كان هذا منكرا لأنكروه فدل على اعتقادهم ذلك ".[3]

---

(١) قال الهيثمي في المجمع (١/٨٢) : " رواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الله بن تمام وهو ضعيف " وأخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٤/٤٥) وفيه عبد الله بن تمام . وقال ابن الجوزي : " هذا حديث لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم" انظر : العلل المتناهية (١/٣٠٤) .

(٢) الفتاوى (٤/٣٦٩ — ٣٧٠).

(٣) الفتاوى (٤/٣٧١).

وقد جاء عن الامام أحمد أنه كان يفضل صالحي المؤمنين على الملائكة ويخطئ من يفضل الملائكة على بني آدم .(1)

وقد فصل ابن تيمية في هذه المسألة تفصيلا طويلا قرر فيه مذهب أهل السنة تفضيل صالح البشر على الملائكة (2)، ونقل عنه ابن القيم :

" أنه سئل عن صالحي بني آدم والملائكة أيهما أفضل ، فأجاب بأن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية والملائكة أفضل باعتبار البداية ، فان الملائكة الآن في الرفيق الأعلى منزهين عما يلابسه بنو آدم مستغرقون في عبادة الرب ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة فيصير حال صالحي البشر أكمل من حال الملائكة"

قال : " وبهذا التفضيل يتبين سر التفضيل وتتفق أدلة الفريقين ويصالح كل منهم على حقه ".(3)

وانا اذا اعتمدنا ما قد تقرر في التمهيد أول هذا الفصل من أن مقياس التفاضل في الشرع العبودية وأن الأفضل هو الأكمل عبودية لله ظهر أن الأنبياء وصالح البشر أفضل من الملائكة لأنهم أكمل عبودية لله منهم

---

(1) طبقات الحنابلة (٢٧٩/٢ و ٣٠٦) .

(2) استغرق في الجزء الرابع من (ص ٣٥٠ الى ص ٣٩٢) .

(3) بدائع الفوائد (١٦٣/٣) .

فان عبادة من حقق العبادة مع امكان المعصية منه وقدرته عليها أكمل من عبادة من حققها مع عدم امكان المعصية منه ولا قدرة له عليها ، وبهذا المأخذ يكون للمسألة ثمرتها ويتعلق بها من الأمور الدينية كبير من المقاصد ذلك أن العبد اذا علم أن تحقيقه العبودية لله يرتفع به فى الفضل على منزلة الملائكة مع فضلهم وعلو منزلتهم ازداد ايمانا وقوي وازع التعبد منه ووقف على عظيم فضل التوحيد واستشعر ذلك استشعارا يزيده سعيا لتحقيق العبودية لله . والأولى ألا نفاضل بين الملائكة والبشر الا من هذا الوجه/ أما ان اتسع المقال وخرج عن حده هذا الى النظر فى حقيقة كل من النوعين فى خلقته ومكان معيشته ونحو ذلك وفي خصائص كل نوع التى لا يشاركه فيها النوع الآخر ، فهذه مفاضلة بين خصائص كل نوع وما ثبت لكل من الفضائل ، ولقد تقدم مرارا أن ثبوت فضيلة وخصيصة لشيء لا تستلزم تفضيله مطلقا وغاية ما نستطيع أن نقوله أن هذه الخصيصة أفضل من تلك من غير أن يستلزم ذلك أن يكون من ثبتت له الخصيصة الفاضلة أفضل من الآخر ، والله أعلم .

وثمة أمر يجب ذكره وهو أن ثبوت التفاضل بين الملائكة والبشر دليل ثبوت التفاضل بين المؤمنين فى الايمان وفيه رد على المرجئة النافين ذلك) .

المبحث الرابع
تفاضل العبادات

العبادات متفاضلة بعضها أفضل من بعض ، ومن أدلة تفاضلها قوله صلى الله عليه وسلم وقد سئل : أى الأعمال أفضل ؟ قال : " ايمان بالله ورسوله " قيل : ثم ماذا ؟ قال : " الجهاد في سبيل الله " قيل : ثم ماذا ؟ قال : " حج مبرور "[1] ، وسأله عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : أى الأعمال أحب الى الله ؟ قال : " الصلاة على وقتها " قال : ثم أى ؟ قال : " ثم بر الوالدين " قال : ثم أى ؟ قال : " ثم الجهاد في سبيل الله " ، قال ابن مسعود : حدثني بهن ولو استزدته لزدته .[2] وسأله رجل : أى الاسلام خير ؟ قال : " تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف[3] وقالوا له صلى الله عليه وسلم : أى الاسلام أفضل ؟ قال : " من سلم المسلمين من لسانه ويده " .[4]

---

(١) متفق عليه البخارى مع الفتح (١/٧٧) ومسلم (١/٨٨) .
(٢) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٢/٩) ومسلم (١/٩٠) .
(٣) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (١/٥٥) ومسلم (١/٦٥) .
(٤) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (١/٥٤) ومسلم (١/٦٦) .

فهذه الأحاديث وأمثالها فيها دلالة ظاهرة على تفاضل العبادات وأن بعضها أفضل من بعض ، ويلاحظ في هذه الأحاديث وأمثالها أن الأجوبة مختلفة مع أن السؤال واحد وهو عن أفضل الأعمال، وقد أجاب العلماء عن هذا بأجوبة :

قال ابن حجر : " ومحصل ما أجاب به العلماء عن هذا الحديث وغيره مما اختلفت فيه الأجوبة بأنه أفضل الأعمال: أن الجواب اختلف لاختلاف أحوال السائلين بأن أعلم كل قوم بما يحتاجون اليه أو بما لهم فيه رغبة أو بما هو لائق بهم ، أو كان الاختلاف باختلاف الأوقات بأن يكون العمل في ذلك الوقت أفضل منه في غيره ، فقد كان الجهاد في ابتداء الاسلام أفضل الأعمال لأنه الوسيلة الى القيام بها والتمكن من أدائها ، وقد تضافرت النصوص على أن الصلاة أفضل من الصدقة ومع ذلك ففي وقت مواساة المضطر تكون الصدقة أفضل ، أو أن (أفضل) ليست على بابها بل المراد بها الفضل المطلق ، أو المراد من أفضل الاعمال فحذفت من وهي مراده ".[1]

ويظهر في هذه الأجوبة بعض وجوه التفاضل بين العبادات ، ولعله بالامكان أن نحصر تفاضل العبادات في جهتين :

---

(١) فتح الباري (٢/٩).

الأولى : جهة العبادة نفسها .

الثانية : جهة العابد .

أما تفضل العبادة من جهتها نفسها فيظهر في وجوه متعددة منها :

١ ـ تفاضلها من حيث الوجوب والاستحباب ، وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى : " ما تقرب الي عبدي بشيء أحب الي مما افترضته عليه "[1] فهذا دليل على أن الفرائض أفضل من النوافل لأنها أحب الأعمال الى الله ، وقد نقل ابن حجر عن بعض العلماء في بيان بعض وجوه فضل الفرائض على النوافل ما حاصله : أن الأمر بالفرائض جازم أما بالنوافل على سبيل الترغيب والاستحباب ، وأن الفرائض يقع بتركها المعاقبة بخلاف النوافل ، وأن الفرض كالأصل والأس والنفل كالفرع والبناء ، وأن أداء الفرائض قد يقع تخوفا من العقوبة أما النفل فلا يقع الا رغبة في الثواب[2]

وقد تقدم في التمهيد لهذا الفصل ذكر اتفاق العلماء على أن الواجب أفضل من السنة الا في مواضع ثلاثة أو أربعة السنة فيها أفضل من الواجب ، وهي : ابتداء السلام فانه أفضل من رده مع أن الابتداء

---

(١) سبق تخريجه وهو في البخاري . انظر غذاء الالباب (١/ ٢٨٦)

(٢) انظر : فتح الباري (١١/ ٣٤٣) .

سنة والرد واجب ، وابراؤ المعسر أفضل من انظاره مع أن الابراء سنة والانظار واجب ، والتطهر قبل الوقت سنة وهو أفضل من التطهر عند دخول الوقت وهو واجب ، والختان قبل البلوغ سنة وبالبلوغ يجب والأول أفضل هذا ما ذكر عن العلماء أنهم استثنوه من عموم تفضيل الفرض على النفل .

٢ ـ تفاضلها من حيث تفاضل الأزمنة ، وهذا نحو قوله صلى الله عليه وسلم : " ان عمرة في رمضان تقضي حجة معي "[(١)] ففي هذا الحديث تفضيل العمرة في زمن خاص وهو رمضان على العمرة في غيره من الأزمنة .

٣ ـ تفاضلها من حيث تفاضل الأمكنة ، وهذا نحو قوله صلى الله عليه وسلم : " صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه الا المسجد الحرام ".[(٢)] فهذا صريح في أن الصلاة في هذين المكانين أفضل من الصلاة في غيرهما من بقية المساجد . الى غير ذلك من وجوه تفاضل العبادات من هذه الجهة ، جهة العبادات نفسها ، أما تفاضلها من جهة العابد فوجهه اختلاف احوال العابدين ، فمن ذلك

---

(١) اخرجه البخاري الصحيح مع الفتح (٤/٧٢) .

(٢) متفق عليه ، البخاري مع الفتح (٣/٦٣) ومسلم (٢/١٠١٢)

تفاضل صلاة المصلي بحسب قيامه وقعوده قال صلى الله عليه وسلم : " من صلى قائما فهو أفضل ومن صلى قاعدا فله نصف أجر القائم "[1] وهذا يدل على أن من صلى قائما ـ سواء للعذر اذا كانت الصلاة فريضة أو للجواز اذا كانت الصلاة نافلة ـ كانت عبادته أفضل لحاله هذا من عبادة من صلى قاعدا .

ومن ذلك تفاضل الصلاة بحسب الاجتماع والانفراد ، قال صلى الله عليه وسلم : " صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة ".[2]

ومن ذلك تفاضل الصلاة بحسب التفاوت في مقدار الخطى اليها قال صلى الله عليه وسلم : " أعظم الناس أجرا في الصلاة أبعدهم اليها ممشى فأبعدهم ".[3]

ومن ذلك تفاضل الصدقة بحسب الأمل في الحياة وعدمه ، جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أى الصدقة أعظم أجرا ؟ قال : " ان تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى (وفي لفظ : وتأمل البقاء) ولا تمهل حتى اذا بلغت الحلقوم

---

(١) أخرجه البخارى ، الصحيح مع الفتح (٢/ ٥٨٦) .
(٢) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٢/ ١٣١) ومسلم (١/ ٤٥٠) .
(٣) متفق عليه ، وهذا لفظ مسلم ، البخارى مع الفتح (٢/ ٣٧) ومسلم (١/ ٤٦٠) .

قلت : لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان ".[1]

وقد رأينا في أجوبة العلماء على اختلاف جواب النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث للسائلين عن أفضل العمل أن ذلك كان لاختلاف احوال السائلين وانه صلى الله عليه وسلم أعلم كل قوم بما يحتاجون اليه أو بما لهم فيه رغبة أو بما هو لائق بهم .

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن الناس في أفضل العبادة وأنفعها أربعة أصناف : قال : " الصنف الأول : عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقها على النفوس وأصعبها " قال : " وهؤلاء هم أهل المجاهدات والجور على النفوس ".

قال : " الصنف الثاني : قالوا أفضل العبادات التجرد والزهد في الدنيا والتقلل منها غاية الامكان واطراح الاهتمام بها وعدم الاكتراث بكل ما هو فيها " ثم قسم هؤلاء الى أقسام .

قال : " الصنف الثالث : رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ماكان فيه نفع متعد ، فرأوه أفضل من ذى النفع القاصر " . قال : " قالوا ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب " .

---

(١) متفق عليه ، البخاري مع الفتح (٣/ ٢٨٥) ومسلم (٢/ ٧١٦) .

قال : " الصنف الرابع : قالوا ان أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته"، ومثل له بأمثلة منها : " الأفضل في وقت الوقوف بعرفة الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك " ومنها : الأفضل في العشر الأخير من رمضان لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدى لمخالطة الناس والاشتغال بهم " .

وقد ذكر رحمه الله طرفا من أدلة كل ، ومال الى ترجيح الصنف الرابع وقال فيهم : " وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد ، فمتى خرج أحدهم عن النوع الذى تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته فهو يعبد الله على وجه واحد وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت فمدار تعبده عليها ، فهو لا يزال متنقلا في منازل العبودية ، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره اليها واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى فهذا دأبه في السير حتى ينتهى سيره فان رأيت العلماء رأيته معهم وان رأيت العباد رأيته معهم وان رأيت المجاهدين معهم " الى آخر كلامه رحمه الله .[1]

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٨٥ — ٩٠) .

المبحث الخامس
تفاضل الأزمنة والأمكنة

بين الأمكنة تفاضل وكذا بين الأزمنة، وتفاضل الأزمنة والأمكنة لا لمعنى فيها اقتضى ذلك ولكن لما تعلق بها مما خصت به من العبادات كرمضان بالصوم والمساجد الثلاثة بشد الرحال ، أو خصت به من تعظيم ثواب العمل فيها كالعمل في عشر ذى الحجة والصلاة في المسجد الحرام ، وقد تقدم التنبيه الى هذا في تمهيد هذا الفصل .

قال ابن القيم : " نفس البقاع واحدة بالذات ليس لبقعة على بقعة مزية البتة وانما هو لما يقع فيها من الأعمال الصالحة فلا مزية لبقعة البيت والمسجد الحرام ومنى وعرفة والمشاعر على أى بقعة سميتها في الأرض وانما التفضيل باعتبار أمر خارج عن البقعة لايعود اليها ولا الى وصف قائم بها .(1)

وتفاضل الأزمنة تفاضل قرون وتفاضل شهور وتفاضل أيام وتفاضل ليال وتفاضل ساعات .

أما تفاضل القرون فكما تقدم ذكر فضل قرنه صلى الله عليه وسلم

---

(1) زاد المعاد (١/ ٥٢) .

على سائر قرون بني آدم وفضل القرنين أو الثلاث بعده ، كما سبق بيانه بأدلته .

وأما تفاضل الشهور فكفضل شهر رمضان على سائر شهور السنة قال سبحانه يمدح شهر الصيام ويبين سبحانه شيئا مما اختصه به من بين سائر الشهور من انزال القرآن العظيم فيه وايجاب الصوم فيه : ((شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه)) (البقرة — ١٨٥) .

ومن وجوه تفضيل شهر رمضان أن فيه ليلة هى بمفردها خير من ألف شهر وهى ليلة القدر كما قال تعالى : ((ليلة القدر خير من ألف شهر))

ومع انضمام فضل بقية ليالى رمضان يكون رمضان خير شهور السنة .

وأيضا كفضل الأشهر الحرم قال سبحانه : ((ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم)) (التوبة — ٣٦) .

وهذه الأشهر الحرم بينها النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله :

" السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان "[1]

---

(١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٨/ ١٠٩ ، ٦/ ٢٩٣) . ومسلم (٣/ ١٣٠٥) .

ووجه تفضيل هذه الأشهر هو كون الحرمات فيها أشد تعظيما منها في غيرها فتعظيم الطاعات وتعظيم انتهاك المحارم فيها أشد من تعظيمه في غيرها [1] وقد قال صلى الله عليه وسلم : " أفضل الصيام بعد رمضان : شهر الله المحرم " [2] فهذا شاهد على تعظيم الطاعات فيها .

وأما تفاضل الأيام فكفضل ايام عشر ذى الحجة ، قال صلى الله عليه وسلم : " ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب الى الله من هذه الأيام العشر " فقالوا : يارسول الله : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ولا الجهاد في سبيل الله ، الا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء " . [3] ففي هذا الحديث أن أيام عشر ذى الحجة أفضل من غيرها من أيام السنة ، ووجه فضلها أن العمل الصالح اذا وقع فيها فهو أحب الى الله تعالى من نفسه اذا وقع في غيرها .

---

(١) انظر زاد المسير (٣/٤٣٢) .

(٢) اخرجه مسلم (٢/٨٢١) .

(٣) اخرجه الترمذى (٣/١٣٠) وأبو داود (٢/٣٢٥) وابن ماجه (١/٥٥٠) .

وأفضل ايام العشر اليوم الذى سماه الله يوم الحج الأكبر ، وقد اختلفت فى تعيينه الأقوال اذ قيل هو يوم عرفه وقيل هو يوم النحر .[1]

ورجح ابن جرير كونه يوم النحر وأقام دلائل ذلك[2] وهو الأرجح لحديث ابن عمر رضى الله عنهما قال : " وقف النبى صلى الله عليه وسلم يوم النحر بين الجمرات التى حج بهذا ، وقال : هذا يوم الحج الأكبر "[3]

وقال ابن القيم : " والقرآن قد صرح بأن الأذان يوم الحج الأكبر ، ولا خلاف أن النداء بذلك انما وقع يوم النحر بمنى ، فهذا دليل قاطع على أن يوم الحج الأكبر يوم النحر ".[4]

وقد ورد فى يوم عرفة فضائل اختص بها فقد قال صلى الله عليه وسلم : " ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة ، وانه ليدنو

---

(١) انظر : تفسير الطبرى (١٠/٤٩ - ٥٤) وزاد المسير (٣/٣٩٦) والدر المنثور (٣/٢١١) .

(٢) تفسير الطبرى (١٠/٥٣) .

(٣) اخرجه البخارى تعليقا ، البخارى مع الفتح (٣/٥٧٤) ووصله أبو داود (٢/١٩٥) وابن ماجه (٢/١٠١٦) وانظر تغليق التعليق (٣/١٠٤ - ١٠٥) وصحيح سنن أبى داود للالبانى (١/٣٦٧) .

(٤) تهذيب السنن - بهامش المختصر - (٢/٤٠٦) .

ثم يباهي بهم الملائكة ، فيقول : ما أراد هؤلاء ؟ "[1] وقال صلى الله عليه وسلم : " صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله والسنة التى بعده "[2]

والحاصل أن عشر ذى الحجة أفضل ايام السنة وأفضلها يومي النحر وعرفه .

ويوم الجمعة أيضا يوم فاضل قال فيه صلى الله عليه وسلم: " خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه ادخل الجنة وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة الا فى يوم الجمعة ".[3] فهذا دليل على فضله وبيان لوجه هذا الفضل ، ولا يعني قوله صلى الله عليه وسلم أن يوم الجمعة خير يوم طلعت عليه الشمس أنه أفضل من أيام العشر ، فان كل يوم من أيام العشر أفضل من غيره من أيام السنة سواء كان يوم الجمعة أم لا ولكن يوم الجمعة في العشر أفضل من الجمعة فى غيرها لاجتماع الفضلين فيه .[4]

ويوم عاشوراء أيضا يوم فاضل قال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) اخرجه مسلم (٢/ ٩٨٣) .

(٢) مسلم (٢/ ٨١٩) .

(٣) مسلم (٢/ ٥٨٥) .

(٤) انظر فتح البارى (٢/ ٤٦٠) .

" صيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبلها " .[1] فهذه فضيلة هذا اليوم على غيره من الأيام .

وأما تفاضل الليالي ، كفضل ليلة القدر التي قال الله فيها : ((وما ادراك ماليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر)) (القدر ٢ — ٣) وبين سبحانه وتعالى أوجه فضلها في قوله : ((انا أنزلناه في ليلة القدر)) (القدر — ١) ففي هذه الليلة أنزل القرآن وهي الليلة المباركة التي قال فيها سبحانه : ((انا أنزلناه في ليلة مباركة)) (الدخان — ٣) وقال سبحانه : ((تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر)) (القدر — ٤) وقال : ((فيها يفرق كل أمر حكيم)) (الدخان — ٤) فهي ليلة يكثر فيها تنزل الملائكة لكثرة بركتها وفيها يُفَصَّل من اللوح المحفوظ الى الملائكة أمر السنة وما يكون فيها من الآجال والأرزاق وما يكون فيها الى آخرها .[2] وقال سبحانه : ((سلام هي حتى مطلع الفجر)) (القدر — ٥) فهي خير كلها ليس فيها شر الى مطلع الشمس .[3]

---

(١) مسلم (٨١٩/٢) .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير (١٣٨/٤ و ٥٣٢) .

(٣) تفسير ابن كثير (٥٣٢/٤) .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : " من قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ".[1] وأمر صلى الله عليه وسلم بتحريها فقال : " تحروا ليلة القدر "[2] وكذا باقي ليالي العشر الأواخر من شهر رمضان كلها ليال فاضلة مفضلة على غيرها من الليالي وأفضلها ليلة القدر .

قالت عائشة رضى الله عنها : " كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله "[3] وقالت : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتهد في رمضان مالا يجتهد في غيره ، وفي العشر الأواخر منه مالا يجتهد في غيره ".[4]

وهكذا يتضح من النصوص السابقة أن الأزمنة متفاضلة وأن تفاضلها لما وقع فيها من الفضائل وما يكون للعمل فيها من فضل الثواب مما لا يكون للعمل في غيرها ، فعلى المؤمن ألا يعتقد فضل زمن على آخر لذاته أو لمعنى فيه بل تفاضلها لما ذكر من وجوه الفضل فتعظيم هذه الأزمنة انما يكون في استغلالها بالطاعات والاجتهاد فيها لا بغير ذلك .

---

(١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٤/٢٥٥) ومسلم (١/٥٢٣) .
(٢) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٤/٢٥٩) ومسلم (٢/٨٢٣) .
(٣) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٤/٢٦٩) ومسلم (٢/٨٣٢) .
(٤) مسلم (٢/٨٣٢) .

وكما تتفاضل الأزمنة ، تتفاضل الأمكنة أيضا ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " أحب البلاد الى الله مساجدها ، وأبغض البلاد الى الله أسواقها "[1] وهو دليل على تفاضل الأمكنة وأن تفاضلها لا لشيء في ذاتها بل لما تُهيأ له وتستعمل فيه/فان فضل المساجد لكونها بيوت الطاعات وأساسها على التقوى وهي محل ذكر الله وتعبده لا تكون الا لذلك لا لشيء سوى الطاعة البتة . أما الأسواق فانها محل الغش والخداع والربا والأيمان الكاذبة واخلاف الوعد والاعراض عن ذكر الله وغير ذلك مما في معناه[2] وعليه فانه كلما كان ما تعلق بالأمكنة أو اختصت به أحب الى الله كلما كان المكان أفضل من غيره .

وأفضل بقاع الأرض مكة المكرمة والمدينة المنورة ، فقد قال صلى الله عليه وسلم في مكة يوم الفتح : " ان هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض وهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة ، وانه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي الا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته الا من عرفها ولا يختلى خلاها ". قال العباس : يارسول الله الا الاذخر فانه لقينهم ولبيوتهم

---

(١) مسلم (١/٤٦٤) .

(٢) انظر : شرح النووي لمسلم (٥/١٧١) .

قال : قال : " الا الاذخر "[1] وقال صلى الله عليه وسلم : " وان الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنون فانها لا تحل لأحد كـــان قبلي وانها احلت لي ساعة من نهار ، وانها لا تحل لأحد بعدى فلا ينفـــر صيدها ولا يختلى شوكها ولا تحل ساقطتها الا لمنشد ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين : اما أن يفدى واما أن يقيد "[2] وقال صلى اللــــــه عليه وسلم : " ان مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس "[3] وقال صلى اللـــه عليه وسلم : " لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح " .[4]

فهذه الأحاديث ظاهرة فى خصائص مكة المكرمة التى اختصت بهـــا من وجوه الفضل والتفضيل فهى بلد محرم حرمه الله ولم يحرمه الناس وأنهـــا مازالت محرمة من يوم خلق الله السموات والأرض والى يوم القيامة وأن القتـــال والقتل فيها محرم وأنه لا يقطع شجرها ولا ينفر صيدها ولا يلتقط لقطتهـــا الا من أرد تعريفها فقط ونحو ذلك من الأحكام التى تضمنتها الأحاديـث مما يدل على شرف مكة وفضلها .

---

(١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٤/٤٦) ومسلم (٢/٩٨٦) .
(٢) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٥/٨٧) ومسلم (٢/٩٨٨) .
(٣) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٤/٤١) ومسلم (٢/٩٨٧) .
(٤) رواه مسلم (٢/٩٨٩) .

وكذا ثبت في المدينة المنورة من الخصائص والفضائل ما يدل على فضلها فقد حرمها النبي صلى الله عليه وسلم ودعا لها بالبركة ورغب في سكناها وأخبر عن صيانتها من دخول الطاعون والدجال اليها ، وأخبر أنها تنفي شرارها ونحو ذلك مما ثبت في المدينة من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ، ففي شأن تحريمها قال صلى الله عليه وسلم : " ان ابراهيم حرم مكة ودعا لها ، وحرمت المدينة كما حرم ابراهيم مكة ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا ابراهيم عليه السلام لمكة "[1] وقال صلى الله عليه وسلم : " اللهم اني احرم ما بين جبليها مثل ما حرم ابراهيم مكة اللهم بارك لهم في مدهم وصاعهم "[2] وفي صحيفة علي رضى الله عنه : " المدينة حرم من عير الى كذا ، فمن أحدث فيها حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا "[3] وقال صلى الله عليه وسلم : " اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما جعلت بمكة من البركة "[4]

---

(١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٤/ ٣٦٤) ومسلم (٢/ ٩٩٠) .
(٢) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٩/ ٥٥٤) ومسلم (٢/ ٩٩٣) .
(٣) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (١٣/ ٢٧٥) ومسلم (٢/ ٩٩٥) .
(٤) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٤/ ٩٦) ومسلم (٢/ ٩٩٤) .

وفي الترغيب في سكنى المدينة يقول صلى الله عليه وسلم : " لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتي الا كنت له شفيعا يوم القيامة أو شهيدا "[1] وقال صلى الله عليه وسلم : " من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فاني أشفع لمن يموت بها "[2] .

وأما صيانتها من الطاعون والدجال فقد قال صلى الله عليه وسلم : " على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال "[3] وأما نفيها الخبث فقد قال صلى الله عليه وسلم : " أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب ، وهي المدينة تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد "[4] وقال صلى الله عليه وسلم : " انما المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها "[5] .

---

(١) أخرجه مسلم (٢ / ١٠٠٤) .

(٢) أخرجه أحمد (٢ / ٧٤ ، ١٠٤) والترمذي (٥ / ٦٧٦) وابن ماجه (٢ / ١٠٣٩) وابن حبان ـ الاحسان (٦ / ٢١) وهو صحيح كما في الجامع الصغير (٢ / ١٦٣) وصحيح الجامع (٥ / ٢٣٩) وتخريج احاديث المشكاة (٢ / ٨٣٩) .

(٣) متفق عليه ، البخاري مع الفتح (٤ / ٩٥) ومسلم (٢ / ١٠٠٦) .

(٤) متفق عليه ، البخاري مع الفتح (٤ / ٨٧) ومسلم (٢ / ١٠٠٦) .

(٥) متفق عليه ، البخاري مع الفتح (١٣ / ٢٠١) ومسلم (٢ / ١٠٠٦) .

وقال صلى الله عليه وسلم فيمن أراد المدينة وأهلها بسوء : " لا يكيد أهل المدينة أحد الا انماع كما ينماع الملح في الماء ".[1]

وهذه وغيرها أدلة ظاهرة على فضل المدينة المنورة ، ولقد أجمع العلماء بلا خلاف بينهم على أن مكة والمدينة أفضل الأرض[2] ولكن نُقل بعض الخلاف في المفاضلة بينهما وقد ذهب عامة أهل العلم وجمهور الفقهاء الى أن مكة أفضل من المدينة ونقل هذا القول عن عمر بن الخطاب وعلى وابن مسعود وأبو الدرداء وابن عمر وجابر وأبو هريرة وابن الزبير وعبد الله بن عباس وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم.

وذهب المالكيون والمدنيون وبعض البغداديين والبصريين الى أن المدينة أفضل من مكة وروي عن ابن عمر[3] وقال ابن عبد البر : " قد روى مالك ما يدل على أن مكة أفضل الارض كلها ولكن المشهور عن أصحابه في مذهبه تفضيل المدينة ".[4]

---

(١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٤/ ٩٤) ومسلم (٢/ ١٠٠٨).

(٢) انظر : الجامع (٣٤٣) والحجج المبينة (٣٧).

(٣) انظر : التمهيد (٦/ ١٨) والشفا (٢/ ٩٠) والجامع (٣٤٣).

(٤) التمهيد (٢/ ٢٨٩).

وذكر ابن حجر أن تفضيل مكة على المدينة حُكي عن مالك .[1]

وقال الباجي : " ذهب مالك الى أن سكنى المدينة أفضل " [2]

ولا يلزم من هذا أن مالكا يقول بتفضيل المدينة على مكة .

والقول الفصل في المسألة ما قاله ابن عبد البر رحمه الله : " المواضع كلها والبقاع أرض الله فلا يجوز أن يفضل منها شيء على شيء الا بخبر يجب التسليم له " قال : " واني لأعجب ممن يترك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ وقف بمكة على الحزورة وقيل على الحجون وقال :

والله اني لأعلم انك خير أرض الله وأحبها الى الله ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت [3] وهذا حديث صحيح" . قال : " فكيف يترك

---

(١) فتح الباري (٣/٦٧) .

(٢) المنتقى (٧/١٩٧) .

(٣) اخرجه أحمد (٤/٣٠٥) والترمذي (٥/٦٧٩) وقال : حسن غريب صحيح ، وابن ماجه (٢/١٠٣٧) والدارمي (٢/٢٣٩) وابن حبان ـ الاحسان (٦/٩) ـ والحاكم (٣/٧) وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وصححه ابن عبد البر كما ترى وقال في (٦/٣٢) من التمهيد بعد ذكر الحديث بسنده " وهذا من أصح الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم" ، وقال الألباني في تخريج المشكاة (٢/٨٣٢) : اسناده صحيح .

مثل هذا النص الثابت ويمال الى تأويل لا يجامع متأوله عليه ".[1] وليس في موضع النزاع حديث صحيح صريح غير هذا فلا ينبغي العدول عنه ، وقد استدل من فضل المدينة على مكة بأحاديث ضعيفة وقيل في بعضها موضوع وبتأويلات لأحاديث صحيحة ليست نصا في موضع النزاع والتأويلات[2] كما قال ابن عبد البر : لا يجامع عليها ولا حجة فيها وقد ذكر ابن عبد البر رحمه الله أن ما احتج به مفضلوا المدينة على مكة انما يُحتج به على من أنكر فضل المدينة وكرامتها : " وأما من أقر بفضلها وعرف لها موضعها وأقر أنه ليس على وجه الأرض أفضل بعد مكة منها فقد أنزلها منزلتها وعرف لها حقها واستعمل القول بما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في مكة وفيها ، لأن فضائل البلدان لا تدرك بالقياس والاستنباط وانما سبيلها التوقيف " ، وقال رحمه الله : " والآثار في فضل مكة عن السلف أكثر "[3] وقال : " فهذا عمر وعلي وابن مسعود وأبو الدرداء وابن عمر وجابر يفضلون مكة ومسجدها ـ وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم ".[4]

---

(١) التمهيد (٢/٢٨٨).

(٢) انظر : الجامع (٣٤٥ ـ ٣٤٩) والمحلى لابن حزم (٧/٢٧٩-٢٩٠) والفتاوى (٢٧/٣٦) .

(٣) التمهيد (٢/٢٩٠).

(٤) التمهيد (٦/٣٤).

وحاصل القول : أنه لا داعي للمفاضلة بين مكة والمدينة لعدم وجود نص صريح صحيح في المفاضلة بينهما بعينهما وليسعنا ما ورد في النصوص فنثبت ونؤمن لكل منهما بما ثبت من فضائله وخصائصه من غير تعرض للمفاضلة بينهما فان دعى داع شرعي للمفاضلة بينهما فالصيرورة الى تفضيل مكة لازمة لعموم حديث " والله أني لأعلم أنك خير أرض الله وأحبها الى الله " وهو صحيح صريح مؤكد بأربعة مؤكدات : القسم وان واللام والجملة الاسمية وليس ثم حديث صحيح ولا صحيح صريح يفيد تخصيص عمومه وتقييد اطلاقه .

وهاتان البقعتان هما أفضل بقاع الأرض كما قدمنا لما خصتا به من الأحكام الشرعية .

وفى كل من المدينتين الفاضلتين بقاع فاضلة خصت بفضائل تميزها عن بقية بقاع المدينتين كفضل عرفات ومزدلفة ومنى فى مكة وقد خص كل منها بمناسك خصت بها فى الحج وتشملها حرمة مكة ، وكمسجد قباء في المدينة وخص بما جاء فى الحديث من أنه صلى الله عليه وسلم كان يأتيه راكبا وماشيا .[1] وأفضل بقاع المدينتين المسجدين الشريفين

---

(١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٣/٦٩) ومسلم (٢/١٠١٦) .

المسجد الحرام بمكة المكرمة والمسجد النبوى فى المدينة المنورة ووجـــه فضلهما بينه صلى الله عليه وسلم فى قوله : " صلاة فى مسجدى هذا خـير من ألف صلاة فيما سواه الا المسجد الحرام "[(١)] وفى رواية بزيادة :"وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة فى هذا — يعنى فى مسجـــد المدينة — "[(٢)] وهذا نص أن المسجد الحرام أفضل من مسجد المدينة .

وهذان المسجدان هما أفضل بقاع الأرض على الاطلاق ثم يليهما فى الفضيله المسجد الأقصى ففى الحديث "لاتشد الرحال الا الى ثلاثـــة مساجد : المسجد الحرام ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ومسجــد الأقصـى ".[(٣)]

---

(١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٦٣/٣) ومسلم (١٠١٢/٢) .

(٢) اخرجها أحمد (٣٤٣/٣ ، ٣٩٧/٣) والبزار — كشف الاستار (٢١٤/١) — ، وقال الهيثمى فى المجمع (٤/٤) :" رجال أحمد والبزار رجال الصحيح " وذكر أن الطبرانى أخرجه أيضـــا وابن حبان — الاحسان (٧٣/٣) — وابن ماجه (٤٥١/١) بسند صحيح رجاله ثقات كما فى مصباح الزجاجة (٢٥٠/١) ، والبيهقى فى السنن الكبرى (٢٤٦/٥) وذكر المنذرى فى الترغيب والترهيب (٢١٦/٢) أن ابن خزيمة أخرجه فى صحيحه ، وصحح الحديث الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٨/٣) .

(٣) متفق عليه ، البخارى (٦٣/٣) ومسلم (١٠١٤/٢) .

فهذه المساجد تشترك مع غيرها من المساجد في كونها أفضل البقاع لقوله صلى الله عليه وسلم : " أحب البلاد الى الله مساجدها "(1) ثم تنفرد عن سائر المساجد بما خصت به من الأحكام والفضائل ثم تفاضلت لتفاضل خصائصها .

والحاصل أن الأزمنة والأمكنة متفاضلة ، وتفاضلها لا لشيء في ذواتها ولكن لما تعلق بها من الفضائل ، وأنه لا يصح اعتقاد فضل زمن على آخر ولا فضل مكان على آخر من غير نص شرعي ، لأن ذلك مآله الى الخبر والتوقيف ، ويتفرع عن عدم صحة اعتقاد فضل زمان أو مكان من غير دليل بطلان ما يترتب عليه من الأعمال ، فاعتقاد فضل مكان لم يرد بتفضيله نص والعمل بمقتضى هذا الاعتقاد الفاسد بتحريه بالتقرب الى الله فيه باطل ، ولذلك كان اعتقاد فضل القبور واعتقاد أفضلية العبادة عندها وما ترتب على هذا من بناء المشاهد عليها وزيارتها والسفر اليها والتعبد عندها ونحو ذلك مما أفضى الى عبادة القبور والمشاهد من دون الله كله باطل مردود ، فلا يعتقد فضل بقعة ولا يعمل بهذا الاعتقاد حتى يقوم الدليل عليه . وكذا لا يصح اعتقاد فضيلة لزمن لم يرد بها نص والعمل بهذا الاعتقاد باطل ، كتخصيص يوم المولد النبوي بالعبادة لاعتقاد تخصيصه بهذا الفضل فانه باطل مردود لعدم الدليل عليه البتة ، وعلى ذلك فقس .

---

(1) تقدم تخريجه ، وهو عند مسلم في صحيحه .

مسألة : فى بعض ما شذ من أقوال فى هذا المبحث :

ظن القاضي عياض أن الخلاف الواقع في المفاضلة بين مكة والمدينة أنه في غير قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال اثناء ذكره ذلك الخلاف : " ولا خلاف أن موضع قبره صلى الله عليه وسلم أفضل بقاع الأرض "(1) فحكاه اجماعا .

قال ابن تيمية رحمه الله : " وأما التربة التي دفن فيها النبي صلى الله عليه وسلم فلا أعلم أحدا من الناس قال انها أفضل من المسجد الحرام أو المسجد النبوي أو المسجد الأقصى الا القاضي عياض فذكر ذلك اجماعا ، وهو قول لم يسبقه اليه أحد فيما علمناه ولا حجة عليه " قال : " والنصوص الدالة على تفضيل المساجد مطلقة لم يستثن منها قبور الأنبياء ولا قبور الصالحين ولو كان ما ذكره حقا لكان مدفن كل نبي بل وكل صالح أفضل من المساجد التي هي بيوت الله ، فيكون بيوت المخلوقين أفضل من بيوت الخالق التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، وهذا قول مبتدع في الدين مخالف لأصول الاسلام "(2) وقال رحمه الله : " وما ذكره بعضهم من الاجماع على تفضيل قبر من القبور على المساجد كلها فقول محدث

---

(1) الشفا (٢/ ٩١) وانظر الحج المبينة (٤٨) .

(2) الفتاوى (٢٧/ ٣٧ — ٣٨) .

في الاسلام ، لم يعرف عن أحد من السلف ولكن ذكره بعض المتأخرين فأخذه عنه آخر وظنه اجماعا لكون أجساد الأنبياء أنفسها أفضل من المساجد فقولهم يعم المؤمنين كلهم فأبدانهم أفضل من كل تراب في الأرض ولا يلزم من كون أبدانهم أفضل أن تكون مساكنهم أحياء وأمواتا أفضل ، بل قد علم بالاضطرار من دينهم أن مساجد هم أفضل من مساكنهم "[1] وقال :

" وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أحب البقاع الى الله المساجد " فليس في البقاع أفضل منها وليست مساكن الأنبياء لا أحياء ولا امواتا بأفضل من المساجد ، هذا هو الثابت بنص الرسول واتفاق علماء الأمة ، وما ذكره بعضهم من أن قبور الأنبياء والصالحين أفضل من المساجد وأن الدعاء عندها أفضل من الدعاء في المساجد حتى في المسجد الحرام والمسجد النبوى فقول يعلم بطلانه بالاضطرار من دين الرسول ويعلم اجماع علماء الأمة على بطلانه اجماعا ضروريا ".[2]

وأرى أن قول القاضي عياض بتفضيل قبر النبي صلى الله عليه وسلم كأنه تخصيص منه لقول من فضل المدينة كلها على مكة لأن النبي صلى الله عليه وسلم خُلق من تربتها قالوا : ان النبي صلى الله عليه وسلم دفن في التربة

---

(١) الفتاوى (٢٧/ ٢٦١).

(٢) الفتاوى (٢٧/ ٢٦٠).

التي خلق منها وهو أفضل الخلق فهي أفضل البقاع[1] واحتجوا بأحاديث موضوعة فيها أن الميت يدفن في التربة التي خلق منها .[2]

والجواب عنها من أربعة أوجه :

الأول : ردها وبطلان الاستدلال بها لشدة ضعف بعضها ووضع البعض الآخر ولم يرق شيء منها الى درجة الاحتجاج ولا قريبا منها .

الثاني : أن المخلوق من تراب هو آدم أما ذريته فقد خلقت من سلالة من ماء مهين .[3]

الثالث : ما ذكره ابن تيمية من أنه لو ثبت أن الميت خلق من التراب الذى دفن فيه فان خلقه من مني أبويه أقرب من خلقه من ذلك التراب ولا يلزم من كون الميت أفضل أن يكون ما منه خلق أفضل والا لصح أن يقال ان بدن عبد الله أبي النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من أبدان الأنبياء ولا يقول هذا أحد .[4]

---

(١) انظر : نوادر الأصول (٧٢) ووفاء الوفاء (١/ ٣٢) .
(٢) انظر : المحلى (٧/ ٢٨٥ – ٢٨٦) والفتاوى (٢٧/ ٢٦١) .
(٣) انظر : الفتاوى (٢٧/ ٢٦١) .
(٤) انظر : الفتاوى (٢٧/ ٣٧ و ٢٦٢) .

الرابع : أنه اذا قدر أن الميت خلق من تراب القبر فانه ينبغي التمييز بين ما صار من ذلك التراب بدنا للميت وما بقي منه ترابا،فاذا ماد فن في قبره وجب التمييز بين ما تحلل من بدن الميت وبين بقية تراب القبر فتكون الفضيلة المزعومة لما تحلل من بدن الميت أما ما بقي من القبر فحكمه حكم أمثاله من سائر التراب .[1]

والحاصل : أن تخصيص مكان أو زمان بفضيلة على غيره حق خالص لله تعالى لا يشاركه فيه غيره ، فلا يجوز اعتقاد فضل زمان أو مكان الا بدليل من كتاب الله أومن صحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن الباطل اعتقاد فضل زمان أو مكان بلا دليل أو بدليل باطل ، ويعظم بطلان هذا الاعتقاد اذا ترتب عليه تخصيص ذلك المكان أو ذلك الزمان بعبادة لم يشرعها الله كما يفعل من يخصص ليلة النصف من شعبان أو ليلة السابع والعشرين من رجب أو يوم مولد النبي صلى الله عليه وسلم بعبادات لم يرد بها نص بناء على اعتقاد فضيلة لم تثبت ، والتشريع حق خالص لله لا يشاركه فيه أحد فلا يشرع عبادة الا الله ولا يخصص زمانا ولا مكانا بعبادة أو فضيلة الا الله .

---

(١) انظر : الفتاوى (٢٧/٢٦٣) .

الفصل الخامس
تفاضل المؤمنين في الآخرة
وتفاوت أهل النار فيها

الفصل الخامس
تفاضل المؤمنين في الآخرة وتفاوت أهل النار

المبحث الأول : التفاضل في البرزخ :

المقصود بالبرزخ الحياة في القبور قبل البعث وسميت هذه الحياة بالبرزخ لأنها واقعة بين الحياتين الدنيا والآخرة والبرزخ في اللغة الحاجز بين الشيئين ، ومنه قوله تعالى : ((مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان)) (الرحمن ٢٠) أى حاجز بينهما يمنعهما من الاختلاط [١] وتسمية الحياة في القبور حتى البعث برزخا واردة في كتاب الله ، قال تعالى : ((حتى اذا جاء احدهم الموت قال رب ارجعون . لعلى أعمل صالحا فيما تركت ، كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون)) (المؤمنون ٩٩-١٠٠) قال مجاهد وغيره من أئمة التفسير في قوله : ((ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون)) قالوا : ما بين الموت الى البعث . [٢]

والبرزخ أول منازل الآخرة وان عد حاجزا بينها والدنيا ، فعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " القبر أول منازل الآخرة " . [٣]

---

(١) انظر تهذيب اللغة (٧/ ٦٧٠) والصحاح (١/ ٤١٩) .

(٢) انظر تفسير الطبرى (١٨/ ٤١) .

(٣) اخرجه ابن ماجه (٢/ ١٤٢٦) والترمذى (٤/ ٤٧٩) والحاكم (١/ ٣٧١) وهو في المسند من زيادات عبدالله (١/ ٣٧١) .
وقال أحمد شاكر في ترتيب المسند : اسناده صحيح (١/ ٤٥٤)
وصححه الالباني في صحيح الجامع (٢/ ٨٥) .

والمؤمنون يتفاضلون في البرزخ وتتفاوت درجاتهم تفاوتا عظيما ، وأفضلهم درجة في البرزخ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فأرواح الأنبياء في أعلى عليين ، في الملأ الأعلى ، ويدل على ذلك حديث الاسراء والمعراج المخرج في الصحيحين - ومضى ذكر طرف من رواياته فيهما وتخريجه - وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم التقى بالأنبياء في السموات على اختلاف منازلهم فيها ، وأنه رأى موسى قائما يصلي ورأى عيسى قائما يصلي ورأى ابراهيم قائما يصلي [1] ورأى ابراهيم مسندا ظهره الى البيت المعمور . [2]

وفي أحاديث الاسراء والمعراج دلالتان :

الأولى : ان الانبياء أفضل المؤمنين حياة في البرزخ .

الثانية : ان الأنبياء متفاضلون في حياتهم البرزخية .

وقد ورد في الأنبياء قوله صلى الله عليه وسلم : " ان الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء " . [3]

ومن تفاضل المؤمنين في البرزخ ما ثبت في فضل الشهداء من قوله

---

(١) كما روى مسلم في صحيحه (١/١٥٧) .

(٢) كما روى مسلم في صحيحه (١/١٤٦) .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٤/٨) وأبو داود (١/٢٧٥ و ٢/٨٨) وابن ماجه (١/٣٤٥ و ٥٢٤) والنسائي (٣/٩٢) والدارمي (٢/٢٤) وابن حبان - الاحسان (٢/١٣٢) - والحاكم (٤/٥٦٠) وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، وصحح الحديث الألباني في صحيح الجامع (٢/٢٤٤) وانظر مختصر المنذري لسنن أبي داود وتهذيب السنن في هامشه (٢/١٥٤ - ١٥٥) .

صلى الله عليه وسلم لما سئل عن قوله تعالى : ((ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل احياء عند ربهم يرزقون)) (آل عمران ٦٩) فقال صلى الله عليه وسلم : " ارواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى الى تلك القناديل فاطلع اليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئا ؟ قالوا : شيء نشتهي ؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا انهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : يارب ، نريد أن ترد أرواحنا في اجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا "[1]

وقال صلى الله عليه وسلم : " ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع الى الدنيا وله ما على الأرض من شيء الا الشهيد يتمنى أن يرجع الى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة ".[2]

فالشهيد اختص بحياة في البرزخ امتاز بها عن غيره من المؤمنين ، قال شارح الطحاوية في الشهداء : " فنصيبهم من النعيم في البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فرشهم وان كان الميت أعلى درجة منهم ، فلهم نعيم يختص به لا يشاركه فيه من هو دونه ".[3] الا أن الشهيد يتساوى مع بقية المؤمنين في المؤاخذة بالدَّيْن وان كان يمتاز في سوى ذلك ، قال صلى الله عليه وسلم : " يغفر للشهيد كل ذنب الا الدين "[4]

---

(١) أخرجه مسلم (٣/١٥٠٢ ــ ١٥٠٣).

(٢) سبق تخريجه وهو متفق عليه .

(٣) شرح الطحاوية (٣٩٦).

(٤) أخرجه مسلم (٣/١٥٠٢).

فمن المؤمنين طائفة يحبسون في البرزخ عن الجنة وهم المحبوسون بدين عليهم حتى يؤدى ، ففي الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم صلى على جنازة – (وفي رواية صلى الصبح) – فلما انصرف قال : أههنا من آل فلان أحد ؟ قالوا : نعم ، قال : " ان فلانا – لرجل منهم – مأسور بدينه عن الجنة – (وفي رواية محتبس على باب الجنة في دين عليه) – فان شئتم فافدوه وان شئتم فأسلموه الى عذاب الله " .(1)

وفي هذا الحديث دلالة على أن في المؤمنين في البرزخ من يحبس على باب الجنة حتى يزول سبب الحبس ، وهو دال على أن فيهم من يدخل الجنة ، وهناك أحاديث تدل على أن في المؤمنين من يعذب في البرزخ بذنوب ارتكبوها وفيها دلالة على تفاوت هؤلاء في العذاب على تفاوتهم فيما آتوا من الذنوب ، وهي أحاديث يطول حصرها جدا ومن أمثلتها قوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : " انه اتاني الليلة آتيان ، وانهما ابتعثاني ، وانهما قالا لي: انطلق، واني انطلقت معهما ، وانا أتينا على رجل مضطجع واذا آخر قائم عليه بصخرة واذا هو يهوى بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه فيتهده الحجر ههنا فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع اليه حتى يصبح رأسه كما كان ،

---

(1) اخرجه أحمد (٥/١١ ، ١٣ ، ٢٠) وأبو داود (٣/٢٤٦) ، والنسائي (٧/٣١٥) والبيهقي في السنن (٦/٧٦) والطيالسي في مسنده (٢٢١) والحاكم (٢/٢٥) وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في أحكام الجنائز (١٥) .

ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى قال : قلت لهما : سبحان الله ماهذان ؟ قال : قالا لي : انطلق ، قال : فانطلقنا فأتينا على رجل مستلق لقفاه واذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد واذا هو يأتي أحد شقي وجهه فيشرشر شدقه الى قفاه ومنخره الى قفاه وعينه الى قفاه قال:وربما قال أبو رجاء فيشق، قال: ثم يتحول الى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصحّ ذلك الجانب كما كان ، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى ، قال : قلت سبحان الله ما هذان ؟ قال: قالا لي: انطلق، فانطلقنا فأتينا على مثل التنور، قال: فاحسب انه كان يقول فاذا فيه لغط وأصوات ، قال : فاطلعنا فيه فاذا فيه رجال ونساء عراة واذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم فاذا أتاهم ذلك اللهب ضَوْضَوْا ، قال: قلت لهما ما هؤلاء ؟ قال : قالا لي: انطلق انطلق ، قال فانطلقنا فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول أحمر مثل الدم واذا في النهر رجل سابح يسبح واذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة واذا ذلك السابح يسبح ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجرا فينطلق يسبح ثم يرجع اليه كما رجع اليه فغرفاه فالقمه حجرا ، قال : قلت لهما: ماهذان ؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق ، قال: فانطلقنا فأتينا على رجل كريهِ المَرْآةِ كأكره ما أنت راء رجلاً مرآة، واذا عنده نار يحشها ويسعى حولها قال: قلت لهما ما هذا ؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق ، فانطلقنا فأتينا على روضة معتمة فيها من كل نَوْر الربيع واذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولا في السماء واذا حول الرجل من اكثر ولدان رأيتهم قط، قال: قلت لهما: ما هذا ما هؤلاء ؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق ، قال: فانطلقنا فانتهينا

الى روضة عظيمة لم أر روضة قط أعظم منها ولا أحسن، قال: قالا لي: ارق فيها،
قال: فارتقينا فيها فانتهينا الى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة فأتينا باب
المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فدخلناها فتلقانا فيها رجال شطر من خلقهم
كأحسن ما أنت راء وشطر كأقبح ما أنت راء ، قال: قالا لهم: اذهبوا فقعوا
في ذلك النهر ، قال: واذا نهر معترض يجرى كأن ماءه المحض في البياض
فذهبوا فوقعوا فيه ، ثم رجعوا الينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في
أحسن صورة ، قال: قالا لي: هذه جنة عدن وهذاك منزلك، قال: فسما بصري
صعدا ، فاذا قصر مثل الربابة البيضاء، قال: قالا لي: هذاك منزلك، قال: قلت
لهما: بارك الله فيكما ذراني فأدخله ، قالا: أما الآن فلا وأنت داخله ، قال:
قلت لهما: فاني قد رأيت منذ الليلة عجبا فما هذا الذى رأيت ؟ قال: قالا لي:
اما انا سنخبرك : أما الرجل الأول الذى أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فانه
الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة . وأما الرجل الذى أتيت
عليه يشرشر شدقه الى قفاه ومنخره الى قفاه وعينه الى قفاه فانه الرجل يغدو
من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق . وأما الرجال والنساء العراة الذين
في مثل بناء التنور فانهم الزناة والزواني . وأما الرجل الذى أتيت عليه
يسبح في النهر ويلقم الحجر فانه آكل الربا . وأما الرجل الكريه المرآة الذى
عند النار يحشها ويسعى حولها فانه مالك خازن جهنم . وأما الرجل الطويل
الذى في الروضة فانه ابراهيم صلى الله عليه وسلم . وأما الولدان الذين
حوله فكل مولود مات على الفطرة — قال: فقال بعض المسلمين: يارسول الله
وأولاد المشركين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأولاد المشركين —
وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسنا وشطر منهم قبيحا فانهم قوم

خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم ". [1]

ففى الحديث أن من المؤمنين فى البرزخ من يثلغ رأسه أى يشدخ بالحجر ، وأن منهم من يكون فى تنور الزناة والزوانى ، وأن منهم من يكون فى نهر الدم يسبح فيه ويلقم الحجارة ، ذلك لمعاص أتوها ، وأن منهم من يكون شطره حسنا وشطره الآخر قبيحا لخلطه عملا صالحا وآخر سيئا .

وفى هذا مع ماقبله دلالة ظاهرة على تفاضل المؤمنين فى البرزخ .

---

(١) أخرجه البخارى ، الصحيح مع الفتح (١٢/٤٣٨ - ٤٣٩) .

المبحث الثاني
التفاضل في المحشر

أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن المؤمنين يحشرون حفاة عراة غرلا [1] وأخبر سبحانه أنه يحشر الكافرين على وجوههم ، قال سبحانه : ((ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما)) (الاسراء — ٩٧)
وقال : ((الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم)) (الفرقان — ٣٤)
وسئل صلى الله عليه وسلم : كيف يحشر الكافر على وجهه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : " أليس الذى أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة " . [2]

وقد قال صلى الله عليه وسلم : " يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين وراهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير ، ويحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسى معهم حيث أمسوا " [3] أخرجه البخاري في باب الحشر وذكره مع الحديثين السابقين في حشر المؤمنين وحشر الكافرين ، وأخرجه مسلم في باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة .

---

(١) كما في حديثي عائشة وابن عباس المتفق عليهما ، والبخاري مع الفتح (٣٧٧/١١ — ٣٧٨) ومسلم (٢١٩٣/٤ — ٢١٩٤) .

(٢) أخرجه البخاري ، البخاري مع الفتح (٣٧٧/١١) .

(٣) متفق عليه ، البخاري مع الفتح (٣٧٧/١١) ومسلم (٢١٩٥/٤) .

وقد نقل ابن حجر عن الخطابى ــ قال : " وصوب عياض ماذهب اليه الخطابى وقواه " ــ أن الحشر فى هذا الحديث يكون فى الدنيا قبل قيام الساعة يحشر الناس أحياء الى الشام ، وأما الحشر من القبور الى الموقف فهو خلاف هذه الصورة من الركوب على الابل والتعاقب عليها وانما هو على ما ورد فى الحديث حفاة عراة مشاة .[1]

ونقل رحمه الله عن بعض أهل العلم الجزم بأنه الحشر بعد الخروج من القبور ، وهو ظاهر صنيع البخارى ومسلم من ايرادهما الحديث على الوجه المذكور .

ونقل رحمه الله عن بعض أهل العلم أن حمله على الحشر من القبور أقوى من أوجه،وذكر أربعة أوجه،منها:أن الحشر اذا أطلق فى عرف الشارع انما يراد به الحشر من القبور مالم يخصه دليل .[2] وذكر ابن حجر أنه قد جمع بين هذا الحديث وحديث حشر الناس عراة حفاة مشاة بأنهم يخرجون من قبورهم على هذا الوصف ثم يفترق حالهم من ثم الى الموقف على مافى هذا الحديث[3] ومعلوم أن القيامة أحوال متعددة ، الا أن ابن حجر رجح أن الحشر الوارد فى الحديث انما يكون قبل المبعث .[4] والحديث دال على التفاضل فى الحشر ، وقد نقل ابن حجر عن بعض أهل العلم قوله " نرى أن هذا التقسيم الذى وقع فى هذا الحديث نظير التقسيم الذى وقع فى تفسير الواقعة

---

(١) انظر فتح البارى (٣٧٩/١١) .
(٢) انظر فتح البارى (٣٨٠/١١) .
(٣) انظر فتح البارى (٣٧٩/١١) .
(٤) انظر فتح البارى (٣٨٢/١١) .

فى قوله تعالى : ((وكنتم أزواجا ثلاثة)) الآيات ، فقوله فى الحديث (راغبين راهبين) يريد به عوام المؤمنين وهم من خلط عملا صالحا وآخر سيئا فيترددون بين الخوف والرجاء ، يخافون عاقبة سيآتهم ويرجون رحمة الله بايمانهم وهؤلاء أصحاب الميمنة ، وقوله (واثنان على بعير ... الخ) السابقين وهم أفاضل المؤمنين يحشرون ركبانا ، وقوله (وتحشر بقيتهم النار) يريد به أصحاب المشأمة ".[1]

ولعل في قوله تعالى : ((يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا)) (مريم – ٨٥) شاهد للطائفة الثانية وهم الركبان لأن الوفد لا يكون إلا راكبا كما روى عن على رضى الله عنه[2] وقد نقل المفسرون عن ائمة التفسير أن الحشر المذكور فى هذه الآية انما يكون عند المنصرف من بين يدى الله فى طريقهم الى الجنة[3] فهم لا يركبون الا من الموقف أما اذا خرجوا من القبور فحفاة عراة مشاة الى الموقف كما يقول القرطبى .[4]

ومن الأحوال الفاضلة في الحشر ، حال الشهيد فقد قال صلى الله عليه وسلم : " لا يكلم أحد فى سبيل الله ، والله أعلم بمن يكلم

---

(١) فتح البارى (١١/ ٣٨٠) .

(٢) انظر المسند (٢/ ٣٧٧) وتفسير القرطبى (١١/ ١٥٢) والدر المنثور (٥/ ٢٨٥) .

(٣) انظر تفسير البغوى (٣/ ٢٠٩) وتفسير ابن كثير (٣/ ١٣٨) ، وتفسير القرطبى (١١/ ١٥٢) والدر المنثور (٤/ ٢٨٤) .

(٤) التفسير (١١/ ١٥٢) .

في سبيله ، الا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب اللون لون دم والريح ريح مسك ".[1]

ومن الأحوال الفاضلة في المحشر ، حال الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل الا ظله ومنهم السبعة الذين ذكرهم النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : " سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله : الامام العادل وشاب نشأ في عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال : اني أخاف الله ، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ".[2]

وقال صلى الله عليه وسلم : " تدني الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار الميل " قال الراوي : فلا ادري ما يعني بالميل ؟ أمسافة الأرض أم الميل الذي تكتحل به العين ؟ قال صلى الله عليه وسلم : " فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون الى كعبه ومنهم من يكون الى ركبته ومنهم من يكون الى حقويه ومنهم من يلجمه العرق الجاما " وأشار صلى الله عليه وسلم بيده الى فيه .[3]

فهذا دليل على تفاضل الخلق في وقوفهم بالمحشر قبل فصل القضاء.

---

(١) أخرجه مسلم (٣/١٤٩٦) .
(٢) أخرجه البخاري ، البخاري مع الفتح (٢/١٤٣) .
(٣) أخرجه مسلم (٤/٢١٩٦) .

ومن الأحوال المفضولة في الحشر ، حال المتكبرين كما في الحديث : " يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان ".[1]

وأفضل أمم المؤمنين في المحشر أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد اختصها الله عز وجل فيه بما تتمتاز به عن غيرها، ومن هذه الخصائص :

- اختصاصها بأنها أكثر اتباع الانبياء عددا ، كما في حديث صحيح مسلم الذي تقدم ذكره : " أنا أكثر الأنبياء تبعا يوم القيامة ".
- وتميزها بعلامة تعرف بها وهي أنهم يأتون غرا محجلين من آثار الوضوء كما في الحديث : " ان أمتي يدعون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء ".[2]

وقال صلى الله عليه وسلم : " لكم سيما ليست لأحد غيركم تَـرِدُون عليّ غرا محجلين من آثار الوضوء ".[3]

وأفضل أحوال أهل المحشر وأكملهم حال الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ولا ريب ، وأفضل أحوال الأنبياء حال آدم وأولي العزم من الرسل

---

(١) أخرجه أحمد (٢/١٧٩) والترمذي (٤/٥٦٥) وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) متفق عليه ، البخاري مع الفتح (١/٢٣٥) ومسلم (١/٢١٦).

(٣) أخرجه مسلم (١/٢١٧).

الخمسة نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم
كما دل عليه صراحة حديث الشفاعة المخرج في الصحيحين وقد سبق ذكره
فأهل المحشر يقصدونهم خاصة من بين سائر الأنبياء والمرسلين لكي يشفعوا
عند الله لاراحتهم من هول الموقف ، ومحمد صلى الله عليه وسلم هو أفضل
أهل المحشر وحاله أفضل احوالهم فهو صاحب الشفاعة العظمى التي يتدافعها
الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

وجميع ما تقدم دال على التفاضل في الحشر .

المبحث الرابع
التفاضل في الحساب

قسم الله عباده في الحساب قسمين :

الأول : من يكون حسابه يسيرا وهم أهل اليمين ، قال تعالى :

((فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا)) (الانشقاق — ٨)

الثاني : من يلقى سوء الحساب وهم أهل جهنم ، قال تعالى

((أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد)) (الرعد — ١٨) .

وفي نصوص السنة دلالة على أن المؤمنين في الحساب ثلاثة أصناف :

* فصنف لا يحاسب، وهؤلاء طائفه من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أخبر عنهم صلى الله عليه وسلم وعدتهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بلا حساب ، ففي الحديث : " عرضت عليّ الأمم ، فجعل يمر النبي ومعه الرجل ، والنبي معه الرجلان والنبي معه الرهط ، والنبي ليس معه أحد ، ورأيت سوادا سد الأفق فرجوت أن تكون أمتي ، فقيل : هذا موسى وقومه ثم قيل، انظر، فرأيت سوادا كثيرا سد الأفق ، فقيل لي: انظر هكذا وهكذا ، فرأيت سوادا كثيرا سد الأفق ، فقيل : هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بلا حساب " .(1)

---

(1) متفق عليه البخاري مع الفتح (١٠/٢١١) ومسلم (١/١٩٧) .

وفي رواية : " هؤلاء أمتك ، وهؤلاء سبعون ألفا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب "[1]

فهذه زيادة فضيلة لهؤلاء أنهم يتقدمون الأمة ، وجاء في وصفهم أنهم يدخلون الجنة : " متماسكين آخذ بعضهم ببعض ، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم ، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر ".[2]

وفي حديث آخر أنهم يدخلون زمرة واحدة .[2]

وفي رواية في الصحيحين " سبعون ألفا ، أو سبعمائة ألف " شك من الراوي .[2]

ووقع في أحاديث أخرى في غير الصحيحين أن مع السبعين ألفا زيادة عليهم .[3]

* والصنف الثاني : لا يناقشون الحساب ، وانما تعرض أعمالهم ثم يتجاوز لهم عنها ، ففي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من نوقش الحساب عذب " فقالت عائشة : " أو ليس يقول الله تعالى -((فسوف يحاسب حسابا يسيرا)) - فقال : " انما ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب يهلك "[4]

---

(١) أخرجها البخاري ، الصحيح مع الفتح (١١/٤٠٦) .
(٢) البخاري مع الفتح (١١/٤٠٦) ومسلم (١/١٩٨ - ١٩٩) .
(٣) انظر فتح الباري (١١/٤١٠ - ٤١١) .
(٤) متفق عليه ، البخاري مع الفتح (١١/٤٠٥) ومسلم (١/١٩٧) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى بعض صلاته : " اللهم حاسبنى حسابا يسيرا " فلما انصرف قلت : يانبى الله ماالحساب اليسير ؟ قال : " أن ينظر فى كتابه فيتجاوز عنه — (وفى رواية قال : الرجل تعرض عليه ذنوبه ثم يتجاوز له عنها) — ان من نوقش الحساب يومئذ ياعائشة هلك ".[1]

* والصنف الثالث : يناقشون الحساب ويسألون فيه عن أعمالهم، يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته[2] ومن أمثلة هذا الصنف الذى يناقش الحساب وتوزن حسناته وسيئاته حديث البطاقة الذى قال فيه صلى الله عليه وسلم : " ان الله سيخلص رجلا من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مد البصر ، ثم يقول له : أتنكر من هذا شيئا ؟ أظلمتك كتبتى الحافظون ؟ قال : لا يارب، فيقول : ألك عذر أو حسنة ؟ فيبهت الرجل فيقول : لا يارب ، فيقول : بلى ان لك عندنا حسنة واحدة ، لا ظلم اليوم عليك ، فتخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فيقول : أحضروه، فيقول يارب ، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال انك لا تظلم ، قال : فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة ، قال : فطاشت السجلات

---

(١) رواه أحمد (٦/٤٨ ، ١٨٥) والحاكم (١/٥٧ و ٢٥٥ ،٤/ ٢٤٩) وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، وانظر الدر المنثور (٦/٣٢٩).

(٢) انظر : الفتاوى (٣/١٤٦).

وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء . [1]

فهذه دلائل على تفاضل المؤمنين في الحساب .

وفي هذا الباب تظهر فضيلة خص الله بها أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهي اختصاصها بشهادتها للأنبياء على أممهم وبشهادة رسولهم محمد صلى الله عليه وسلم عليها ، قال تعالى : ((وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)) (البقرة -١٤٣) وقال عز وجل : ((هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم ولتكونوا شهداء على الناس)) (الحج — ٧٨) وتكون شهادة هذه الأمة على نحو ما قال صلى الله عليه وسلم : " يجيء نوح وأمته ، فيقول الله تعالى : هل بلغت ؟ فيقول : نعم أي ورب ، فيقول لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا ، ماجاءنا من نبي ، فيقول لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد -صلى الله عليه وسلم - وأمته ، فنشهد أنه قد بلغ وهو قوله جل ذكره ((وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس)) والوسط : العدل ". [2]

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٢١٣ و ٢٢٢) والترمذي (٥/٢٥) وحسنه وابن ماجه (١٤٣٧/٢) والحاكم (١/٦) وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وصحح الحديث الألباني انظر هامش شرح الطحاوية (ص ٤١٣) .

(٢) أخرجه البخاري ، الصحيح مع الفتح (٦/٣٧١ ، ٨/١٧١) .

المبحث الرابع

التفاضل في المرور على الصراط وورود الحوض

الصراط جسر ممدود على متن جهنم يجوز الخلق عليه بعد تفرقهم من المحشر[1] وعليه كلاليب مثل شوك شجر السعدان الا أنه لا يعلم قدر عظمها الا الله تخطف الناس من فوق الصراط وهو دحض مزلة كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .[1]

والمؤمنون يتفاضلون في المرور على الصراط ، وهم في ذلك ثلاثة أصناف كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم : " فناج مسلم وناج مخدوش ، ومكدوس في نار جهنم "[2] فهم في الجملة صنفان :

١ — ناجون سالمون من السقوط في جهنم يجوزون الصراط .

٢ — مطروحون ساقطون في جهنم لا يتمون المرور على الصراط ، فاذا عوقبوا على معاصيهم أخرجوا من النار الى الجنة ، وقد ورد اجمالهم في هذين الصنفين

عن النبي صلى الله عليه وسلم في رواية اذ قال : " فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يخردل ثم ينجو ".[3]

ثم الناجون في الجملة صنفان : سالمون من خدش الكلاليب التي على الصراط ومخدوشون قد نالت منهم الكلاليب شيئا بحسب اعمالهم .

---

(١) انظر صحيح البخاري مع الفتح (٢/١٩٢) وصحيح مسلم (١/١٦٤)

(٢) متفق عليه ، البخاري مع الفتح (١١/٤٤٥) ومسلم (١/١٦٩).

(٣) متفق عليه ، البخاري مع الفتح (٢/١٩٢) ومسلم (١/١٦٤) .

ثم الناجون متفاضلون في صفة مرورهم على الصراط فمنهم من يمر عليه كالطرف ، ومنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كأجاويد الخيل حتى يمر آخرهم يسحب سحبا ، أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم .[1]

وأفضل المارين على الصراط وأكملهم مرورا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " ولا يتكلم يومئذ أحد الا الرسل وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم ".[2]

وأفضل اتباع الأنبياء مرورا أمة محمد صلى الله عليه وسلم فهم أول من يجوز الصراط من الأمم ، قال صلى الله عليه وسلم : " فأكون أول من يجوز من الرسل بأمتي ".[3]

وقد سئل صلى الله عليه وسلم : " من أول الناس اجازة ؟ قال : فقراء المهاجرين " .[4] وهذه فضيلة لفقراء المهاجرين .

وأما الحوض :

فان لكل نبي حوضا كما في الحديث : " ان لكل نبي حوضا ، وانهم يتباهون أيهم اكثر واردة ، واني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة ".[5]

---

(١) متفق عليه ، البخاري مع الفتح (١١/٤٤٥) ومسلم (١/١٦٩) .
(٢) متفق عليه ، البخاري مع الفتح (٢/١٩٢) ومسلم (١/١٦٤) .
(٣) متفق عليه ، البخاري مع الفتح (٢/١٩٢) ومسلم (١/١٦٤) .
(٤) اخرجه مسلم في صحيحه (١/٢٥٢) .
(٥) اخرجه الترمذي (٤/٥٤٢) والطبراني كما قال الهيثمي في المجمع (١٠/٣٦٣) وابن حجر في الفتح (١١/٤٦٧) وكذا ابن أبي الدنيا

===

وأحواض الأنبياء متفاضلة ، وأفضلها حوض النبي صلى الله عليه وسلم فهو أكثرها واردا ، وقد جاء في صفته أنه مسيرة شهر وأن زواياه سواء وأن ماءه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء من شرب منه لم يظمأ أبدا [1] وماء حوض نبينا صلى الله عليه وسلم " يشخب فيه ميزابان من الجنة " [2] كما قال صلى الله عليه وسلم .

وقد خص صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء بالكوثر كما قال تعالى : ((انا اعطيناك الكوثر)) والكوثر نهر في الجنة ، قال صلى الله عليه وسلم " بينما أنا أسير في الجنة اذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف ، قلت : ما هذا ياجبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فاذا طيبه ـ أو طينه ـ مسك أذفر " [3] شك من الراوي . وهذا من فضائله صلى الله عليه وسلم .

والمؤمنون يتفاضلون في ورود الحوض فمنهم من يرده ومنهم من يذاد عنه

= = = كما قال ابن حجر في الفتح (١١/ ٤٦٧)
وقد صححه السيوطي في الجامع (١/ ٩٧) وكذا الالباني في صحيح الجامع (٢/ ٢٢٩) وفي تخريج الطحاوية ، هامش صفحة (١٩٢) وفصل ذلك في الصحيحة (١٥٨٩) .

(١) ورد هذا في الحديث المتفق عليه ، البخاري مع الفتح (١١/ ٤٦٣) ومسلم (٤/ ١٧٩٣) .

(٢) صحيح مسلم (٤/ ٧٩٩) .

(٣) اخرجه البخاري ، الصحيح مع الفتح (٨/ ٧٣١) .

قال صلى الله عليه وسلم : " انى على الحوض حتى أنظر من يرد عليّ منكم وسيؤخذ ناس دوني فأقول : يارب مني ومن أمتي ، فيقال : هل شعرت ما عملوا بعدك والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم ". [1]

وقال صلى الله عليه وسلم : " انى لبعقر حوضى أذود الناس لأهل اليمن أضرب بعصاى حتى يرفض عليهم ". [2]

وهذه فضيلة لأهل اليمن وكرامة أن يدفع النبي صلى الله عليه وسلم الناس عن حوضه حتى يشربوا هم ويتقدموا في الشرب . [3]

---

(١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٤٦٦/١١) ومسلم (١٧٩٤/٤) .

(٢) اخرجه مسلم (١٧٩٩/٤) .

(٣) انظر شرح النووى لمسلم (٦٢/١٥) .

المبحث الخامس
التفاضل فى درجات الجنة

الجنة اسم لدار النعيم فى الآخرة شامل لكل ما حوته ، وهى جنات كثيرة جدا ودرجات متفاوتة ، ولقد ذكر سبحانه وتعالى انها جنات نحو ثمان وخمسين مرة فى كتابه ، كقوله سبحانه ((وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار)) (البقرة — ٢٥) وقوله : ((والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات)) (الشورى — ٢٢) وقوله ((ان المتقين فى جنات وعيون)) (الحجر — ٤٥) وذكر سبحانه أنها دجات فى أكثر من آية فى كتابه نحو قوله سبحانه : ((أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم)) (الأنفال — ٤) وقوله : ((أفمن أتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ، هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون)) (آل عمران — ١٦٣)

وكذا أخبر صلى الله عليه وسلم أنها جنان ، ففى الحديث أن أم حارثة بن سراقة أتت النبى صلى الله عليه وسلم تسأله عن ابنها وقد استشهد فى بدر : أفى الجنة هو ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : " أو جنة واحدة هى ؟ انها جنان فى الجنة وان ابنك أصاب الفردوس الأعلى " .[1]

وأخبر انها درجات فى مثل قوله صلى الله عليه وسلم : " ان فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين " .[2]

---

(١) أخرجه البخارى ، الصحيح مع الفتح (١١/٤١٥ و ٤١٨) .

(٢) أخرجه البخارى ، الصحيح مع الفتح (٦/١١و ١٣/٤٠٤) .

وهذه الجنات متفاضلة ، ففيها جنات عُلى كما قال سبحانه :
((فأولئك لهم الدرجات العلى)) (طه - ٧٥) وفيها درجات دون التي فوقها كما قال سبحانه :((ولمن خاف مقام ربه جنتان)) الى أن قال : ((ومن دونهما جنتان)) (الرحمن - ٤٦ - ٦٢) ، والجنات بعضها فوق بعض كما دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم : " ان أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم ".[1]

فقوله : " من فوقهم " يدل على ما ذكر ، وهذه الجنات متباعدات كما دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم : " ان في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والارض فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر انهار الجنة ".[2]

فهذا تباعد ما بين درجات هذه المائة التي أعدت للمجاهدين ، ودرجات الجنة كثيرة لم يرد حصرها في عدد فهذه مائة أعدت للمجاهدين وقال صلى الله عليه وسلم : " يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فان منزلك عند آخر آية تقرؤها "[3] وهذا يدل على أن درج الجنة لا حصر لها .

---

(١) متفق عليه ، البخاري مع الفتح (٦/ ٣٢٠) ومسلم (٤/ ٢١٧٧) .
(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ١١) .
(٣) اخرجه أحمد (٢/ ١٩٢) والترمذي (٥/ ١٦٣) وقال حسن صحيح ، وأبو داود (٢/ ٧٣) وابن حبان - الاحسان (٢/ ٧١) والحاكم (١/ ٥٥٣) وقال الذهبي : صحيح ، وحسنه الالباني في تخريج المشكاة (٢/ ٦٥٨) .

وقال الخطابى : جاء فى الأثر :"أن عدد آى القرآن على قدر درج الجنة "[1] والله أعلم بصحته .

والجنات على كثرتها وعدم احصائها الا أنها ترجع الى نوعين :

جنتان ذهبيتان بكل ما اشتملتا عليه وهما المخصوصتان بالمقربين ، وجنتان فضيتان بكل ما اشتملتا عليهم وهما لأصحاب اليمين [2] قال تعالى : ((ولمن خاف مقام ربه جنتان)) الى أن قال : ((ومن دونهما جنتان)) الآيات (الرحمن — ٤٦ — ٦٢) .

قال صلى الله عليه وسلم : " جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ".[3]

والمؤمنون متفاضلون بتفاضل درجاتها ، وأعلاهم وأكملهم درجة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، كما فى الحديث المذكور قريبا ، قال صلى الله عليه وسلم : " ان أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم قالوا : يارسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم . قال : " بلى والذى نفسى بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ".[4]

---

(١) معالم السنن — بهامش المختصر (٢/١٣٦) .

(٢) انظر حادى الارواح (ص ٧٧) وشرح النونية للهراس (٢/٣٥٦— ٣٥٨) .

(٣) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٨/٦٢٤) ومسلم (١/١٦٣)

(٤) متفق عليه البخارى مع الفتح (٦/٣٢٠) ومسلم (٤/٢١٧٧) .

أى : نعم هى منازل الأنبياء بايجاب الله تعالى لهم ذلك ولكن قد يتفضـل الله تعالى على غيرهم بالوصول الى تلك الدرجة .[1]

وأفضل الأنبياء درجة محمد صلى الله عليه وسلم فقد قال صلى الله عليه وسلم : " اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليّ فانه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا الله لى الوسيلة ، فانها منزلة فى الجنة لا تنبغى الا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو "[2] فهذه منزلة فى الجنة خاصة به صلى الله عليه وسلم ، وهو صلى الله عليه وسلم أول من يقرع باب الجنة فقد قال : " أنا أول من يقرع باب الجنة "[3] فيكون أول من يفتح له ، قال صلى الله عليه وسلم : " آتى باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ، فيقول : بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك ".[4]

ثم يتفاضل المؤمنون بعد الأنبياء فى الجنات ، قال صلى الله عليه وسلم : " ان أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء اضاءة "[5] ولعل المراد بأول زمرة السبعون ألفا الذين يدخلون الجنة بلا حساب من أمة محمد صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر فتح البارى (٦/٣٢٨) .
(٢) اخرجه مسلم (١/٢٨٨ — ٢٨٩) .
(٣) اخرجه مسلم (١/١٨٨) .
(٤) مسلم (١/١٨٨) .
(٥) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٦/٣١٩) ومسلم (٤/٢١٧٨) .

كما تقدم في الأحاديث المذكورة فيهم أنهم يتقدمون الأمة وأن من صفاتهم أنهم زمرة واحدة على صورة القمر. وأقل أهل الجنة منزلة المخرجون من النار بعد العقوبة ، قال صلى الله عليه وسلم : " يخرج قوم من النار بعد ما مسهم منها سفع فيدخلون الجنة ، فيسميهم أهل الجنة : الجهنميين". [1] وهؤلاء يتفاضلون في خروجهم من النار، يخرج بعضهم قبل بعض على منازلهم في الايمان كما في حديث الرؤية الطويل الذي فيه أن المجاوزين الصراط اذا رأوا أنهم قد نجوا وبقي اخوانهم يقولون : ربنا اخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا ويعملون معنا ، فيقول الله تعالى : اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من ايمان فأخرجوه ، ويحرم الله صورهم على النار ، فيأتونهم وبعضهم قد غاب في النار الى قدميه والى أنصاف ساقيه ، فيخرجون من عرفوا ثم يعودون ، فيقول : اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه ، فيخرجون من عرفوا ثم يعودون ، فيقول : اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من ايمان فأخرجوه فيخرجون من عرفوا ". [2] وآخر أهل النار خروجا منها ماجاء فيه : " اني لأعلم آخر أهل النار خروجا منها ، وآخر أهل الجنة دخولا ، رجل يخرج من النار حبوا فيقول الله: اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل اليه أنها ملأى ، فيرجع فيقول: يارب وجدتها ملأى، فيقول : اذهب فادخل الجنة فيرجع فيقول : يارب وجدتها ملأى ، فيقول : أذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخل اليه أنها ملأى ، فيقول : اذهب فادخل الجنة ، فان لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها ". وجاء في آخر الرواية : " فكان يقال :

---

(١) البخاري مع الفتح (١١/٤١٦).
(٢) متفق عليه ، البخاري مع الفتح (١٣/٤٢١) (١/١٦٩—١٧٠) و مسلم (١/١٦٩-١٧٠)

ذلك أدنى أهل الجنة منزلة ".[1]

وهذا هو أدنى أهل الجنة منزلة كما في حديث :" سأل موسى ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجئ بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له : أدخل الجنة . فيقول : أى رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت ، رب ، فيقول : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله . فقال في الخامسة : رضيت ، رب ، فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله . ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك . فيقول : رضيت ، رب ، قال : رب فأعلاهم منزلة ، قال : أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدى وختمت عليها . فلم ترعين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر" قال ومصداقه في كتاب الله عز وجل : فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين"[2] (السجدة ــ ١٧) .

وحظ الرجال من الجنة أعظم من حظ النساء ففى الحديث : " أريت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء ".[3]

وقال صلى الله عليه وسلم للنساء : " تصدقن فان أكثركن حطب جهنم ".[4]

---

(١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (١١/ ٤١٨ ــ ٤١٩) ومسلم (١/١٧٣)

(٢) صحيح مسلم (١/ ١٧٦) .

(٣) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٢/ ٥٤٠) ومسلم (١/ ٦٢٦) .

(٤) مسلم (١/ ٦٠٣) .

وأمة محمد صلى الله عليه وسلم أفضل أهل الجنة فهم أول من يدخل الجنة ، قال صلى الله عليه وسلم : " نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، ونحن أول من يدخل الجنة ". [1] وهم أكثر أهل الجنة اذ هم نصف أهل الجنة ففي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : " أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة ؟ قالوا : نعم ، قال : " أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة ؟ قالوا : نعم ، فقال : " والذى نفسى بيده اني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة ، وذاك أن الجنة لا يدخلها الا نفس مسلمة وما أنتم من أهل الشرك الا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر ". [2]

---

(١) مسلم (٢/٥٨٦) .

(٢) صحيح مسلم (١/ ٢٠٠ — ٤٠١) .

المبحث السادس
تفاوت أهل النار فيها

دل الكتاب والسنة أن جهنم دركات

قال الله عز وجل : ((ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار))

(النساء ـ ١٤٥) .

وقال صلى الله عليه وسلم فى عمه أبى طالب : " هو فى ضحضاح من نار ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار ".[١]

قال أبو عبيدة :[أ] " جهنم أدراك أى منازل وأطباق "[٢]

ويقال للمنازل اذا كان بعضها فوق بعض درج ، ولذا سميت منازل الجنة درجات ، واذا كان بعضها أسفل بعضها يقال لها درك .[٣]

ويشهد له قول الله ورسوله " فى الدرك الأسفل " يعنى

---

(١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٧/ ١٩٣) ومسلم (١/ ١٩٥) .
(٢) مجاز القرآن (١/ ١٤٢) .
(٣) انظر زاد المسير (٢/ ٢٣٤) والنهاية فى غريب الحديث (٢/ ١١٤)

(أ) هو معمر بن المثنى ، من أئمة اللغة ، وكان مع هذا شعوبيا يبغض العرب وصنف فى مثالبهم ، وكان خارجيا أباضيا ، ت ٢٠٩ هـ
انظر : تهذيب التهذيب (١٠/ ٢٤٦) وميزان الاعتدال (٤/ ١٥٥) .

أن النار درجات بعضها أسفل بعض . وقال سبحانه وتعالى : ((ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب)) (غافر - ٤٦) وقال في بني اسرائيل : ((ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب)) (البقرة - ٨٥) .

فعذاب جهنم متفاوت بعضه أشد من بعض ، وعلى هذا فمنازل أهل النار متفاوتة بتفاوت دركاتها ، وقد أخبر سبحانه أن المنافقين أسفل أهل النار اذ هم في الدرك الأسفل منها .

وأخبر صلى الله عليه وسلم عن أهون أهل النار عذابا فقال :
" ان أهون أهل النار عذابا يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه ".[1] وصرّح صلى الله عليه وسلم أنه أبو طالب فقال :
" أهون أهل النار عذابا أبو طالب ، وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه ".[2]

ولا شك أن عصاة المؤمنين الذين يدخلون النار فيعذبون فيها على قدر أعمالهم ثم يخرجون منها - كما تقدم بيانه - لاشك أنهم أهون أهل النار عذابا لأن عذابهم فيها مؤقت ، أما بقية أهل النار من الكفار والمنافقين فكما قال الله عز وجل فيهم : ((لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها)) (فاطر - ٣٦) .

---

(١) متفق عليه ، البخاري مع الفتح (١١/٤١٧) ومسلم(١/١٩٦)

(٢) اخرجه مسلم (١/١٩٦).

ومقصود النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : " أهون أهل النار عذابا " فى هذا الحديث أهلها المقيمين فيها الذين لا يخرجون منها كما قال صلى الله عليه وسلم : " أما أهل النار الذين هم أهلها فانهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم (أو قال بخطاياهم) فأماتهم اماتة حتى اذا كانوا فحما أذن بالشفاعة فجىء بهم ضبائر ضبائر ، فبثوا على أنهار الجنة ، ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم ، فينبتون نبات الجنة تكون فى حميل السيل ".[1]

أجارنا الله من عذاب جهنم وختم لنا بخير ، آمين.

---

(١) أخرجه مسلم (١/١٧٢ - ١٧٣).

الخاتمة

الحمد لله ، اللهم ربنا لك الحمد ، حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، ملأ السموات والأرض وملأ ما بينهما ، وملأ ما شئت من شئ بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ، لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، لك الحمد فى الأولى والآخرة ، الحمد لله من قبل ومن بعد . أما بعد :

فمن خلال عرض أدلة الكتاب والسنة ، وايراد دلالاتها من منطوقها وفهم العلماء تقررت فى بابى البحث وفصوله أمور فى مباحث المفاضلة ، فقد بينت فيه فضل الخالق على خلقه نقضا لمذهب أهل وحدة الوجود والجهمية والمعتزلة الذين يستحيل على مذاهبهم اثبات فضل الله على خلقه .

ثم بينت تفاضل أسماء الله وصفاته ، ودلالة هذا التفاضل على تعدد الأسماء والصفات وتعدد معانيها نقضا لمذهب المعتزلة الذين جعلوا اسماء الله أعلاما محضة مترادفة لا معنى لها وعطلوا صفات الله فاستحال على مذهبهم تفاضل الأسماء والصفات .

وكذا بينت أن التفاضل يقع فى الصفة الواحدة من صفات الله كتفاضل صفة الكلام نقضا لمذهب الأشاعرة والكلابية ومن نحى نحوهم من المتكلمين فى نفيهم تفاضل صفات الله وصفة الكلام خاصة .

وبينت أن تفاضل أسماء الله وصفاته هو تفاضل بين صفات كمال

وتناول البحث مباحث متفرقة من المفاضلة ، فتقرر جواز امامة المفضول وأن الملائكة متفاضلون ، وأن الصحيح هو تفضيل الأنبياء وصالح المؤمنين على الملائكة .

وتقرر كذلك تفاضل المؤمنين فى الآخرة فى أحوال البعث من الحشر والحساب والمرور على الصراط ودرجات الجنة .

وقد تقرر من خلال البحث عدد من القواعد العامة فى المفاضلة أهمها :

١ _ أن التفاضل لا يكون الا مع التعدد ، فهو انما يقع بين شيئين فصاعدا ولا يعقل فى الواحد من كل وجه .

٢ _ أن المفاضلة لا تستلزم نقص المفضول بل تقع فى الأشياء الفاضلة .

٣ _ أنه قد تثبت للمفضول خصيصة فاضلة لا يشاركه فيها الفاضل .

٤ _ أن ثبوت فضيلة يختص بها الشئ لا تستلزم تفضيله مطلقا .

٥ _ أن تفاضل الأزمنة والأمكنة لا لشئ فى ذاتها بل لما تعلق بها من أعمال صالحة متفاضلة .

٦ _ أن مدار المفاضلة بين الخلق على العبودية لله فكل من كان حظه من العبودية أتم وأكمل كان أفضل .

٧ _ أن المؤمن ينبغى أن ترقى همته الى الأمور الفاضلة فلا يقنع بالمفضول منها تقاعسا عن الأفضل ، يتمثل بذلك هدى

فهرس الموضوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

جدول تصويب الأخطاء المطبعية في الرسالة

الصفحة	السطر	الصواب	الخطأ
٢١	الأخير	الفرض	الغرض
٢٥	هامش ٤	في الأعراف	في الأعراض
٤١	٧	أشبهه	أشبه
٥١	١٣ في الهامش	نفح الطيب	نفخ الطيب
٦٩	١٠–١١	الى أن قال	الى قال
٧٣	١٥	المقدسة	المقدسه
٧٣	١٦	الحياة	الحياه
٧٩	٤ في الهامش	وَثَّقَهُ	وثقة
٨٣	هامش رقم ٤	للطحاوى	للطاوى
٨٣	١٠	دخل الجنة	داخل الجنة
٩٨	هامش ٤	٢١٠/١٢	٤١٠/١٢
١٠٣	١٠	الرسالة	الرسة
١١٨	١٤	من جهة	من وجهة
١٢٥	٣	مخبرا	مخبر
١٣٢	٧	أحدها	أحدهما
١٣٦	٦	أحدها	إحدهما
١٣٦	١٠	الرسالة	الرسة
١٣٧	٦ في الهامش	بالنحو	بالنحوب
١٤٦	٣	يقع	تقع
١٤٧	١٣	بالانباء من الله	بالأنبياء من الله .
١٥٠	٩	لم نقصص عليك	لم نقصص عليكم
١٥٤	١	عليه السلام	عليه السلا
١٧٣	١	أما الأول	أما الأولى
١٧٣	٦	عليه السلام	عليه السلا
١٧٥	٩	الرسالة	الرسة
١٩٥	٢	مايستطيعه	ما يستطيعة
٢٠١	٢	حيث	حيثما
٢٠١	٨	تكليم	تكيلم
٢٠٣	٦	آتاني	أتاني
٢٠٦	٨	فضلنا	فضنلا
٢٠٩	٦	فتحصل	فتصحل
٢١٥	١	وقد وقع	وقع وقع
٢٢١	٥ في الهامش	بالعنعنة	بالعفة
٢٣٢	٤	هود (٥٤)	هو (٥٤)

الصفحة	السطر	الصواب	الخطأ
٢٥٥	٨-٩	رحمه الله	رحمة الله الله
٢٥٥	١٢	سيرة معاوية	سير معاوية
٢٥٩	٢	مع أن فيهم	مع من أن فيهم
الصفحة رقم ٢٦٣ هى فى الصواب رقم ٢٦٤			
والصفحة رقم ٢٦٤ هى فى الصواب رقم ٢٦٣			
٢٦٨	٤	تقع عليه عينك	تقع عليك عنك
٢٨١	٨	بولاية	بولائة
٢٨٩	٥	أو لم يرو	أو لم ير
٢٨٩	٦ - ٧	كما يقول ابن حجر	كما يقول حجر
٣٠٨	هامش ٢	يضاف :"انظر: البخارى مع الفتح (٥/٢٥٨) ومسلم (٤/١٩٦٤)	
٣١٠	هامش ١	يضاف :" وصحيح مسلم (٤/١٩٦٣) "	
٣١٥	٤	لا يعتقدون	لا يتعقدون
٣١٧	٩ فى الهامش	يضاف ، ومسلم فى صحيحه (٤/٢٢١٤)	
٣١٩	١٢	ما تعملون	ما تعلمون
٣٢٥	الأخير فى الهامش	ذكر ذلك	ذلك ذلك
٣٢٩	٧	من وجوه التفاضل	من وجود التفاضل
٣٥٨	٨	ثم صرفكم عنهم ليبتليكم	ثم صرفهم عنكم يبتليكم
٣٥٧	٣	يفضلها	يفضلهما
٣٨٢	١٥	لا نسبة اليه	لا نسبه اليه
٣٩٤	٥	يعملونها	يمعملونها
٣٩٦	٩	ينزع نزع	ينزغ نوع
٤٠١	١٣	الملة	المللة
٤٣٣	٣	تبلغه	تبلغة
٤٥٩	٩	على كثير ممن.	على كثير من
٤٦٢	٩	مالا يعنيه	ملا يعنيه
٤٦٦	١٠	وبهذا التفصيل	وبهذا التفضيل
٤٦٨	١٠	ولواستزدته لزادني	ولو استزدته لزدته
٤٨٤	١٢	من أراد	من أرد
٥١٨	١٤	فان لكل نبي حوضا	فان لكل نبي حوض
٥٢٥	١٨	فيخيل	فيخل
٥٢٩	١	أن النار دركات	أن النار درجات